1328232B
COLUMBIA UNIVERSITY LIBRARIES
0113282328
BUTLER STACKS

THE LIBRARIES
COLUMBIA UNIVERSITY
GENERAL LIBRARY

DUE DATE

GL MAR 01 1987

SEMST JUN 1 1987

SEMST SEP 30 1987

SEMST FEB 15 1988

201-6503

Printed in USA

تفسير الفاتحة

و ٦ سور من خواتيم القرآن

العصر والكوثر والكافرون والاخلاص والمعوذتين

تأليف

السيد محمد رشيد رضا

رضى الله عنه

إلا تفسير سورة العصر المطول فهو للأستاذ الإمام

ويليهن خمس آثارات للأستاذ الامام

فى التوسل والتوحيد ومشكلات التفسير ، ومحاضرة فى العلم والتعليم

حقوق الطبع محفوظة لورثته

الطبعة الثانية : أصدرتها دار المنار ١٤ شارع الانشا بمصر ١٣٦٧ هـ

وهى السادسة لتفسير الفاتحة ومشكلات التفسير

صدرت حديثاً

الطبعة الثانية عشرة

من

رسالة التوحيد

والطبعة السابعة من

الإسلام والنصرانية

مع

العلم والمدنية

تأليف

الأستاذ الإمام

الشيخ محمد عبده

مع الشرح والتعليقات والحواشي

بقلم

السيد محمد رشيد رضا

تفسير الفاتحة

و ٦ سور من خواتيم القرآن

العصر والكوثر والكافرون والاخلاص والمعوذتين

تأليف

السيد محمد رشيد رضا

رضى الله عنه

إلا تفسير سورة العصر المطول فهو للأستاذ الإمام

ويليهن خمس آثارات للأستاذ الامام

فى التوسل والتوحيد ومشكلات التفسير ، ومحاضرة فى العلم والتعليم

حقوق الطبع محفوظة لورثته

الطبعة الثانية : أصدرتها دار المنار ١٤ شارع الانشا بمصر ١٣٦٧ هـ

وهى السادسة لتفسير الفاتحة ومشكلات التفسير

BP
128.16
.M831

التعريف بهذا الكتاب

بسم الله الرحمن الرحيم

هَٰذَا بَيَانٌ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِلْمُتَّقِينَ

(سورة آل عمران ٣ : ٣٨)

يجب على كل مؤمن بالقرآن أن يحاسب نفسه على حظه من بيان القرآن للدين ، ومن هداه له من ضلال الضالين ، ومن موعظته للغافلين والمقصرين ، فبمقدار حظه من هذه الأنوار الثلاثة يكون مقامه فى المتقين ، ومكانه من الجنة التى قال فيها (أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ) وان هذا المقدار ليصغر و يكبر بالتتبع لفهم القرآن وتدبره ، إذ تتجلى له فى كل سورة منه يتلوها فى الصلاة وغيرها آيات من بيانه ، فى علمه وعرفانه وحكمه وأحكامه ، تفيض عليه أنوارها ، من أطوالها وقصارها

وإنك لتجد فى هذا الكتاب تفسيراً لفاتحة الكتاب التى يقرؤها كل مسلم فى كل ركعة من صلواته فرضها ونفلها ، وتفسيراً لست سور هى أقصر خواتيمه التى يحفظها أكثر المسلمين كلها

أو بعضها ويسهل على كل امرأة ورجل من العوام حفظها ، ليقرأ بعد الفاتحة واحدة منها ، فينفخ تدبرها فى روح المصلى روح الصلاة التى هى عماد الدين وأعظم أركانه ، الذى به تكون ناهية عن الفحشاء والمنكر ، وبه يعرف من نفسه معنى كون الصلاة قرينة لخلق الصبر فى الاستعانة بها على عظائم الأعمال ، ومصائب الحياة ، فى قوله (٢ : ٤٥ واستعينوا بالصبر والصلاة وانها لكبيرة إلا على الخاشعين) ويتقى الهلع والجزع فى قوله (٧٠ : ١٩ إن الإنسان خلق هلوعا ٢٠ إذا مسه الشر جَزوعا ٢١ وإذا مسه الخير مَنوعا ٢٢ إلا المصلين) الخ إذ استثنى الله من هاتين الخلتين الذميمتين المصلين الذين هم على صلاتهم دائمون .

وإننى أشير فى هذا التعريف إلى ما فى تفسير كل من هذه السور السبع من صفات القرآن الثلاث فى الآية التى صدرته بها .

تفسير الفاتحة :

للفاتحة فى هذا الكتاب تفسير مطول منقول من تفسير المنار ، فيه بيان لجميع أنواع هداية القرآن ، وأصول عقيدة الإسلام ، التى أجملت فيها اجمالا ، وفصلت فى سائر سوره تفصيلا ، وقد

اقتبسنا فيه جملة ما قاله شيخنا الأستاذ الإمام (الشيخ محمد عبده) قدس الله روحه في دروس التفسير في الأزهر وطبع في حياته فأعجبه، ثم زدنا فيه زيادة صالحة، وهذه الطبعة السادسة له وهي أوسع مما قبلها. وفيه تفسير مختصر لها هو الذى يتدبره المصلى في صلاته ليكون خاشعاً لله فيها، بتذكر رحمته العامة للعالمين، والخاصة بالمؤمنين المتقين، وحمده على نعمه، الفائضة من كرم ربوبيته، وكونه الملك الحق المالك لأمر يوم الدين، والحساب والجزاء للعاملين، وما شرف كل مؤمن من أمره بخطابه كفاحا بلا واسطة، يتعرف إليه بتوحيده بالعبادة الخالصة له، واستعانته وحده على جميع أمور الدنيا والآخرة، ودعائه بهداية الصراط المستقيم، والالتحاق بالمنعم عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين، غير المغضوب عليهم ممن عرفوا الحق فتركوه إيثاراً للهوى على الهدى، وغير الضالين عنه بجهله، (الذين ضل سعيهم في الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعاً).

أىّ مؤمن بالله يناجيه بهذه المعانى العالية في كل يوم وليلة سبع عشرة مرة من ركعات الصلاة المفروضة وما يتطوع به من السنن والنوافل، وهو موجه وجهه إلى قبلة المؤمنين، أول بيت وضع لعبادة الناس بمكة مباركا وهدى للعالمين، وموجهاً وجهه

الروحى إلى ربه العظيم ، المستوى على عرشه فوق جميع عباده بغير تشبيه ولا تمثيل ، ثم لا تكون هذه المعانى العالية أعظم همه من حياته . ويكون كل ما عداها من شؤون الحياة تابعاً لها ، وعونا عليها .

ويلى تفسير الفاتحة علاوات من تفسير المنار فى كون البسملة من الفاتحة بالتحقيق ، ومن كل سورة بالترجيح ، وحكم قراءتها فى الصلاة ، وحكم التأمين بعدها ، وتفنيد شبهة نصرانى على بلاغتها ، وما تفضل به ما يسميه النصارى بالصلاة الربانية .

تفسير سورة العصر :

لهذه السورة فى هذا الكتاب تفسيران أيضاً : تفسير مطول لشيخنا الأستاذ الإمام رحمه الله تعالى كان ألقاه محاضرة أو درساً على علماء مدينة الجزائر ووجهائها سنة ١٣٢١ هـ ١٩٠٣ م وكتبه بيده ، وهـذا التفسير آية من آيات الله عز وجل يظهر به معنى قول الإمام الشافعى (رض) لو لم ينزل إلا هذه السورة لكفت الناس ، وفى رواية لو تدبر الناس هذه السورة لكفتهم ، وقد طبع من قبل ويليه تفسير مختصر لنا فى بيان ما يتدبره المصلى عند قراءة هذه السورة وملخصه أن الإنسان بمقتضى طبعه وغرائزه وبيئته فى خسر لا يسلم أحد من نوع منه ، وشره خسار

نفسه الموبق لها ، إلا المؤمنين بالله واليوم الآخر وما يكون فيه من الجزاء على الأعمال ، والعمل الصالح الذى تصلح به أعمالهم ومعاملاتهم بعضهم مع بعض وتواصيهم بالحق الذى عليهم لربهم ولأنفسهم ولأمتهم ، وتواصيهم بالصبر واحتمال المشاق فى سبيله ، ويدخل فيه الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر .

تفسير سورة الكوثر

هي أقصر سورة فى القرآن ، وفيها أنواع من دلائل الاعجاز ، وأنباء الغيب التى فسرها الزمان ، فهى من أعظم أغذية الإيمان ، والتذكير بما أعطى الله ورسوله خاتم النبيين عليه أفضل الصلاة والسلام من أنواع الخير الكثير فى الدنيا والآخرة الذى رفع ذكره ، وخلد تاريخه ، ومحق ذكر شانئيه ، وقد بينا فى تفسيرها القدر الذى يتدبره المصلى عند قراءتها من هذا البيان والهدى والموعظة للمتقين .

تفسير سورة الكافرون

فيه بيان الفصل بين عبادة التوحيد المحض الذى جاء به خاتم النبيين لإحياء ما كان عليه كل منهم وعبادة الشرك المبتدعة من أساسها أو العارضة على أديان الأنبياء السابقين ، و براءة النبي

ومن اتبعه من عبادة مايعبد المشركون من الانداد والشفعاء ، ومن نوع عبادتهم لهم و إيئاسهم من الاتفاق معهم واقرارهم عليها ، والفصل التام بين دينهم المخترع ، ودينه الذى هو دين الله المنزل .

تفسير سورة الاخلاص

هذه سورة توحيد المؤمنين المخلصين ، المتممة لمعانى سورة الكافرين ، فتلك نافية لكفر الوثنية ، وهذه مثبتة لإيمان الحنفية ، ببيان أحدية الله تعالى وصمديته و بطلان ما ابتدعته الأديان الوثنية القديمة وسرى منها إلى آخر ملة قبل الاسلام من اتخاذ الولد له سبحانه ، وتلطيف شناعة الولادة والوالدية بتسميتها انبثاقا ، مع الاصرار على لقب والدة الإله ووالدة الرب ، وما ابتدعوه من اتخاذ الأنداد والأكفاء له عز وجل ، الذين يعبدون كعبادته بدعائهم حتى فى الشدائد ، والنذر لهم وقربان الذبائح ، وتسمية متأخرى عبادهم إياهم بالأولياء والشفعاء ، المتصرفين فى الأكوان ، وتسمية عبادتهم لهم بالتوسل والاستشفاع ومعنى الأحد والصمد ينقض هذا كله .

وقد فصل بين السورتين بسورة اللهب لحكمة بالغة هى الحجة الناهضة بالمثال الحسى على الفرق بين دين الوثنية ودين التوحيد ،

فالأول مبنى على أن نجاة البشر من خسر أنفسهم وفوزهم بالسعادة فى دينهم ودنياهم ، منوط بوساطة الشفعاء بين الله وعباده والآخر مبنى على تجريد التوحيد لله والعمل الصالح الذى تتزكى به النفس فتكون أهلا لسعادة الدارين .

تفسير سورة الفلق

ختم مصحف القرآن العظيم بالمعوذتين لحكمة بالغة خلاصتها أن دين الله الذى بعث به جميع رسله وأكمله بهذا الكتاب المبين الذى بعث به رسوله محمداً خاتم النبيين صلى الله عليه وسلم يرتقى بجميع مقاصده الاصلاحية إلى أمر واحد لا يكمل المكلف بدونه ، وهو معرفة الانسان بربه وتوحيده إياه ، وقد فصل هذه المقاصد فيه فجعل التوحيد روحها ، ثم ختمه بسورة التبرؤ من أديان الوثنية كلها وأهلها الكافرين ، فسورة الاخلاص المجملة لأركان التوحيد وهدم أنواع الشرك كلها . فسورتى الاستعاذة بالله من الشرور المعارضة لخير الانسان فى مقاصده الانسانية الجسدية والروحية كلها بما يشعره بصفات الوحدانية له عز وجل .

ففى سورة الفلق تنبيهه إلى ما فى العالم من شرور المخلوقات التى هو عرضة لها فى عامة أوقاته من ليل ونهار ، وخص بالذكر غاسق الليل إذا وقب ظلامه فعم الآفاق وخفيت فيه مسالك طوارق

الشر وطرق اتقائها ، وشر النفاثات فى العقد من السحرة الدجالين والمفسدين النمامين ، وشر الأعداء الحاسدين ، ليتقى مضار هذه الشرور بما استطاع من الوسائل الكسبية ، ويستعيذ مما يجهله أو يعجز عنه منها برب الفلق وهو الفجر المنير ، يشق له ظلمة الليل البهيم ، فيرى فى ضوئه منها ما لم يكن يراه وينال باعاذته ومعونته له حفظه مما يخشاه .

فسرناها بهذا الارشاد النافع فى الضوء الساطع بعد مقدمة وتمهيد فى تحقيق معنى الشر ومفاسده فى العالم ، وكونه ليس شيئا مخلوقا مستقلا بذاته ، وإنما جله من أفعال المكلفين ، وأقله من تقصيرهم فى اتقاء حوادث الكون النافعة بذاتها الضارة لبعض الناس ببعض عوارضها .

وجعلنا له خاتمة فى مسألة السحر وما روى من جعل النفاثات فى العقد منه ، وكون بعض اليهود سحر النبى صلى الله عليه وسلم ، وما توهم بعض العلماء من تأثير ذلك السحر فيه تأثيراً حمل آخرين منه على إنكار الحديث من أصله ، وحققنا فيه أن رواية الصحيحين له تدل على أنه خاص بمسألة مباشرة النساء الذى يعبر عنها فى عرف الناس بعقدة الرجل أو ربطه بما يكون به عاجزاً عن المباشرة الزوجية ، ولم يكن له أدنى تأثير فى عقله المنير ، ولا فى

جسمه الشريف ، بعد إيراد خلاصة ما قاله منكرو الحديث ومثبوته فى الرواية .

تفسير سورة النـاس

نزلت هذه السورة منبهة ومذكرة للناس بشر أكبر من شرور تلك المخلوقات المشار اليها فيما قبلها وهو الشر الخفى الكامن فى النفس الذى يفسد العقائد والأفكار ويثير الفتن بين الجماعات والعداوة بين الافراد بما يلقيه شياطين الانس والجن من الوسواس فى القلوب ، وينفثونه من سموم الأضغان فى الصدور ، فبينا فى تفسيرها ما يجب على الناس من الفطنة والبصيرة فى الخواطر التى تجول فى صدورهم من الوسوسة الخفية النفسانية والشيطانية والتى تتولد من وحى شياطين الانس الدعاة إلى الباطل فى الاعتقاد أو العمل ، وما ينبغى لهم من الاستعانة على اتقاء شرها بالاستعاذة برب الناس ملك الناس إله الناس . وحكمة تكرار لفظ الناس باضافة كل صفة من هذه الصفات ، وقصاراه أن أكثر شرور الناس ومفاسدهم من الناس أنفسهم لا من غيرهم ومثارها جهلهم وضعف إيمانهم بهذه الصفات الثلاث لربهم التى لا يكمل توحيدهم إلا بفهمها كما يجب .

القسم الثانى من الكتاب

خمس أثارات للاستاذ الامام فى شبهة التوسل على التوحيد ، ومشكلات ، أو شبهات فى التفسير ، ومحاضرة فى العلم والتعليم ، لم تنشر فى جزء المنشآت من تاريخه .

الأثارة الأولى

فتوى فى التوسل بالانبياء والاولياء بين فيها ماسرى إلى الجاهلين بحقيقة التوحيد من النزغات الوثنية والشرك فى الألوهية من باب الغلو فى جاههم وأطلقوا عليه اسم التوسل .

الأثارة الثانية

فى أفعال العباد واسنادها تارة إليهم وتارة إلى الله تعالى فى قوله تعالى (وإن تصبهم حسنة يقولوا هذه من عند الله ، وإن تصبهم سيئة يقولوا هذه من عندك قل كل من عند الله، فما لهؤلاء القوم لايكادون يفقهون حديثاً ؟) وقوله تعالى عقيبها (ما أصابك من حسنة فمن الله ، وما أصابك من سيئة فمن نفسك وأرسلناك للناس رسولا وكفى بالله شهيداً) وتفسير الآيتين بما تتجلى به الحقيقة فى كل منهما ويرتفع التعارض الموهوم فيهما .

الأثارة الثالثة

مسألة الغرانيق ، وجعل رواياتها الباطلة تفسيراً لقوله تعالى من سورة الحج (٢٢ : ٥٢ـ ٥٥ وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبي إلا إذا تمنى ألقى الشيطان فى أمنيته) الآيات وهذه الرواية رواية الغرانيق أشنع دسيسة فى الطعن على عصمة النبي ﷺ فى تبليغ الوحي ، دسها الزنادقة في سيرته ﷺ وفي تفسير كتاب الله تعالى ، واغتر بعض المفسرين والمحدثين بتعدد رواتها ، على اعترافهم بانقطاع أسانيدها كلها ، وجهل حال من سقط من رجالها ، واحتمال أن يكونوا من الزنادقة وقد بين الأستاذ الإمام فيها ما هو الحق ، واستشهد بكلام من جمعوا فيها بين العلم والعقل

الاثارة الرابعة

مسألة زيد وزينب ، وهي قرينة لمسألة الغرانيق فى كونها رواية حديث باطل المتن منقطع الاسناد أدخلت فى تفسير القرآن وقريبة منها فى كونها اتخذت مطعنا فى النبي الأعظم صلى الله عليه وسلم كبره دعاة النصرانية لرواج مثله عند أهل ملتهم ، ولا سيما الافرنج منهم ، ولكنها بعيدة كل البعد في مكان سحيق من معاني الآيات الحكيمة التي وردت فى تزويج النبي ﷺ زيد

بن حارثة الذى كان عبداً له فأعتقه وتبناه قبل الاسلام ، ببنت عمه زينب بنت جحش ، فإنه زوجه بها بأمر الله تعالى على كره منها ومن أخيها امتثالا لأمر الله تعالى له بذلك ، و إعلامه إياه بأنهما لن يتفقا فى حياتهما الزوجية فلا يلبث أن يطلقها و إيجابه عليه أن يتزوجها هو بعد طلاقها ، ليكون قدوة لقومه وأمته فى إبطال ما كانوا قد اعتادوه فى الجاهلية من إدخال الأدعياء فى أنسابهم بالتبنى وجعلهم للدعى جميع أحكام الابن الحقيقى فاختلق واضع الرواية سبباً باطنيا باطلا لهذه الآيات يتبرأ منها وتتبرأ منه فى معانيها وأسلوبها وحوادثها وخلاصته أن النبى ﷺ رأى زينب عقب الزواج فأعجبته فقال « سبحان مقلب القلوب » ففهمت زينب من هذه الكلمة أن قلبه ﷺ علق بها ، فكان هذا سبب الشقاق بينها و بين زيد المفضى إلى تطليقها ، وقد كان ﷺ يراها من أول نشأتها لمكان القرابة ولم يعلقها ، وكأن تلك الكلمة « سبحان مقلب القلوب » والقسم بمقلب القلوب هجيراه يكثر ورودها على لسانه وكان يعلم كره زينب لزيد وعده غير كفؤلها فى الزواج ، لأنها صرحت له هى وأخوها بذلك عندما خطبها له ، وقد امتنع بعض كبار المفسرين من ذكر هذه الرواية لبطلان معناها وضعف سندها

وانقطاعه كالحافظ ابن كثير ، وذكرها بعضهم وسكت عليها كعادتهم فى نقل كل ما روي على علاته ، و بعضهم تقليدا بغير تمييز ، وذكرها بعضهم لتفنيدها ، فأظهر بطلانها ، وقد سئل الأستاذ الإمام رحمه الله عنها ، فحقق الحق وفند الباطل .

ولكن بعض أدباء النصارى لم يقتنع بما كتبه ونشرناه فى المنار ، فوضحنا الحق منه فى مقالة أخرى ونشرناهما معاً فى هذا المجموع.

الاثارة الخامسة

محاضرة ألقاها الأستاذ الامام طيب الله ذكره فى حاضرة تونس فى العلم والتعليم ، تهدى إلى الحق و إلى صراط مستقيم ، وهى خاتمة هذا المجموع المفيد إن شاء الله تعالى .

﴿ وله الحمد أولا وآخرا ﴾

سورة الفاتحة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(٢) الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَـٰلَمِينَ (٣) الرَّحْمَـٰنِ الرَّحِيمِ
(٤) مَـٰلِكِ يَوْمِ الدِّينِ (٥) إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ
(٦) اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ (٧) صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ
عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّآلِّينَ .

﴿ مقدمة فى الكلام على السورة فى جملتها ﴾

لهذه السورة أسماء أشهرها فاتحة الكتاب وأم القرآن والسبع المثانى ، وهى سبع آيات أولها البسملة وقطع شيخنا الأستاذ الامام بأنها أول سورة نزلت من القرآن ، وهو مروى عن على كرم الله وجهه. واستدل على ذلك بوضعها فى أول القرآن بالاجماع وبموضوعها الشامل لمقاصده الكلية بالاجمال الذى علم به وجه تسميتها بأم الكتاب على ما يأتى مقتبساً من دروسه فى الازهر .

والجمهور على أن أول ما نزل من القرآن هو أول سورة العلق ، ويمكن أن يقال إن نزول أول سورة العلق قبل الفاتحة لا ينافى تلك الحكم التى بينها لأنه تمهيد للوحى المجمل والمفصل خاص

بحال النبى صلى الله عليه وسلم عند بدء نزوله و إعلام له بأنه يكون به وهو أمى قارئا باسم الله تعالى ومخرجا للأميين من أميتهم إلى العلم بالقلم أى الكتابة ، وفى ذلك استجابة لدعوة أبيه ابراهيم (٢: ١٢٨ ربنا وابعث فيهم رسولا منهم يتلو عليهم آياتك ويعلمهم الكتاب والحكمة و يزكيهم) فسر الاستاذ الامام الكتاب بالكتابة ، ثم كانت الفاتحة أول سورة نزلت كاملة ، وأمر النبى بجعلها أول القرآن ، وانعقد على ذلك الاجماع .

ثم نزلت سورة العلق تامة بعد فرض الصلاة وكانت تؤدى بقراءة الفاتحة وجاء فيها (أرأيت الذى ينهى عبداً إذا صلى) وقد وضعت فى قصار المفصل من آخر القرآن .

وهاء نذا أبسط مابينه الأستاذ فى الدرس من اشتمال أم القرآن على مجمل مافصل فيه من أصول هدايته الكلية :

(قال رحمه الله ماخلاصته) ان ما نزل القرآن لأجله خمسة أمور كلية (أحدها) التوحيد لأن الناس كانوا كلهم وثنيين و إن كان بعضهم يدعى التوحيد (ثانيها) وعد من أخذ به وتبشيره بحسن المثوبة ، ووعيد من لم يأخذ به و إنذاره بسوء العقوبة . والوعد يشمل ما للأمة وما للأفراد فيعم نعم الدنيا والآخرة وسعادتهما والوعيد كذلك يشمل نقمهما وشقاءهما ، فقد وعد

الله المؤمنين بالاستخلاف فى الأرض والعزة والسلطان والسيادة ، وأوعد المخالفين بالخزى والشقاء فى الدنيا ، كما وعد بالجنة والنعيم وأوعد بنار الجحيم فى الآخرة (ثالثها) العبادة التى تحيي التوحيد فى القلوب وتثبته فى النفوس (رابعها) بيان سبيل السعادة وكيفية السير فيها الموصل إلى نعم الدنيا والآخرة (خامسها) قصص من وقف عند حدود الله تعالى وأخذوا بأحكام دينه وأخبار الذين تعدوا حدوده ونبذوا أحكام دينه ظهريا لأجل الاعتبار واختيار طريق المحسنين ومعرفة سنن الله فى البشر .

= هذه هى الأمور التى احتوى عليها القرآن وفيها حياة الناس وسعادتهم الدنيوية والأخروية ، والفاتحة مشتملة عليها إجمالا بغير ماشك ولا ريب .

فأما التوحيد ففى قوله تعالى (الحمد لله رب العالمين) لأنه ناطق بأن كل حمد وثناء يصدر عن نعمة ما فهو له تعالى ولا يصح ذلك إلا إذا كان سبحانه مصدر كل نعمة فى الكون تستوجب الحمد ، ومنها نعمة الخلق والايجاد والتربية والتنمية ، ولم يكتف باستلزام العبارة لهذا المعنى فصرح به بقوله (رب العالمين) ولفظ (رب) ليس معناه المالك والسيد فقط ، بل فيه معنى التربية

والانماء وهو صريح بأن كل نعمة يراها الانسان فى نفسه وفى الآفاق فهى منه عز وجل فليس فى الكون متصرف بالإيجاد ولا بالاشقاء والاسعاد سواه .

التوحيد أهم ماجاء لأجله الدين ولذلك لم يكتف فى الفاتحة بمجرد الاشارة اليه بل استكمله بقوله (إياك نعبد وإياك نستعين) فاجتث بذلك جذور الشرك والوثنية التى كانت فاشية فى جميع الأمم وهى اتخاذ أولياء من دون الله تعتقد لهم السلطة الغيبية ، ويُدعون لذلك من دون الله ، ويستعان بهم على قضاء الحوائج فى الدنيا ، ويتقرب بهم إلى الله زلفى ، وجميع مافى القرآن من آيات التوحيد ومقارعة المشركين هو تفصيل لهذا الإجمال .

وأما الوعد والوعيد فالأول منهما مطوى فى « بسم الله الرحمن الرحيم » فذكر الرحمة فى أول الكتاب – وهى التى وسعت كل شيء – وعد بالاحسان وقد كررها مرة ثانية تنبيها لنا على أمره إيانا بتوحيده وعبادته رحمة منه سبحانه بنا لأنه لمصلحتنا ومنفعتنا . وقوله تعالى (مالك يوم الدين) يتضمن الوعد والوعيد معا لأن معنى الدين الخضوع أى أن له تعالى فى ذلك اليوم السلطان المطلق والسيادة التى لانزاع فيها لا حقيقة ولا ادعاء ، وأن العالم كله يكون فيه خاضعا لعظمته ظاهراً وباطناً ، يرجو

رحمته ويخشى عذابه ، وهذا يتضمن الوعد والوعيد ، أو معنى الدين الجزاء وهو إما ثواب للمحسن ؛ وإما عقـاب للمسىء ، وذلك وعد ووعيد . وزد على ذلك أنه ذكر بعـده (الصراط المستقيم) وهو الذى من سلـكه فاز ، ومن تنكبه هلك ، وذلك يستلزم الوعـد والوعيد .

وأما العبادة فبعد أن ذكرت فى مقام التوحيد بقوله (إياك نعبد و إياك نستعين) أوضح معناها بعض الإيضاح فى بيـان الامر الرابع الذى يشملها و يشمل أحكام المعاملات وسياسـة الأمة بقوله تعالى (اهدنا الصراط المستقيم) أى إنه قد وضع لنا صراطا سيبينه ويحدده وتكون السعادة فى الاسـتقامة عليه ، والشقاوة فى الانحراف عنه ، وهـذه الاستقـامة عليه هى روح العبادة ، و يشبه هذا قوله تعالى (والعصر إن الإنسان لفى خسر إلاالذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر) فالتواصى بالحق والصبر هو كمال العبادة بعد التوحيد ، والفاتحة بجملتها تنفخ روح العبادة فى المتدبر لهـا ، وروح العبـادة هى إشراب القلوب خشية الله وهيبته والرجاء لفضله ، لا الأعمال المعروفة من فعل وكف وحركات اللسان والأعضاء ، فقدذكرت العبادة فى الفاتحة قبل ذكر الصلاة وأحكامها والصيـام وأيامه

فى القرآن ، وكانت هذه الروح فى المسلمين قبل أن يكلفوا هذه الاعمال البدنية وقبل نزول أحكامها التى فصلت فى القرآن تفصيلا ما ، وإنما الحركات والأعمال فى صور العبادة وهيكلها مما يتوسل به إلى حقيقة العبادة الروحية المعنوية وجوهرها ، وهو الفكر والعبرة (والرجاء والخشية ، والتوكل والمحبة)

وأما الاخبار والقصص ففى قوله تعالى (صراط الذين أنعمت عليهم) تصريح بأن هنك قوما تقدموا وقد شرع الله شرائع لهدايتهم ، وصائح يصيح ألا فانظروا فى الشئون العامة التى كانوا عليها واعتبروا بها ، كما قال تعالى لنبيه يدعوه إلى الاقتداء بمن كان قبله من الأنبياء (أولئك الذين هدى الله فبهداهم اقتده) حيث بين أن القصص إنما هى للعظة والاعتبار .

وفى قوله تعالى (غير المغضوب عليهم ولا الضالين) تصريح بأن غير المنعم عليهم ، فريقان فريق ضل عن صراط الله وفريق جحده وعاند من يدعو اليه فكان محفوفا بالغضب الإلهى والخزى فى هذه الحياة الدنيا ، وباقى القرآن يفصل لنا فى أخبار الامم هذا الإجمال على الوجه الذى يفيد العبرة فيشرح حال الظالمين الذين قاوموا الحق عنادا ، والذين ضلوا عنه ضلالا ، وحال الذين حافظوا عليه وصبروا على ما أصابهم فى سبيله إيمانا وتسليما .

فتبين من مجموع ماتقدم أن الفاتحة قد اشتملت إجمالا ، على الأصول التي يفصلها القرآن تفصيلا ، فكان إنزالها أولا موافقا لسنة الله تعالى فى الابداع . وعلى هذا تكون الفاتحة جديرة بأن تسمى (أم الكتاب) كما تقول إن النواة أم النخلة ، فان النواة مشتملة على شجرة النخلة كلها حقيقة ، لا كما قال بعضهم إن المعنى فى ذلك أن الأم تكون أولا ويأتى بعدها الأولاد اه ملخصا

بسم الله الرحمن الرحيم

لا أذكر ما قاله الأستاذ الإمام فى البسملة من حيث لفظها واعرابها وهل هى آية أو جزء آية من الفاتحة أو ليست منها فان الخلاف فى ذلك مشهور وقد اختصر الأستاذ القول فيه اختصاراً وقال إنها على كل حال من القرآن فنتكلم عليها كسائر الآيات

ولكن أقول قبل تلخيص كلامه : قد أجمع المسلمون على أن البسملة من القرآن وأنها جزء آية من سورة النمل ، واختلفوا فى مكانها من سائر السور فذهب إلى أنها آية من كل سورة علماء السلف من أهل مكة فقهائهم وقرائهم ومنهم ابن كثير ، وأهل الكوفة ومنهم عاصم والكسائى من القراء ، و بعض الصحابة

والتابعين من أهل المدينة والشافعي في الجديد وأتباعه والثوري وأحمد في أحد قوليه والإمامية . ومن المروي عنهم ذلك من علماء الصحابة علي وابن عباس وابن عمر وأبو هريرة ، ومن علماء التابعين سعيد بن جبير وعطاء والزهري وابن المبارك ، وأقوى حججهم في ذلك إجماع الصحابة ومن بعدهم على إثباتها في المصحف أول كل سورة سوى سورة براءة (التوبة) مع الأمر بتجريد القرآن عن كل ما ليس منه ولذلك لم يكتبوا (آمين) في آخر الفاتحة ، وأحاديث أوردت أشهرها في تفسير المنار

وذهب مالك وغيره من علماء المدينة والاوزاعي وغيره من علماء الشام وأبو عمرو و يعقوب من قراء البصرة إلى أنها آية مفردة أنزلت لبيان رءوس السور والفصل بينها وعليه الحنفية ، وقال حمزة من قراء الكوفة وروى عن أحمد : أنها آية من الفاتحة دون غيرها . وأقوى الادلة على كونها آية من الفاتحة كتابتها في المصحف الامام حيث لا فصل بينهما و بين سورة قبلها فانها أول سورة نزلت تامة (وما نزل من أول سورة العلق لم ينزل معه البسملة ولم يكن سورة كما تقدم) وروايتها بالتواتر ، ولا عبرة مع هذا بمن نفى كونها منها فإنه رأي ، والاثبات مقدم على النفي ، وما روى في الاخبار من عدم قراءة النبي لها في الصلاة فهو خبر

آحاد معارض بمثله فى إثبات قراءتها وبما هو أقوى منه من تواتر كتابتها وقراءتها ، ويحتمل أن يكون سببه عدم سماع الراوى لها كما شرحته فى تفسير المنار

هذا — وقد قال الأستاذ الامام : القرآن إمامنا وقدوتنا فافتتاحه بهذه الكلمة إرشاد لنا بأن نفتتح أعمالنا بها فما معني هذا ؟ ليس معناه ان نفتتح أعمالنا باسم من اسماء الله تعالى بأن نذكره على سبيل التبرك أو الاستعانة به بل أن نقول هذه العبارة (بسم الله الرحمن الرحيم) فانها مطلوبة لذاتها

مثل هذا التعبير مألوف عند جميع الأمم ومنهم العرب وهو أن الواحد منهم إذا أراد أن يفعل أمراً ما لأجل أمير أو عظيم بحيث يكون متجرداً من نسبته اليه ومنسلخا عنه ، يقول أعمله باسم فلان ، ويذكر اسم ذلك الأمير أو السلطان ، لأن اسم الشيء دليل وعنوان عليه ، فاذا كنت أعمل عملا لا يكون له وجود ولا أثر ، لولا السلطان الذى به أمر ، أقول إن عملى هذا باسم السلطان ، أى إنه معنون باسمه ولولاه لما عملته . فمعنى ابتدىء عملى (بسم الله الرحمن الرحيم) اننى أعمله بأمره وله لا لى ، ولا أعمله باسمى مستقلا به على انني فلان . فكأنى أقول : إن هذا العمل لله لا لحظ نفسى . وفيه وجه آخر وهو أن القدرة

التى أنشأت بها العمل هى من الله تعالى فلولا ما منحنى منها لم أعمل شيئاً ، فلم يصدر عنى هذا العمل إلا باسم الله ، ولم يكن باسمى إذ لولا ما آتانى من القوة عليه لم أستطع أن آتيه ، وقد تم هذا المعنى بلفظ (الرحمن الرحيم) كما هو ظاهر . وحاصل المعنى أنى أعمل عملى متبرئا من أن يكون باسمى بل هو باسمه تعالى لأننى أستمد القوة والعناية منه وأرجو إحسانه عليه ، فلولاه لم أقدر عليه ولم أعمله ، بل ما كنت عاملا له على تقدير القدرة عليه لولا أمره ورجاء فضله ، فلفظ الاسم معناه مراد ، ومعنى لفظ الجلالة مراد أيضاً (وهو العلم الواجب الوجود الموصوف بالأسماء الحسنى كلها) وكذلك كل من لفظ الرحمن والرحيم . وهذا الاستعمال معروف مألوف فى كل اللغات . وأقرب به اليكم اليوم ما ترونه فى المحاكم النظامية حيث يبتدئون الأحكام قولا وكتابة باسم السلطان فلان أو الخديو فلان ومعنى البسملة فى الفاتحة أن جميع مايقرر فى القرآن من الأحكام والآيات وغيرها هو لله ومنه ليس لأحد غير الله فيه شىء اهـ

أقول : هذا صفوة ما قرره الأستاذ الامام فى متعلق (بسم الله) ومعناها وههنا نظر آخر فيه وهو أن القرآن كان وحيا يلقيه الروح الأمين فى قلب النبي ﷺ وكل سورة منه مبتدأة ببسملة ،

فمتعلق البسملة من ملك الوحى يعلم من أول آية نزل بها وهى قوله تعالى (اقرأ باسم ربك) فمعنى البسملة الذى كان يفهمه النبى ﷺ من روح الوحى : اقرأ يامحمد هذه السورة باسم الله الرحمن الرحيم على عباده ، أى اقرأها على انها منه تعالى لا منك فانه برحمته بهم أنزلها عليك لتهديهم بها إلى ما فيه الخير لهم فى الدنيا والآخرة وعلى هذا كان يقصد النبى ﷺ من متعلق البسملة انني اقرأ السورة عليكم أيها الناس باسم الله لا باسمى ، وعلى انها منه لا منى ، فانما أنا مبلغ عنه عز وجل بأمره (٢٨ : ٩١ وأمرت أن أكون أول المسلمين ٩٢ وأن أتلو القرآن) الخ

ونحن نقصد بها مثل هذا طاعة وامتثالا أى يقدر أحدنا عند التلاوة : أقرأ (بسم الله الرحمن الرحيم) فانه هو الذى أمرنى بالقراءة واقدرنى عليها ووفقنى لها ، والفرق فى هذا بيننا وبينه ﷺ أنه هو متعبد به ومبلغ له عن الله تعالى ، ونحن متعبدون به فى صلاتنا وغيرها . واما فى غير الصلاة فنقدر متعلق البسملة فى كل شيء بحسبه فعند ذبح الحيوان ننوى : أذبح باسم الله ، بمعنى أنه هو الذى شرع لنا الذبح فى النسك وجوبا وفى غيره إباحة ، وهكذا .

ثم قال الأستاذ الامام ما ملخصه : والرحمن الرحيم مشتقان من الرحمة وهى معنى يلم بالقلب فيبعث صاحبه ويحمله على

الاحسان إلى غيره ، وهو محال على الله تعالى بالمعنى المعروف عند البشر ، لأنه فى البشر ألم فى النفس شفاؤه الاحسان والله تعالى منزه عن الآلام والانفعالات ، فالمعنى المقصود بالنسبة إليه من الرحمة أثرها وهو الاحسان .

= والجمهور على أن معنى الرحمن المنعم بجلائل النعم ، ومعنى الرحيم المنعم بدقائقها ، و بعضهم يقول إن الرحمن هو المنعم بنعم عامة تشمل الكافرين مع غيرهم ، والرحيم هو المنعم بالنعم الخاصة بالمؤمنين . وكل هذا تحكم فى اللغة مبنى على أن زيادة المبنى تدل على زيادة المعنى . ولكن الزيادة تدل على زيادة الوصف مطلقا فصفة الرحمن تدل على كثرة الاحسان الذى يعطيه سواء كان جليلا أو دقيقا . وأما كون أفراد الاحسان التى يدل عليها اللفظ الأكثر حروفا أعظم من أفراد الاحسان التى يدل عليها اللفظ الأقل حروفا فهو غير معنى ولا مراد ، وقد قارب من قال إن معنى الرحمن المحسن بالاحسان العام ولكنه أخطأ فى تخصيص مدلول الرحيم بالمؤمنين . ولعل الذى حمل من قال إن الثانى مؤكد للأول على قوله هذا هو عدم الاقتناع عما قالوه من التفرقة مع عدم التفطن لما هو أحسن منه .

قال الأستاذ الإمام : والذى أقول ان صيغة فعلان تدل على وصف فعلى فيه معنى المبالغة كفعال وهو فى استعمال

اللغة للصفات العارضة كعطشان وغرثان وغضبان ، وأما صيغة فعيل فانها تدل فى الاستعمال على المعانى الثابتة كالاخلاق والسجايا فى النـاس كعليم وحكيم وحليم وجميـل . والقرآن لايخرج عن الاسلوب العربي البليغ فى الحكاية عن صفات الله عز وجل التى تعلو عن مماثلة صفات المخلوقين ، فلفظ الرحمن يدل على من تصدر عنه آثار الرحمة بالفعل وهى إفاضة النعم والاحسان ، ولفظ الرحيم يدل على منشأ هذه الرحمـة والاحسان ، وعلى أنها من الصفـات الثابتة الواجبة . وبهذا المعنى لايستغنى بأحدالوصفين عن الآخر ولا يكون الثاني مؤكداً للاول ، فاذا سمع العربي وصف الله جل ثناؤه بالرحمن وفهم منه أنه المفيض للنعم فعلا ، لا يعتقد منه أن الرحمة من الصفات الواجبة له دائما . لأن الفعل قد ينقطع إذا لم يكن عن صفة لازمة ثابتة وان كان كثيراً ، فعندما يسمع لفظ الرحيم يكمل اعتقاده على الوجه الذى يليق بالله تعـالى ويرضيه سبحانه ، ويعلم أن لله صفة ثابتة هى الرحمة التى عنها يكون أثرها وإن كانت تلك الصفة على غير مثال صفات المخلوقين ، ويكون ذكره بعد الرحمن كذكر الدليل بعد المدلول ليقوم برهانا عليه . اه

أقول قد سبق العلامة ابن القيم إلى التفرقة بين الصيغتين ، ولكنه خالف فى دلالة الاسمين الكريمين . قال : وأما الجمع بين الرحمن والرحيم ففيه معنى بديع ، وهو أن الرحمن دال على الصفة

القـائمة به سبحانه ، والرحيم دال على تعلقها بالمرحوم ، وكأن الاول الوصف والثانى الفعل ، فالاول دال على أن الرحمة صفته أى صفة ذات له سبحانه، والثانى دال على أنه يرحم خلقه برحمته، أى صفة فعل له سبحانه ، فاذا أردت فهم هذا فتأمل قوله تعالى (وكان بالمؤمنـين رحيما * إنه بهم رءوف رحيم) ولم يجىء قط رحمن بهم ، فعلمت أن رحمن هو الموصوف بالرحمة ، ورحيم هو الراحم برحمته (قال رحمه الله تعالى) هذه النكتة لا تكاد تجدها فى كتاب ، و إن تنفست عندها مرآة قلبك لم تنجل لك صورتها »اه

وقد حققت فى مكان آخر ان اسم (الرحمن) قد جعل فى القرآن علما كلفظ الجلالة (الله) تجرى عليه صفات الله واسماؤه كما قال (١٧ : ١١٠ قل ادعـوا اللهَ أوالرحمنَ أيًّاما تدعو فله الاسماء الحسنى) واستعمل فى التنزيل فى المعانى التى لا تناسب معنى الرحمة بالعباد كقوله تعالى حكاية عن ابراهيم لأبيه (١٩: ٤٥ إنى أخاف أن يمسك عذاب من الرحمن)وحققت أيضا أن الرحمة فى مذهب السلف من صفات الذات يراعى فى فهمها التنزيه دون التأويل خلافا للمتكلمين ،فيقال إن رحمة الله تعالى أعلى و أكمل من رحمة عباده فهى ليست انفعالا و ألما فى النفس ، كما أن علمه وقدرته وسائر صفاته أعلى وأكمل مما يعرف من صفـات خلقه فلا صفاته تشبه صفاتهم ، ولا ذاته تشبه ذواتهم . وأعود إلى كلام شيخنا (رح).

﴿ الحمدُ للهِ ﴾ قالوا : إن معنى الحمد الثناء باللسان ، وقيدوه بالجميل لأن كلمة (ثناء) تستعمل فى المدح والذم جميعا يقال: أثنى عليه شراً كما يقال أثنى عليه خيراً · ويقولون إن « أل » التى فى الحمد هى للجنس فى أى فرد من أفراده لا للاستغراق ولا للعهد المخصوص لأنه لا يصار إلى كل منهما فى فهم الكلام إلا بدليل وهو غير موجود فى الآية ، ومعنى كون الحمد لله تعالى بأى نوع من أنواعه هو أن أى شىء يصح الحمد عليه فهو مصدره واليه مرجعه فالحمد له على كل حال

وهذه الجملة خبرية ولكنها استعملت لانشاء الحمد ـ فأما معنى الخبرية فهو إثبات أن الثناء الجميل فى أى أنواعه تحقق فهو ثابت له تعالى وراجع اليه ، لأنه متصف بكل ما يحمد عليه الحامدون ، فصفاته أجل الصفات، وإحسانه عمّ جميع الكائنات، ولأن جميع مايصح أن يتوجه إليه الحمد مماسواه فهو منه جل ثناؤه ، إذ هو مصدر الكون كله ، فيكون له ذلك الحمد أولا وبالذات . والخلاصة أن أى حمد يتوجه إلى محمود مافهو لله تعالى سواء لاحظه الحامد أو لم يلاحظه . وأمامعنى الانشائية فهو أن الحامد جعلها عبارة عما وجهه من الثناء إلى الله تعالى فى الحال

هذاملخص ماقاله الاستاذ الامام ، وأقول إن التعريف المشهور بين العلماء للحمد أنه الثناء باللسان على الجميل الاختيارى ،

أى الفعل الجميل الصادر عن فاعله باختياره أى سواء أسدى هذا الجميل إلى الحامد أم لا . وأزيد عليهم أنه قد يحمد غير الفاعل المختار تنزيلا له منزلة الفاعل فى نفعه ، ومنه : إنما يحمد السوق من ربح . وهذا هو المتبادر من استعمال اللغة . وحذف بعضهم قيد الاختيار ليدخل فى الحمد الثناء على صفات الكمال ولذلك وصف بعضهم الجميل الاختيارى بقوله : سواء كان من الفضائل - أى الصفات الكمالية لصاحبها - أو الفواضل - وهى ما يتعدى أثره من الفضل إلى غير صاحب الفضل . والظاهر أن الحمد على الفضائل وصفات الكمال إنما يكون باعتبار مايترتب عليها من الافعال الاختيارية . وما عدا هذا من الثناء تسميه العرب مدحا

﴿ رب العالمين ﴾ يشعر هذا الوصف ببيان وجه الثناء المطلق ومعنى الرب : السيد المربى الذى يسوس مسوده و يربيه ويدبره ، ولفظ « العالمين » جمع عالم بفتح اللام جمع جمع المذكر العاقل تغليباً وأريد به جميع الكائنات الممكنة ، أى إنه رب كل مايدخل فى مفهوم لفظ العالم ، وماجمعت العرب لفظ العالم هذا الجمع إلا لنكتة تلاحظها فيه وهى أن هذا اللفظ لايطلق عندهم على كل كائن وموجود كالحجر والتراب وإنما يطلقونه على كل جملة متمايزة لأفرادها صفات تقربها من العاقل الذى جمعت جمعه ، إن لم تكن منه ،

فيقال عالم الإنسان وعالم الحيوان وعالم النبات ونحن نرى أن هذه الأشياء هي التي يظهر فيها معنى التربية الذي يعطيه لفظ (رب) لأن فيها مبدأها وهو الحياة والتغذي والتولد ، وهذا ظاهر في الحيوان ، ولقد كان السيد (أى جمال الدين الأفغاني) رحمه الله تعالى يقول : الحيوان شجرة قلعت رجلها من الأرض فهي تمشي ، والشجرة حيوان ساخت رجلاه في الأرض فهو قائم في مكانه يأكل و يشرب و إن كان لا ينام ولا يغفل .

هذا ملخص ماقاله الاستاذ الامام وأزيد عليه أن بعض العلماء قال إن المراد بالعالمين هنا أهل العلم والإدراك من الملائكة والإنس والجن و يؤثر عن جدنا الإمام جعفر الصادق عليه الرضوان أن المراد به الناس فقط كما يدل على هذا وذاك استعمال القرآن في مثل (أتأتون الذكران من العالمين) أى الناس ومثل (ليكون للعالمين نذيرا و يرى بعضهم أنه على هذا مشتق من العلم ، ومن قال يعم جميع أجناس المخلوقات يرى أنه مشتق من العلامة ، وربوبية الله للناس تظهر بتربيته إياهم ، وهذه التربية : قسمان تربية خلقية بما يكون به نموهم وكمال أبدانهم وقواهم النفسية والعقلية وتربية شرعية تعليمية وهي مايوحيه إلى أفراد منهم ليكمل به فطرتهم بالعلم والعمل إذا اهتدوا به فليس لغير رب الناس أن يشرع للناس عبادة ولا أن يحرم عليهم و يحل لهم من عند نفسه بغير إذن منه تعالى

﴿ الرحمن الرحيم ﴾ (قال) تقدم معناهما و بقى الكلام فى إعادتهما والنكتة فيها ظاهرة وهى أن تربيته تعالى للعالمين ليست لحاجة به اليهم كجلب منفعة أو دفع مضرة و إنما هى لعموم رحمته وشمول إحسانه . وَثَمَّ نكتة أخرى وهى أن البعض يفهم من معنى الرب الجبروت والقهر فأراد الله تعالى أن يذكرهم برحمته و إحسانه ليجمعوا بين اعتقاد الجلال والجمال فذكر الرحمن وهو المفيض للنعم بسعة وتجدد لامنتهى لهما ، والرحيم الثابت له وصف الرحمة لا يزايله أبدا ، فكأن الله تعالى أراد أن يتحبب إلى عباده فعرفهم أن ربوبيته ربوبية رحمة و إحسان ليعلموا أن هذه الصفة هى التى ربما يرجع اليها معنى الصفات وليتعلقوا به ، و يقبلوا على اكتساب مرضاته ، منشرحة صدورهم مطمئنة قلوبهم ولا ينافى عموم الرحمة وسبقها ماشرعه الله من العقوبات فى الدنيا، وما أعده من العذاب فى الآخرة للذين يعتدون الحدود ، و ينتهكون الحرمات ، فانه و إن سمى قهرا بالنسبة لصورته ومظهره ، فهو فى حقيقته وغايته من الرحمة لأن فيه تربية للناس وزجراً لهم عن الوقوع فيما يخرج عن حدود الشريعة الإلهية وفى الانحراف عنها شقاؤهم و بلاؤهم ، وفى الوقوف عندها سعادتهم ونعيمهم ، والوالد الرءوف يربي ولده بالترغيب فيما ينفعه والإحسان عليه إذا قام به وربما لجأ إلى الترهيب والعقوبة إذا اقتضت ذلك الحال

ولله المثل الأعلى لا إله إلا هو واليه يرجعون اه ما قاله الأستاذ الامام

وأقول الآن : إننى لا أرى وجها للبحث فى عد ذكر (الرحمن الرحيم) فى سورة الفاتحة تكراراً أو إعادة على القول بأن البسملة ليست آية منها ، وأما على القول المختار بأنها آية منها فيحتاج إلى بيان ، وهو أن جعلها آية منها ومن كل سورة يراد به ماتقدم شرحه آنفا من أن النبى ﷺ كان يلقنها و يبلغها للناس على أنها (أى السورة) منزلة من عند الله تعالى أنزلها برحمته لهداية خلقه وأنه ﷺ لا كسب له فيها ولا صنع ، و إنما هو مبلغ لها بأمر الله تعالى فهى مقدمة للسوركلها إلا سورة براءة المنزلة بالسيف وكشف الستار عن نفاق المنافقين ، فهى بلاء على من أنزل أكثرها فى شأنهم لارحمة بهم ، و إذا كان المراد ببدء الفاتحة بالبسملة أن تنزيلها من الله رحمة بعباده فلا ينافى ذلك أن يكون من موضوعها ماهومناسب لحكمة تنزيلها وهو بيان رحمة الله تعالى مقارنة لمعنى ربوبيته للعالمين وكونه الملك الذى يملك وحده جزاء العاملين على أعمالهم وأنه بهذه الأسماء والصفات كان مستحقا للحمد من عباده ، كما أنه مستحق له فى ذاته ، ولهذا نسب الحمد إلى اسم الذات ، الموصوف بهذه الصفات

والحاصل أن معني الرحمة فى بسملة كل سورة هو أن السورة

منزلة برحمـة الله وفضله فلا يعد ما عساه يكون فى أول السورة أو أثنائها من ذكر الرحمة مكرراً مع ما فى البسملة ، وإن كان مقرونا بذكر التنزيل كأول سورة فصلت (حم ، تنزيل من الرحمن الرحيم لأن الرحمة فى البسملة للمعنى العام فى الوحى والتنزيل ، وفى السور للمعنى الخاص الذى تبينه السورة . وقد لاحظ هذا المعنى من قال إن البسملة آية مستقلة فاصلة بين السور . وأما من قال إنها آية من كل سورة فمراده أنها تقرأ عند الشروع فى قراءتها ، وأن من حلف ليقرأن سورة كذا لا يبرأ إلا إذا قرأ البسملة معها ، وأن الصلاة لا تصح إلا بقراءتها أيضا فى أول الفاتحة

هذا ــ وأما حظ العبد من وصف الله بالربوبية فهو أن يحمده تعالى عليه ويشكره له باستعمال نعمه التى تتربى بها القوى الجسدية والعقلية فيما خلقت لأجله بأن يحسن تربية نفسه وتربية من يوكل اليه تربيته من أهل وولد ومريد وتلميذ . وباستعمال نعمته بهداية الدين فى تربية نفسه الروحية والاجتماعية وكذا تربية من يوكل اليه أمر تربيتهم ، وأن لا يبغى كما بغى فرعون فيدعى أنه رب الناس ، وكما بغى فراعنة كثيرون ولا يزالون يبغون بجعل أنفسهم شارعين يتحكمون فى دين الناس بوضع عبادات لهم لم ينزلها الله تعالى ، وبقولهم هذا حلال وهذا حرام من عند أنفسهم أو من عند أمثالهم ، فيجعلون أنفسهم شركاء لله فى ربوبية التشريع قال تعالى (أم لهم شركاء شرعوا لهم من الدين ما لم يأذن

به الله) وفسر النبي ﷺ اتخاذ أهل الكتاب أحبارهم ورهبانهم أربابا بمثل هذا .

وأما حظ العبد من وصف الله بالرحمة فهو أن يطالب نفسه بأن يكون رحيما بكل من يراه مستحقا للرحمة من خلق الله تعالى حتى الحيوان الأعجم وأن يتذكر دائما أنه يستحق بذلك رحمة الله تعالى ، قال ﷺ « إنما يرحم الله من عباده الرحماء » رواه الطبراني عن جرير بسند صحيح . وقال « الراحمون يرحمهم الرحمن تبارك وتعالى ، ارحموا من فى الأرض يرحمكم من فى السماء » رواه أحمد وأبو داود والترمذى والحاكم من حديث ابن عمر . ورويناه مسلسلا من طريق الشيخ أبى المحاسن محمد القاوقجى الطرابلسى الشامى ، وقال ﷺ « من رحم ولو ذبيحة عصفور رحمه الله يوم القيامة » رواه البخارى فى الأدب المفرد والطبرانى عن أبى أمامة وأشار السيوطى فى الجامع الصغير إلى صحته ، ومما يدل على الترغيب فى رحمة الحيوان والرفق به بغير لفظ الرحمة حديث « فى كل كبد رطبة أجر » رواه البخارى ومسلم وفى رواية « فى كل ذات كبد حرَّى أجر » رواه أحمد وغيره

ومن مباحث اللغة أن لفظ الرحمن خاص بالله تعالى كلفظ الجلالة قالوا : لم يسمع عن أحد من العرب أنه أطلقه على غير الله تعالى ، وكذلك لفظ (رحمن) غير معرف ، قالوا :

لم يرد إطلاقه على غير الله تعالى إلا فى شعر لبعض الذين فتنوا بمسيلمة الكذاب قال فيه :

* وأنت غيث الورى لازلت رحمانا *

وقيل إن هـذا تعنت وغلو لا من الاستعمال المعروف عند العرب . وأما العرب فكانت تطلق لفظ « رب » على الناس يقولون : رب الدار ورب هذه الأنعام مثلا لا رب الأنعام مطلقا. قال عبد المطلب فى يوم الفيل : أما الإبل فأنا ربها وأما البيت فإن له ربا يحميه . وقال تعالى فى حكاية قول يوسف عليه السلام فى مولاه عزيز مصر (إنه ربى أحسن مثواى) ويرى بعض العلماء أن هذا الاستعمال ممنوع فى الاسلام واستدل بالنهى فى الحديث عن قول المملوك لسيده (ربي) والصواب أن يمنع ما ورد النص به كهذا الاستعمال وما من شأنه ألا يقال إلا فى البارىء تعالى كلفظ الرب بالتعريف مطلقا ولفظ رب الناس ، رب المخلوقات ، رب العالمين ، وما أشبه ذلك .

﴿ مالكِ يومِ الدينِ ﴾

قرأ عاصم والكسائى ويعقوب (مالك) والباقون (ملك) وعليها أهل الحجاز والفرق بينهما أن المالك ذو الملك بكسر الميم والملك ذو الملك بضمها ، والقرآن يشهد للاولى بمثل قوله (يوم لا تملك نفس لنفس شيئا) وللثانية بقوله (لمن الملك اليوم) قال

بعضهم إن قراءة (ملك) أبلغ لأن هذا اللفظ يفهم منه معنى السلطان والقوة والتدبير . وقال آخرون إن القراءة الأخرى أبلغ لأن الملك هو الذى يدبر أعمال رعيته العامة ولا تصرف له بشىء من شئونهم الخاصة والمالك سلطته أعم قال الأستاذ الإمام : وإنما تظهر هذه التفرقه فى عبد مملوك فى مملكة لها سلطان فلا ريب أن مالكه هو الذى يتولى جميع شئونه دون سلطانه .

وأقول الآن الظاهر أن قراءة (ملك) أبلغ لأن معناها المتصرف فى أمور العقلاء المختارين بالأمر والنهى والجزاء ولهذا يقال ملك الناس ولا يقال ملك الأشياء قاله الراغب . وقال فى (ملك يوم الدين) تقديره الملك فى يوم الدين لقوله (لمن الملك اليوم ؟ لله الواحد القهار) اه وإنما كان هذا أبلغ لأن السياق يدلنا على أن المراد بالآية تذكير المكلفين بما ينتظرهم من الجزاء على أعمالهم رجاء أن تستقيم أحوالهم ومعنى (مالك يوم الدين) قد يستفاد من قوله (رب العالمين) على أن مجموع القراءتين يدل على المعنيين ملك الأعيان وملك التصرف ولكن القراءة فى الصلاة بملك يوم الدين تثير من الخشوع مالا تثيره القراءة الأخرى التى يفضلها بعضهم لأنها تزيد حرفا فى النطق وورد فى الحديث إن للقارىء بكل حرف عشر حسنات ولكن فاتهم أن حسنة واحدة تكون أكبر تأثيراً فى القلب خير من

مثة حسنة يكن دونها فى التأثير ويمكن للعالم بالقراءتين أن يجمع بين تصور معنى كل منهما فى الصلاة .

والدين يطلق فى اللغة على الحساب وعلى المكافأة وورد « كما تدين تدان » وقال الشاعر :

ولم يبق سوى العدوا ن دناهم كما دانوا

وعلى الجزاء وهو قريب من معنى المكافأة ، وعلى الطاعة ، وعلى الاخضاع وعلى السياسة يقال : دنته ، ودينته فلانا (بالتشديد) أى وليته سياسته وجعلته دائنا له وهو قريب من معنى الاخضاع ، وعلى الشريعة وما يؤخذ العباد به من التكاليف . والمناسب هنا من هذه المعانى الجزاء والخضوع وإنما قال (يوم الدين) ولم يقل (الدين) لتعريفنا بأن للدين يوماً ممتازاً عن سائر الأيام وهو اليوم الذى يلقى فيه كل عامل عمله ويوفى جزاءه . قاله الأستاذ الإمام وقفى عليه بقوله :

ولسائل أن يسأل : أليست كل الأيام أيام جزاء وكل ما يلاقيه الناس فى هذه الحياة من البؤس هو جزاء على تفريطهم فى أداء الحقوق والقيام بالواجبات التى عليهم ؟ والجواب بلى ، إن أيامنا التى نحن فيها قد يقع فيها الجزاء على أعمالنا ولكن ربما لا يظهر لأربابه إلا على بعضها دون جميعها . والجزاء على التفريط فى العمل الواجب إنما يظهر فى الدنيا ظهوراً تاماً بالنسبة إلى مجموع الأمة لا إلى كل فرد من الأفراد ، فما من أمة انحرفت

عن صراط الله المستقيم ولم تراع سننه فى خليقته إلا وأحل بها العدل الإلهى ماتستحق من الجزاء كالفقر والذل وفقد العزة والسلطة.
وأما الأفراد فاننا نرى كثيراً من المسرفين الظالمين يقضون أعمارهم منغمسين فى الشهوات واللذات، نعم إن ضمائرهم توبخهم أحيانا وإنهم لا يسلمون من المنغصات، وقد يصيبهم النقص فى أموالهم، وعافية أبدانهم، وقوة عقولهم، ولكن هذا كله لا يقابل بعض أعمالهم القبيحة، ولا سيما الملوك والأمراء الذين تشقى بأعمالهم السيئة أمم وشعوب. كذلك نرى من المحسنين فى أنفسهم وللناس من يبتلى بهضم حقوقه. ولا ينال الجزاء الذى يستحقه على عمله، فإن كان قد ينال رضاء نفسه وسلامة أخلاقه وصحة ملكاته، فما ذلك كل مايستحق، وفى ذلك اليوم يوفى كل فرد من أفراد العاملين جزاءه كاملا لا يظلم شيئا منه، كما قال الله تعالى (فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره * ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره)

علمنا الله أنه رحمن رحيم ليجذب قلوبنا إليه، ولكن هل يشعر كل عباده بهذه المنة فينجذبوا إليه الانجذاب المطلوب؟ أليس فينا من يسلك كل سبيل، لا يبالى بمستقيم ومعوج؟ بلى، ولهذا أعقب سبحانه ذكر الرحمة بذكر الدين، فعرفنا أنه يدين العباد ويجزيهم على أعمالهم، فكان من رحمته بعباده أن رباهم بنوعى التربية كليهما: الترغيب والترهيب، كما تشهد بذلك

آيات القرآن الكثيرة (نبيء عبادى أني أنا الغفور الرحيم * وأن عذابى هو العذاب الأليم)

(إيّاكَ نعبدُ وإياكَ نستعينُ)

(قال شيخنا) ما العبادة ؟ يقولون هى الطاعة مع غاية الخضوع ، وزاد بعضهم التعظيم والحب ، وماكل عبارة تمثل المعنى تمام التمثيل ، وتجليه للافهام واضحا لا يقبل التأويل فكثيراً مايفسرون الشيء ببعض لوازمه ويعرفون الحقيقة برسومها ، بل يكتفون أحيانا بالتعريف اللفظى ويبينون الكلمة بما يقرب من معناها ، ومن ذلك هذه العبارة ، التى فسروا بها معنى العبادة ، فان فيها إجمالا وتساهلا . وإننا إذا تتبعنا آى القرآن وأساليب اللغة واستعمال العرب لعبد وما يماثلها ويقاربها فى المعنى - كخضع وخنع وأطاع وذل - نجد أنه لا شيء من هذه الألفاظ يضاهى (عبد) ويحل محلها ويقع موقعها ، ولذلك قالوا : إن لفظ (العباد) مأخوذ من العبادة فتكثر إضافته إلى الله تعالى ، ولفظ (العبيد) تكثر إضافته إلى غير الله تعالى لأنه مأخوذ من العبودية بمعنى الرق وفرق بين العبادة والعبودية بذلك المعنى . ومن هنا قال بعض العلماء ان العبادة لا تكون فى اللغة إلا لله تعالى ولكن استعمال القرآن يخالفه .

يغلو العاشق فى تعظيم معشوقه والخضوع له غلواً كبيرا حتى يفنى هواه فى هواه، وتذوب إرادته فى إرادته ، ومع ذلك لا يسمى خضوعه هذا عبادة بالحقيقة ؛ و يبالغ كثير من الناس فى تعظيم الرؤساء والملوك والأمراء فترى من خضوعهم لهم وتحريهم مرضاتهم مالا تراه من المتحنثين القانتين دع سائر العابدين ولم يكن العرب يسمون شيئاً من هذا الخضوع عبادة ، فما حقيقة العبادة إذاً ؟

تدل الأساليب الصحيحة والاستعمال العربى الفصيح على أن العبادة ضرب من الخضوع بالغ حد النهايه ناشىء عن استشعار القلب عظمة للمعبود لا يعرف منشأها ، واعتقاده بسلطة له لا يدرك كنهها وماهيتها . وقصارى ما يعرفه منها أنها محيطة به ولكنها فوق إدراكه ، فمن ينتهى إلى أقصى الذل لملك من الملوك لايقال إنه عبده ، و إن قبّل موطىء أقدامه مادام سبب الذل والخضوع معروفا وهو الخوف من ظلمه المعهود ، أو الرجاء بكرمه المحدود ، اللهم إلا الذين يعتقدون أن الملك قوة غيبية سماوية أفيضت على الملوك من الملأ الأعلى ، واختارهم الله للاستعلاء على سائر أهل الدنيا ، لأنهم أطيب الناس عنصرا ، وأكرمهم جوهراً ، وهؤلاء هم الذين انتهى بهم هذا الاعتقاد ، إلى الكفر والحاد ، فاتخذوا الملوك آلهة وأربابا وعبدوهم عبادة حقيقية

للعبادة صور كثيرة فى كل دين من الأديان شرعت لتذكير الانسان بذلك الشعور بالسلطان الإلهى الأعلى الذى هو روح العبادة وسرها ، ولكل عبادة من العبادات الصحيحة أثر فى تقويم أخلاق القائم بها وتهذيب نفسه، والأثر إنما يكون عن ذلك الروح والشعور الذى قلنا إنه منشأ التعظيم والخضوع ، فاذا وجدت صورة العبادة خالية من هذا المعنى لم تكن عبادة ، كما أن صورة الانسان وتمثاله ليس إنساناً .

خذ اليك عبادة الصلاة مثلا ، وانظر كيف أمر الله بإقامتها دون مجرد الإتيان بها ؟ و إقامة الشيء هى الاتيان به مقوما كاملا يصدر عن علته وتصدر عنه آثاره وآثار الصلاة ونتائجها هى ما أنبأنا الله تعالى بها بقوله (إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر) وقوله عز وجل (إن الانسان خلق هلوعا * إذا مسه الشر جزوعا و إذا مسه الخير منوعا * إلا المصلين) وقد توعد الذين يأتون بصورة الصلاة من الحركات والألفاظ مع السهو عن معنى العبادة وسرها فيها المؤدى إلى غايتها بقوله (فويل للمصلين * الذين هم عن صلاتهم ساهون * الذين هم يراءون * و يمنعون الماعون) فسماهم مصلين لأنهم أتوا بصورة الصلاة ، ووصفهم بالسهو عن الصلاة الحقيقية التى هى توجه القلب إلى الله تعالى المذكر بخشيته والمشعر للقلوب بعظم سلطانه . ثم وصفهم بأثر هذا السهو وهو الرياء ومنع الماعون .

وذكر الأستاذ الامام أن الرياء ضربان : رياء النفاق وهو العمل لأجل رؤية الناس ، ورياء العادة وهو العمل بحكمها من غير ملاحظة معنى العمل وسره وفائدته ولا ملاحظة من يعمل له ويتقرب اليه به ، وهو ماعليه أكثر الناس ، فان صلاة أحدهم فى طور الرشد والعقل هى عين ماكان يحاكى به أباه فى طور الطفولة عند مايراه يصلى - يستمر على ذلك بحكم العادة من غير فهم ولا عقل ، وليس لله شىء فى هذه الصلاة ، وقد ورد فى بعض الأحاديث « من لم تنهه صلاته عن الفحشاء والمنكر لم يزدد من الله إلا بعدا »[1] وأنها تلف كما يلف الثوب الخلق ويضرب بها وجهه ، وأما الماعون فهو المعونة والخير[2] الذى تقدم فى الآية الأخرى أن من شأن الانسان أن يكون منوعا له إلا المصلين

والاستعانة طلب المعونة وهى إزالة العجز والمساعدة على إتمام العمل الذى يعجز المستعين عن الاستقلال به بنفسه .

ثم تكلم الأستاذ الامام على حصر العبادة والاستعانة فى الله تعالى الذى دل عليه تقديم المفعول (إياك) على الفعل (نعبد) و (نستعين) فقال ما مثاله :

---

(١) رواه الطبرانى من حديث ابن عباس (رض)

(٢) وقال الأستاذ فى تفسير الكلمة من سورتها : الماعون كل مايستعان به .

أمرنا الله تعالى بأن لا نعبد غيره لأن السلطة الغيبية التى هى وراء الأسباب ليست إلا له دون غيره ، فلا يشاركه فيها أحد فيعظم تعظيم العبادة ، وأمرنا بأن لا نستعين بغيره أيضاً ، وهذا يحتاج إلى البيان لأنه أمرنا أيضاً فى آية أخرى بالتعاون (٥ : ٢ وتعاونوا على البر والتقوى) فما معنى حصر الاستعانة به مع ذلك ؟

الجواب أن كل عمل يعمله الانسان تتوقف ثمرته ونجاحه على حصول الأسباب التى اقتضت الحكمة الإلهية أن تكون مؤدية إليه وانتفاء الموانع التى من شأنها بمقتضى الحكمة أن تحول دونه ، وقد مكن الله تعالى الإنسان بما أعطاه من العلم والقوة من دفع بعض الموانع وكسب بعض الأسباب ، وحجب عنه البعض الآخر ، فيجب علينا أن نقوم بما فى استطاعتنا من ذلك ، ونبذل فى إتقان أعمالنا كل ما نستطيع من حول وقوة ، وأن نتعاون و يساعد بعضنا بعضا على ذلك ، ونفوض الأمر فيما وراء كسبنا إلى القادر على كل شيء ، ونلجأ إليه وحده ونطلب المعونة المتممة للعمل والموصلة لثمرته منه سبحانه دون سواه ، إذ لا يقدر على ما وراء الأسباب الممنوحة لكل البشر على السواء إلا مسبب الأسباب ورب الأرباب ، فقوله تعالى (و إياك نستعين) متمم لمعنى قوله (إياك نعبد) لأن الاستعانة بهذا المعنى فزع من القلب الى الله وتعلق من النفس به ، وذلك من مخ العبادة ، فإذا توجه العبد إلى غير الله تعالى كان

ضربا من ضروب العبادة الوثنية التى كانت ذائعة فى زمن التنزيل وقبله ، وخصت بالذكر لئلا يتوهم الجهلاء أن الاستعانة بمن اتخذوهم أولياء من دون الله ، واستعانوا بهم فيما وراء الأسباب المكتسبة لعامة الناس ، هى كالاستعانة بسائر الناس فى الأسباب العامة ، فأراد الحق جل شأنه أن يرفع هذا اللبس عن عباده ببيان ان الاستعانة بالناس فيما هو فى استطاعة الناس إنما هو ضرب من استعمال الأسباب المسنونة ، وما منزلتها إلا كمنزلة الآلات فيما هى آلات له ، بخلاف الاستعانة بهم فى شؤون تفوق القدر والقوى الموهوبة لهم، والأسباب المشتركة بينهم، كالاستعانة فى شفاء المرض بما وراء الأدوية والمعالجات المجربة ، وعلى غلبة العدو بما وراء العِدة والعُدة ، فان ذلك مما لا يجوز الفزع والتوجه فيه إلى غير الله تعالى صاحب السلطان الأعظم ، على ما لا يصل إليه سلطان أحد من العالم .

ضرب الأستاذ الإمام مثلا لذلك الزارع يبذل جهده فى الحرث والعذق وتسميد الأرض وريها ، ويستعين بالله تعالى على إتمام ذلك بمنع الآفات والجوائح السماوية أو الأرضية ، ومثل بالتاجر يحذق فى اختيار الأصناف ويمهر فى صناعة الترويج ، ثم يتكل على الله فيما بعد ذلك . ثم قال : ومن هنا تعلمون ان الذين يستعينون بأصحاب الاضرحة والقبور على قضاء حوائجهم ، وتيسير أمورهم وشفاء أمراضهم ، ونماء حرثهم وزرعهم ، وهلاك

أعدائهم ، وغير ذلك من المصالح ، هم عن صراط التوحيد ناكبون ، وعن ذكر الله معرضون .

أرشدتنا هذه الكلمة الوجيزة (وإياك نستعين) إلى أمرين عظيمين هما معراج السعادة فى الدنيا والآخرة (أحدهما) أن نعمل الأعمال النافعة ونجتهد فى إتقانها ما استطعنا ، لأن طلب المعونة لا يكون إلا على عمل بذل فيه المرء طاقته فلم يوفه حقه ، أو يخشى أن لا ينجح فيه فيطلب المعونة على اتمامه وكماله ، فمن وقع من يده القلم على المكتب لا يطلب المعونة من أحد على إمساكه ، ومن وقع تحت عبء ثقيل يعجز عن النهوض به وحده يطلب المعونة من غيره على رفعه ، ولكن بعد استفراغ القوة فى الاستقلال به ، وهذا الأمر هو مرقاة السعادة الدنيوية ، وركن من أركان السعادة الاخروية . (وثانيهما) ما افاده الحصر من وجوب تخصيص الاستعانة بالله تعالى وحده فيما وراء ذلك ، وهو روح الدين وكمال التوحيد الخالص ، الذى يرفع نفوس معتقديه ويخلصها من رق الاغيار ، ويفك ارادتهم من أسر الرؤساء الروحانيين ، والشيوخ الدجالين ، ويطلق عزائمهم من قيد المهيمنين الكاذبين ، من الأحياء والميتين ، فيكون المؤمن مع الناس حراً خالصاً وسيداً كريماً ، ومع الله عبداً خاضعاً (ومن يطع الله ورسوله فقد فاز فوزاً عظيما) .

وأقول أيضاً : ان عبادة الله تعالى هى غاية الشكر له فى القيام بما يجب لالوهيته ، واستعانته هى غاية الشكر له فى القيام بما يجب لربوبيته ، أما الأول فظاهر لأنه هو الإله الحق فلا يعبد بحق سواه ، وأما الثانى فلأنه هو المربى للعباد الذى وهب لهم جميع ماتكمل به تربيتهم الصورية والمعنوية ، ومن هنا تعلم ان ايراد ذكر العبادة والاستعانة بعد ذكر اسم الجلالة الأعظم ، واسم الرب الاكرم ، إنما هو لترتبهما عليهما من قبيل ترتيب النشر على اللف . والاستعانة بهذا المعنى ترادف التوكل على الله وتحل محله وهو كمال التوحيد والعبادة الخالصة ، ولذلك جمع القرآن بينهما فى مثل قوله تعالى (ولله غيب السموات والأرض وإليه يرجع الأمر كله فاعبده وتوكل عليه) .

فهذه الاستعانة هى ثمرة التوحيد واختصاص الله تعالى بالعبادة ، فان من معنى العبادة الشعور بأن السلطة الغيبية التى هى وراء الأسباب العامة ، الموهوبة من الله تعالى لعباده كافة ، هى لله وحده كما تنطق به الآية التى استشهدنا بها آنفاً على قرن العبادة بالتوكل ، فمن كان موحداً خالصاً لا يستعين بغير الله تعالى قط ، فما كان من أنواع المعونة داخلا فى حلقات سلسلة الأسباب كان طلبه بسببه طلبا من الله تعالى . ولكنه يحتاج فى تحقق ذلك إلى قصد وملاحظة وشهود قلبى وما كان غير داخل فيها يتوجه فى طلبه إلى الله تعالى بلا واسطة ولا حجاب ،

وبهذا البيان تعلم انه لا منافاة بين التوحيد والتوكل وبين الاخذ بالأسباب واقامة سنن الله تعالى فيها ، بل الكمال والأدب فى الجمع بينهما ، فالسيد المالك إذا نصب لعبيده وخدمه مائدة يأكلون منها غدواً وعشياً ، وجعل لهم خدما يقومون بأمرها ، لا يكون طلب الطعام منه إلا بالاختلاف إلى المائدة ، وإنما ينبغى أن لا يغفلوا بها وبخدمها عن ذكر صاحب الفضل الذى أنشأها بماله وسخر أولئك الخدم للآكلين عليها ، ولا عن حمده وشكره .

فهذا مثال مائدة الكون بأسبابه ومسبباته ، والعبد إذا احتاج شيئاً من الأشياء التى لم يجعلها سيده مبذولة لجميع عبيده فى كل وقت ، طلبه منه دون سواه ، فان أظهر الحاجة إلى غيره كان ذلك من جهله وقلة ثقته بمولاه ، وجعل ذلك الغير فى مرتبته أو أجدر منه بالفضل . هذا فى العبيد مع السادة الذين لهم نظراء ، وأنداد ، فكيف إذا كان العبد الذى يتوجه إلى غير مولاه ، لا يجد من يتوجه إليه سواه ، إلا أمثاله من العبيد المحتاجين إلى المولى مثله ، لانه هو السيد الصمد ، الذى ليس له كفؤا أحد ؟ .

ثم ان لفظ الاستعانة يشعر بأن يطلب العبد من الرب تعالى الاعانة على شىء له فيه كسب ليعينه على القيام به ، وفى هذا تكريم للانسان بجعل عمله أصلا فى كل ما يحتاج إليه لاتمام تربية نفسه وتزكيتها ، وإرشاد له إلى أن ترك العمل والكسب ، ليس من سنة الفطرة ولا من هدى الشريعة ، فمن تركه كان كسولا مذموما ،

لا متوكلا محمودا . وبتذكيره من جهة أخرى بضعفه ، لكيلا يغتر فيتوهم انه مستغن بكسبه عن عناية ربه ، فيكون من الهالكين فى عاقبة امره

إذا تدبرت هـذا فهمت منه نكتة من نكت تقديم العبادة الاستعانة وهى ان الثانية ثمرة للاولى ولا ينافى هذا ان العبادة نفسها مما يستعان عليه بالله تعالى ليوفق العابد للاتيـان بها على الوجه المرضى له عز وجل . لامنافاة بين الأمرين لأن الثمرة التى تخرج من الشجرة تكون حاوية للنواة التى تخرج منها شجرة أخرى فالعبادة تكون سببا للمعونه من وجه . والمعونة تكون سببا للعبادة من وجه آخر ، وكذلك الأعمال تطبع الاخـلاق فى النفس ثم تكون الاخلاق مصادر للاعمال ، فكل منهما سبب ومسبب وعلة ومعلول ، والجهة مختلفة ، فلا دور فى المسألة

وأقول أيضـا إن نكتة تقديم « إياك » على الفعلين « نعبد ونستعين » هى افادة الاختصـاص والحصر على المشهور الذى جرى عليه الاستاذ الامام كغيره فالمعنى إذن : نعبدك ولا نعبد غيرك ونستعينك ولا نستعين سـواك : وقد استخرج له بعض الغواصين على المعانى نكتا أخرى « منها » أن « إياك » ضمير راجع إلى الله تعالى وقيل ان « إيا » اسم ظاهر مضاف الى الضمير

الذى هو الكاف ، فتقديمه على الوجهين يؤذن بالاهتمام به الذى هو العلة الاصلية العامة للتقديم فى هذه اللغة

ومنها أنه من الادب أيضا . ومنها أن افادة الحصر بهذا الاسم « أو الضمير » المقدم على الفعل أبلغ من افادة الحصر بالضمير المتصل الذى يقرن به مايدل على ذلك من الكلام ، كقولك : انما نعبدك وانما نستعينك ، أو نستعين بك وحدك واعادة إياك مع الفعل الثانى يفيد أن كلا من العبادة والاستعانة مقصود بالذات فلا يستلزم كل منهما الآخر . ذلك بأن الاستعانة بالله تعالى يجب أن تكون عامة فى كل شىء .

ومن الناس من لا يستعين بالله على شىء من أعماله الاختيارية زعما منهم انهم يستقلون بذلك بدون اعانة خاصة منه تعالى كالقدرية . وأفضل الاستعانة ماكان على الطاعة والخير وقد أخذ النبى صلى الله عليه وسلم بيد معاذ يوما وقال « والله انى لأحبك . أوصيك يامعاذ لا تدعن فى دبر كل صلاة أن تقول اللهم أعنى على ذكرك وشكرك وحسن عبادتك » وقد روينا هذا المعنى فى الاحاديث المسلسلة قال لى شيخنا ابو المحاسن محمد القاوقجى فى طرابلس الشام « إنى أحبك فقل اللهم أعنى على ذكرك وشكرك وحسن عبادتك » قال لى شيخنا محمد عابد السندى فى الحرم النبوى الشريف « إني أحبك » الخ وذكر سنده إلى النبى صلى الله عليه وسلم

(إهدنا الصراط المستقيم)

ذكر الأستاذ الإمام أولا ما قالوه فى معنى الهداية لغة من أنها الدلالة بلطف على ما يوصل إلى المطلوب . ثم بين أنواعها ومراتبها فقال ما مثاله : منح الله تعالى الانسان أربع هدايات يتوصل بها إلى سعادته (أولاها) هداية الوجدان الطبيعى والالهام الفطرى وتكون للأطفال منذ ولادتهم، فان الطفل بعد ما يولد يشعر بألم الحاجة إلى الغذاء فيصرخ طالبا له بفطرته ، وعندما يصل الثدى إلى فيه يلهم التقامه وامتصاصه

(الثانية هداية الحواس والمشاعر) وهى متممة للهداية الأولى فى الحياة الحيوانية و يشارك الانسان فيهما الحيوان الاعجم بل هو فيهما أكمل من الانسان ، فان حواس الحيوان و إلهامه يكملان له بعد ولادته بقليل ، بخلاف الانسان فان ذلك يكمل فيه بالتدريج فى زمن غير قصير ، الا تراه عقب الولادة لاتظهر عليه علامات إدراك الأصوات والمرئيات ، ثم بعد مدة يبصر ولكنه لقصر نظره يجهل تحديد المسافات ، فيحسب البعيد قريبا فيمد يديه إليه ليتناوله و إن كان قمر السماء ، ولايزال يغلط حسه حتى فى طور الكمال

(الهداية الثالثة العقل) خلق الانسان ليعيش مجتمعا ولم يعط من الالهام والوجدان مايكفى مع الحس الظاهر لهذه الحياة

الاجتماعية كما أعطى النحل والنمل فان الله قد منحها من الالهام ما يكفيها لأن تعيش مجتمعة يؤدى كل واحد منها وظيفة العمل لجميعها ويؤدى الجميع وظيفة العمل الواحد ، وبذلك قامت حياة أنواعها كما هو مشاهد

وأما الانسان فلم يكن من خاصة نوعه أن يتوفر له مثل ذلك الالهام فحباه الله هداية هى أعلى من هداية الحس والالهام وهى العقل الذى يصحح غلط الحواس والمشاعر ويبين أسبابه ، وذلك أن البصر يرى الكبير على البعد صغيراً ، ويرى العود المستقيم فى الماء معوجا ، والصفراوى يذوق الحلو مرا . والعقل هو الذى يحكم بفساد مثل هذا الادراك

(الهداية الرابعة الدين) يغلط العقل فى إدراكه كما تغلط الحواس وقد يهمل الانسان استخدام حواسه وعقله فيما فيه سعادته الشخصية والنوعية ويسلك بهذه الهدايات مسالك الضلال فيجعلها مسخرة لشهواته ولذاته حتى توردهموارد الهلكة فاذا وقعت المشاعر فى مزالق الزلل ، واسترقت الحظوظ والاهواء العقل فصار يستنبط لها ضروب الحيل ، فكيف يتسنى للانسان مع ذلك أن يعيش سعيدا ؟ هذه الحظوظ والاهواء ليس لها حد يقف الانسان عنده ، وما هو بعائش وحده ، وكثيرا ماتتطاول به إلى مافى يد غيره ، فهى لهذا تقتضى أن يعدو بعض أفراده على بعض ،

فيتنازعون ويتدافعون ويتجادلون ويتجالدون، ويتواثبون ويتناهبون، حتى يفنى بعضهم بعضا، ولا تغنى عنهم تلك الهدايات شيئا؟ فاحتاجوا إلى هداية ترشدهم فى ظلمات أهوائهم، إذا هى غلبت على عقولهم، وتبين لهم حدود أعمالهم ليقفوا عندها، ويكفوا أيديهم عما وراءها.

ثم إن مما أودع فى غرائز الانسان الشعور بسلطة غيبية متسلطة على الأكوان ينسب إليها كل ما لا يعرف له سببا، لأنها هى الواهبة كل موجود ما به قوام وجوده؛ وبأن له حياة وراء هذه الحياة المحدودة، فهل يستطيع أن يصل بتلك الهدايات الثلاث إلى تحديد ما يجب عليه لصاحب تلك السلطة الذى خلقه وسواه، ووهبه هذه الهدايات وغيرها، وما فيه سعادته فى تلك الحياة الثانية؟. كلا إنه فى أشد الحاجة إلى هذه الهداية الرابعة - الدين - وقد منحه الله تعالى إياها

أشار القرآن إلى أنواع الهداية التى وهبها الله تعالى للانسان فى آيات كثيرة منها قوله تعالى (وهديناه النجدين) أى طريقى السعادة والشقاوة والخير والشر. قال الأستاذ الإمام: وهذه تشمل هداية الحواس الظاهرة والباطنة وهداية العقل وهداية الدين. ومنها قوله تعالى (وأما ثمود فهديناهم فاستحبوا العمى على الهدى) أى دللناهم على طريقى الخير والشر فسلكوا سبل

الشر المعبر عنها بالعمى ، وذكر غير هاتين الآيتين مما فى معناهما ، ثم قال :

بقى معنا هداية أخرى وهى المعبر عنها بقوله تعالى (أولئك الذين هدى الله فبهداهم اقتده) فليس المراد من هذه الهداية ماسبق ذكره فالهداية فى الآيات السابقة بمعنى الدلالة وهى بمنزلة إيقاف الانسان على رأس الطريقين المهلك والمنجى مع بيان ما يؤدى إليه كل منهما ، وهى مما تفضل الله به على جميع أفراد البشر . أما هذه الهداية فهى أخص من تلك والمراد بها إعانتهم وتوفيقهم للسير فى طريق الخير والنجاة مع الدلالة وهى لم تكن ممنوحة لكل أحد كالحواس والعقل وشرع الدين (١)

ولما كان الانسان عرضة للخطأ والضلال فى فهم الدين وفى استعمال الحواس والعقل على ما قدمنا كان محتاجا إلى المعونة الخاصة فأمرنا الله بطلبها منه فى قوله (اهدنا الصراط المستقيم)

---

(١) هذا الفرق بين معنى الهداية معروف فى اللغة وبه يجاب عن التعارض الظاهرى فى قوله تعالى (وانك لتهدى إلى صراط مستقيم) وقوله تعالى (إنك لاتهدى من أحببت ولكن الله يهدى من يشاء) وقوله تعالى (ليس عليك هداهم ولكن الله يهدى من يشاء) فالهداية التى أثبتها للنبى صلى الله عليه وسلم هى الدلالة على الخير والحق ، والتى نفاها عنه هي الثانية التى بمعنى الاعانة عليهما والتوفيق لهما

فمعنى (اهدانا الصراط المستقيم) دلنا دلالة تصحبهامعونة غيبية من لدنك تحفظنا بها من الضلال والخطأ . وما كان هـذا أول دعاء علمنا الله تعالى إياه ، إلا لأن حاجتنا اليه أشد من حاجتنا الى كل شيء سواه .

ثم بين الأستاذ معنى الصراط (وهو الطريق) واشتقاقه وقراءة السراط بالسين المهملة واشتقاقها على نحو مافى كتب اللغة والتفسير ، ومعنى المستقيم وهو ضد المعوج وقال : ليس المراد بمقابل المستقيم المعوج ذا التمعج والتعاريج بل المراد كل ما فيه انحراف عن الغاية التى يجب أن ينتهى سالـكه إليها . والمستقيم فى عرف الهندسة أقرب موصل بين طرفين ، وهذا المعنى لازم للمعني اللغوى كما هو ظاهر بالبداهة . وإنما قلنا إن المرادبمقابل المستقيم كل ما فيه انحراف لأن كل من يميل وينحرف عن الجادة يكون أضل عن الغاية ممن يسير عليها فى خط ذى تعاريج ، لأن هذا الأخير قد يصل إلى الغاية بعد زمن طويل ، ولـكن الأول لا يصل إليها أبدا ، بل يزداد عنها بعدا كلما أوغل فى السير وانهمك فيه

قالوا إن المراد بالصراط المستقيم الدين أو الحق أو العدل أو الحدود ونحن نقول إنه جملة ما يوصلنا إلى سعادة الدنيا والآخرة من عقائد وآداب وأحكام وتعاليم . لم سمى الموصل إلى السعادة من ذلك صراطاً وطريقا ؟ خذ الحق مثلا وهو العلم

الصحيح بالله و بالنبوة و بأحوال الكون والناس تر معنى الصراط فيه واضحا ، لأن السبيل أو الصراط ما أسلكه وأسير فيه لبلوغ الغاية التي أقصدها . كذلك الحق الذى يبين لى الواقع الثابت فى العقيدة الصحيحة هو كالجادة بين السبل المتفرقة المضلة . فالطريق الواضح للحسّ ، يشبه الحق للعقل والنفس ، سير حسى ، وسير معنوى .

كذلك إذا اعتبرت هذا المعنى فى الحدود والأحكام تجده واضحا : قسمت أحكام الأعمال إلى واجب ومندوب ومباح ومحرم ومكروه فكان هذا مريحا لنا من تمييز الخير من الشر بأنفسنا واجتهادنا . فبيان الأحكام بالهداية الكبرى وهى الدين كالطريق الواضح يسلك بالعمل . ومع هذا تجد الشهوات تتلاعب بالأحكام وترجعها إلى أهوائها كما يصرف السفهاء عقولهم وحواسهم فيما يرديهم . وهذا التلاعب بالدين إنما يصدر عن علمائه وضرب الأستاذ الإمام لذلك مثلا أحد الشيوخ المتفقهين سرق كتابا من وقف أحد الأروقة فى الأزهر مستحلا له بحجة أن قصد الواقف الانتفاع به وهو يحصل بوجود الكتاب عنده ، وأنه قد يفوت النفع ببقائه فى الرواق حيث وضعه الواقف إذ لا يوجد فيه من يفهمه مثله بزعمه : (١) واستحلال المحرمات بمثل هذا التأويل ليس

(١) ومما يبطل شبهة طمعه وجهله أنه يموت فيرث الكتاب من =

بقليل ولذلك كان الانسان محتاجا أشد الاحتياج إلى العناية الإلهية الخاصة لأجل الاستقامة والسير فى تلك الهدايات الأربع سيرا مستقيما يوصل إلى السعادة . لهذا نبهنا الله جل شأنه أن نلجأ اليه ونسأله الهداية ليكون عونا لنا ينصرنا على أهوائنا وشهواتنا ، وأن تكون استعانتنا فى ذلك به لا بسواه ، بعد أن نبذل ما نستطيع من الفكر والجهاد فى معرفة ما أنزل الينا من الشريعة والأحكام وأخذ أنفسنا بما نعلم من ذلك ، وهذا أفضل ما نطلب فيه المعونة منه جل شأنه لاشتماله على خيرى الدنيا والآخرة . فهو بهذه الآية يعلمنا كيف نستعين بعد أن علمنا اختصاصه بالاستعانة فى قوله (وإياك نستعين) .

(صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ)

(قال الأستاذ) الصراط المستقيم هو الطريق الموصل إلى الحق ولكنه تعالى مابينه بذلك كما بينه فى مثل سورة العصر (١)

=لا ينتفع به ولو بقى فى الرواق لو جد فى كل وقت من ينتفع به ممن يكون علمهم صحيحا لا كعلمه

(١) قد فسر الأستاذ الامام سورة العصر تفسيرا يظهر به صدق قول الامام الشافعي لو لم ينزل غير هذه السورة لكفت الناس ـ تفسيرا لا نجد مثله فى كتاب وستراه بعد تفسير الفاتحة هنا

وإنما بينه بإضافته إلى من سلك هذا الصراط كما قال فى سورة الانعام بعد ذكر أشهر الرسل (أولئك الذين هدى الله فبهداهم اقتده) وقد قلنا إن الفاتحة مشتملة على إجمال مافصل فى القرآن حتى من الأخبار ، التى هى مثل الذكرى والاعتبار ، وينبوع العظة والاستبصار ، وأخبار القرآن كلها تنطوى فى إجمال هذه الآية

(قال) فسر بعضهم المنعم عليهم بالمسلمين والمغضوب عليهم باليهود والضالين بالنصارى ، ونحن نقول إن الفاتحة أول سورة نزلت كما قال الامام على رضى الله عنه وهو أعلم بهذا من غيره ، لأنه تربى فى حجر النبى ﷺ وأول من آمن به ، وإن لم تكن أول سورة على الاطلاق فلا خلاف فى أنها من أوائل السور (كما مر فى المقدمة) ولم يكن المسلمون فى أول نزول الوحى بحيث يطلب الاهتداء بهداهم وماهداهم إلا من الوحى ، ثم هم المأمورون بأن يسألوا الله أن يهديهم هذه السبيل سبيل من أنعم الله عليهم من قبلهم ، فأولئك غيرهم ، وإنما المراد بهذا ماجاء فى قوله تعالى (فبهداهم اقتده) وقوله (أولئك الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين) أى من الأمم السالفة . فقد أحال على معلوم أجمله فى الفاتحة وفصله فى سائر القرآن بقدر

الحاجة . فثلاثة أرباع القرآن تقريبا قصص (١) وتوجيه للأنظار إلى الاعتبار بأحوال الأمم ، فى كفرهم وإيمانهم ، وشقاوتهم وسعادتهم ، ولا شىء يهدى الانسان كالمثلات والوقائع . فاذا امتثلنا الأمر والارشاد ، ونظرنا فى أحوال الأمم السالفة ، وأسباب علمهم وجهلهم ، وقوتهم وضعفهم ، وعزهم وذلهم ، وغير ذلك مما يعرض للأمم – كان لهذا النظر أثر فى نفوسنا يحملنا على حسن الاسوة والاقتداء بأخبار تلك الأمم فيما كان سبب السعادة والتمكن فى الأرض ، واجتناب ما كان سبب الشقاوة أو الهلاك والدمار ومن هنا ينجلى للعاقل شأن علم التاريخ وما فيه من الفوائد والثمرات ، وتأخذه الدهشة والحيرة إذا سمع أن كثيرا من رجال الدين من أمة هذا كتابها يعادون التاريخ باسم الدين ، ويرغبون عنه ، ويقولون إنه لا حاجة إليه ولا فائدة له . وكيف لا يدهش ويحار والقرآن ينادى بأن معرفة أحوال الأمم من أهم مايدعو إليه هذا الدين ؟ (ويستعجلونك بالسيئة قبل الحسنة وقد خلت من قبلهم المثلات)

ويرد ههنا سؤال كيف يأمرنا الله تعالى باتباع صراط من

---

(١) يعنى بالقصص والاعتبار مايشمل محاجة أهل الكتاب فى سورة البقرة وآل عمران والنساء والمائدة وإلا كان التقدير بعيدا عن الصواب

تقدمنا وعندنا أحكام و إرشادات لم تكن عندهم ، و بذلك كانت شريعتنا أكمل من شرائعهم ، وأصلح لزماننا وما بعده ؟ والقرآن يبين لنا الجواب عنه ، وهو أنه يصرح بأن دين الله فى جميع الأمم واحد وإنما تختلف الأحكام بالفروع التى تختلف باختلاف الزمان ، وأما الأصول فلا خلاف فيها . قال تعالى (قل يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا و بينكم) الآية وقال تعالى (إنا أوحينا إليك كما أوحينا إلى نوح والنبيين من بعده) الآية . فالإيمان بالله و برسله و باليوم الآخر ، وترك الشر وعمل البر والتخلق بالأخلاق الفاضلة ، مستوٍ فى الجميع .

وقد أمرنا الله بالنظر فيما كانوا عليه ، والاعتبار بما صاروا اليه ، لنقتدى بهم فى القيام على أصول الخير . وهو أمر يتضمن الدليل على أن فى ذلك الخير والسعادة على حسب طريقة القرآن فى قرن الدليل بالمدلول والعلة بالمعلول ، والجمع بين السبب والمسبب ، وتفصيل الأحكام التى هذه كلياتها بالاجمال نعرفه من شرعنا وهدى نبينا عليه الصلاة والسلام اه بتفصيل وإيضاح

وازيد هنا أن فى الاسلام من ضروب الهداية ما قد يعد من الاصول الخاصة بالاسلام ، و يرى انه مما يستدرك على ما قرره الأستاذ الامام ، كبناء العقائد فى القرآن على البراهين العقلية والكونية ، و بناء الأحكام الأدبية والعملية على قواعد المصالح

والمنافع ودفع المضار والمفاسد وكبيان أن للكون سننا مطردة تجرى عليها عوالمه العاقلة وغير العاقلة ، وكالحث على النظر فى الأكوان ، للعلم والمعرفة بما فيها من الحكم والأسرار التى يرتقى بها العقل وتتسع بها أبواب المنافع للانسان ، وكل ذلك مما امتاز به القرآن .

والجواب عن هذا أنه تكميل لأصول الدين الثلاث التى بعث بها كل نبى مرسل لجعل بنائه رصينا مناسبا لارتقاء الانسان . وأما تلك الاصول وهى الإيمان الصحيح وعبادة الله تعالى وحده وحسن المعاملة مع الناس فهى التى لاخلاف فيها

وأما وصفه تعالى الذين أنعم عليهم بأنهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين فالمختار فيه أن المغضوب عليهم هم الذين خرجوا عن الحق بعد علمهم به والذين بلغهم شرع الله تعالى ودينه فرفضوه ولم يتقبلوه انصرافا عن الدليل ، ورضاء بما ورثوه من القيل ، ووقوفا عند التقليد وعكوفا على هوى غير رشيد ، وغضب الله يفسرونه بلازمه وهو العقاب ، ووافقهم الاستاذ الامام ، والذى ينطبق على مذهب السلف أن يقال إنه شأن من شؤونه تعالى يترتب عليه عقوبته وانتقامه ، فغضبه لايشبه غضبنا ، كما أن رحمته لاتشبه رحمتنا وكذلك ذاته وسائر صفاته - وأن الضالين هم الذين لم يعرفوا الحق البتة ، أو لم يعرفوه على الوجه الصحيح الذى يقرن به العمل كما سيأتى تفصيله وقرن المعطوف فى قوله (ولا الضالين) بلا لما فى (غير) من

معنى النفى أى وغير الضالين ففيه تأكيد للنفى . وهو يدل على أن الطوائف ثلاث : المنعم عليهم ، والمغضوب عليهم، والضالون ولاشك أن المغضوب عليهم ضالون أيضاً لأنهم بنبذهم الحق وراء ظهورهم قد استدبروا الغاية واستقبلوا غير وجهتها ، فلا يصلون منها إلى مطلوب ولا يهتدون فيها إلى مرغوب ، ولكن فرقا بين من عرف الحق فأعرض عنه على علم و بين من لم يظهر له الحق فهو تائه بين الطرق لايهتدى إلى الجادة الموصلة منها، وهم من لم تبلغهم الرسالة أو بلغتهم على وجه لم يتبين لهم فيه الحق ،فهؤلاء هم أحق باسم الضالين ، فان الضال حقيقة هو التائه الواقع فى عماية لا يهتدى معها إلى المطلوب ، والعماية فى الدين هى الشبهات التى تلبس الحق بالباطل وتشبه الصواب بالخطأ .

الأستاذ الإمام : الضالون على أقسام (الأول من لم تبلغهم الدعوة الى الرسالة أو بلغتهم على وجه لايسوق إلى النظر فهؤلاء لم يتوفر لهم من أنواع الهداية سوى ما يحصل بالحس والعقل ، وحرموا رشد الدين ، فان لم يضلوا فى شؤونهم الدنيوية ضلوا لا محالة فيما تطلب به نجاة الأرواح وسعادتها فى الحياة الأخرى على أن من شأن الدين الصحيح أن يفيض على أهله من روح الحياة مابه يسعدون فى الدنيا والآخرة معاً ، فمن حرم الدين حرم السعادتين ، وظهر أثر التخبط والاضطراب فى أعماله المعاشية ، وحل به من الرزايا مايتبع الضلال والخبط عادة ، سنة الله فى هذا

العالم ولن تجد لسنته تبديلا . أما أمرهم فى الآخرة فعلى أنهم لم يساووا المهتدين فى منازلهم ، وقد يعفو الله عنهم . وهو الفعال لما يريد اه

وأزيد فى إيضاح كلام الأستاذ أن الذين حرموا هداية الدين لا يعقل أن يؤاخذوا فى الآخرة على ترك شىء مما لا يعرف إلا بهذه الهداية . وهذا هو معنى كونهم غير مكلفين ، وعليه جمهور المتكلمين لقوله تعالى فى سورة الاسراء (وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا) ومن قال إنهم مكلفون بالعقل لا يظهر وجه لقوله إلا إذا أراد أن حالهم فى الآخرة تكون على حسب ارتقاء أرواحهم بهداية العقل وسلامة الفطرة إذ لا شك أن من لم يبعث فيهم رسول يتفاوتون فى إدراكهم وأعمالهم بتفاوت استعدادهم الفطرى وما يصادفون من حسن التربية وقبحها . وبهذا يجمع بين القولين فى تكليفهم وعدمه أو يفصل بينهما . وما يعطيهم الله تعالى إياه فى الآخرة على حسب حالهم فى الخير والشر والفضيلة والرذيلة - يكون جزاء عادلا على أعمالهم الاختيارية ويزيدهم من فضله إن شاء . وسأفصل هذا المعنى فى تفسير الآيات المنزلة فيه إن شاء الله تعالى . وأعود الآن إلى إتمام سياق الأستاذ ، قال :

(القسم الثانى) من بلغته الدعوة على وجه يبعث على النظر ، فساق همته اليه ، واستفرغ جهده فيه ، ولكن لم يوفق

الى الايمان بما دعى اليه ، وانقضى عمره وهو فى الطلب ، وهذا القسم لايكون إلا أفرادا متفرقة فى الأمم ولايعم حاله شعبا من الشعوب ، فلا يظهر له أثر فى أحوالها العامة ، وما يكون لهـا من سعادة وشقاء فى حياتها الدنيا . أماصاحب هذه الحالة فقد ذهب بعض الأشاعرة إلى أنه ممن ترجى له رحمـة الله تعالى ، وينقل صاحب هذا الرأى مثله عن أبى الحسن الأشعرى. وأما على رأى الجمهور فلا ريب فى أن مؤاخذته أخف من مؤاخذة الجاحد الذى أنـكر التنزيل ، واستعصى على الدليل ؛ وكفر بنعمة العقل ، ورضى بحظه من الجهل .

(القسم الثالث) من بلغتهم الرسالة وصدقوا بها ، بدون نظر فى أدلتها ولا وقوف على أصولها ، فاتبعوا أهواءهم فى فهم ماجاءت به من أصول العقائد، وهؤلاء هم المبتدعة فى كل دين ، ومنهم المبتدعون فى دين الاسلام ، وهم المنحرفون فى اعتقادهم عماتدل عليه جملة القرآن وما كان عليه السلف الصالح وأهل الصدر الأول ففرقوا الأمة الى مشارب ، يغص بمائها الوارد ، ولا يرتوى منها الشارب (قال) وإنى أشير إلى طرف من آثارهم فى الناس : يأتى الرجل الى دوائر القضاء فيستحلف بالله العلى العظيم ، أو بالمصحف الـكريم ، وهو كلام الله القديم ، أنه مافعل كذافيحلف وعلامة الكذب بادية على وجهه ، فيأتيه المستحلف من طريق آخر ويحمله على الحلف بشيخ من المشايخ الذين يعتقد لهم الولاية

فيتغير لونه، وتضطرب أركانه، ثم يرجع فى أليّته أى (حلفه) ويقول الحق، ويقر بأنه فعل ماحلف أولا أنه لم يفعله، تكريما لاسم ذلك الشيخ وخوفا منه أن يسلب عنه نعمة أو يحل به نقمة، إذا حلف باسمه كاذبا. فهذا ضلال فى أصول العقيدة يرجع إلى الضلال فى الايمان بالله تعالى وما يجب له من الوحدانية فى الأفعال، ولو أردنا أن نسرد ماوقع فيه المسلمون من الضلال فى العقائد الأصلية بسبب البدع التى عرضت على دين الاسلام لطال المقال، واحتيج إلى وضع مجلدات فى وجوه الضلال، ومن أشنعها أثرا، وأشدها ضررا، خوض رؤساء الفرق منهم فى مسائل القضاء والقدر، والاختيار والجبر، وتحقيق الوعد والوعيد، وتهوين مخالفة الله على نفوس العبيد.

إذا وزنا مافى أدمغتنا من الاعتقاد بكتاب الله تعالى من غير أن ندخلها أولا فيه يظهر لنا كوننا مهتدين أو ضالين، وأما إذا أدخلنا ما فى أدمغتنا فى القرآن وحشرناها فيه أولا فلا يمكننا أن نعرف الهداية من الضلال، لاختلاط الموزون بالميزان: فلا يدرى ماهو الموزون من الموزون به - أريد أن يكون القرآن أصلا يحمل عليه المذاهب والآراء فى الدين، لا أن تكون المذاهب أصلا والقرآن هو الذى يحمل عليها، ويرجع بالتأويل أو التحريف إليها، كما جرى عليه المخذولون وتاه فيه الضالون.

(القسم الرابع) ضلال فى الأعمال ، وتحريف للأحكام عما وضعت له . كالخطأ فى فهم معنى الصلاة والصيام وجميع العبادات والخطأ فى فهم الأحكام التى جاءت فى المعاملات ، ولنضرب لذلك مثلا : الاحتيال فى الزكاة بتحويل المال إلى ملك الغير قبل حلول الحول ثم استرداده بعد مضى قليل من الحول الثانى ، حتى لا تجب الزكاة فيه ، ويظن المحتال أنه بحيلته قد خلص من أداء الفريضة ، ونجا من غضب من لا تخفى عليه خافية ، ولا يعلم أنه بذلك قد هدم ركنا من أهم أركان دينه ، وجاء بعمل من يعتقد أن الله قد فرض فرضا وشرع بجانب ذلك الفرض ما يذهب به ويمحو أثره ، وهو محال عليه جل شأنه :ـ

ثلاثة أقسام من هذا الضلال أولها وثالثها ورابعها يظهر أثرها فى الأمم فتختل قوى الادراك فيها ، وتفسد الأخلاق وتضطرب الأعمال ، ويحل بها الشقاء . عقوبة من الله لابد من نزولها بهم سنة الله فى خلقه ولن تجد لسنته تحويلا .

ويعد حلول الضعف ونزول البلاء بأمة من الأمم من العلامات والدلائل على غضب الله تعالى عليها لما أحدثته فى عقائدها وأعمالها مما يخالف سننه ، ولا يتبع فيه سننه .

لهذا علمنا الله تعالى كيف ندعوه بأن يهدينا طريق الذين ظهرت نعمته عليهم بالوقوف عند حدوده ، وتقويم العقول والأعمال بفهم ما هدانا اليه ، وأن يجنبنا طرق أولئك الذين ظهرت فيهم

آثار نقمه بالانحراف عن شرائعه سواء كان ذلك عمداً وعناداً ، أو غواية وجهلا إذا ضلت الأمة سبيل الحق ولعب الباطل بأهوائها . ففسدت أخلاقها واعتلت أعمالها ، وقعت فى الشقاء لا محالة ، وسلط الله عليها من يستذلها و يستأثر بشئونها ، ولا يؤخر لها العذاب إلى يوم الحساب ، و إن كانت ستلاقى نصيبها منه أيضا ، فاذا تمادى بها الغى وصل بها الهلاك ، ومحى أثرها من الوجود ، لهذا علمنا الله تعالى كيف ننظر فى أحوال من سبقنا ومن بقيت آثارهم بين أيدينا من الأمم لنعتبر ونميز بين ما به تسعد الأقوام وما به تشقى . أما فى الأفراد فلم تجر سنة الله بلزوم العقوبة لكل ضال فى هذه الحياة الدنيا ، فقد يستدرج الضال من حيث لايعلم ، و يدركه الموت قبل أن تزول النعمة عنه . وإنما يلقى جزاءه (يوم لاتملك نفس لنفس شيئا والأمر يومئذ لله) اهـ

﴿ تم تفسير الفاتحة ﴾

ويليه أربع علاوات له :

العلاوة الاولى

استدراك على تفسير المغضوب عليهم والضالين

ورد فى الحديث المرفوع تفسير المغضوب عليهم باليهود والضالين بالنصارى رواه أحمد والترمذى وحسنه وابن حبان وصححه وغيرهم ، ونقلنا عن شيخنا الأستاذ الإمام عزوه إلى بعضهم أى بعض المفسرين ، وهو يريد أن بعض المفسرين اختار أن هذا هو المعنى المراد ، وهو لم يكن يجهل أن هذا روى مرفوعا ، لكنه كان يعلم مع هذا أن أكثر المفسرين فسروا اللفظين بما يدلان عليه لغة حتى بعض أهل الحديث منهم وكأنهم لم يروا أن الحديث صحيح ، فقد قال البغوى الملقب بمحيي السنة فى تفسيره (معالم التنزيل) بعد تفسيرهما بمدلولهما اللغوى : وقيل المغضوب عليهم هم اليهود والضالون هم النصارى ، لأن الله تعالى حكم على اليهود بالغضب فقال (من لعنه الله وغضب عليه) وحكم على النصارى بالضلال فقال (ولا تتبعوا أهواء قوم قد ضلوا من قبل) وقال سهل بن عبد الله : غير المغضوب عليهم بالبدعة ، ولا الضالين عن السنة . اه فعبر عن هذا القول بقيل الدال على ضعفه عنده ولم يستدل عليه بالحديث

وقال الحافظ ابن كثير فى تفسيره : غير صراط المغضوب

عليهم وهم الذين فسدت إرادتهم فعلموا الحق وعدلوا عنه ، ولا صراط الضالين وهم الذين فقدوا العلم فهم هائمون فى الضلالة لا يهتدون إلى الحق . وأكد الكلام بلا ليدل على أن ثم مسلكين فاسدين وهما طريقة اليهود والنصارى اه

وبعد كلام طويل فى إعراب « غير » و« لا » قال : إنما جىء بلا لتأكيد النفى لئلا يتوهم أنه معطوف على (الذين أنعمت عليهم) وللفرق بين الطريقتين ليجتنب كل واحدة منهما ، فان طريقة أهل الإيمان مشتملة على العلم بالحق والعمل به ، واليهود فقدوا العمل والنصارى فقدوا العلم[1] ، ولهذا كان الغضب لليهود والضلال للنصارى — واستشهد بالآيتين اللتين استشهد بهما البغوى ، ثم ذكر الحديث ورواياته وهو عند أحمد والترمذى وكذا ابن حبان من طريق سماك بن حرب عن عدى بن حاتم قال الترمذى حسن غريب لا نعرفه إلا من حديثه . وسماك ضعفه جماعة ووثقه آخرون ، واتفقوا على أنه تغير فى آخر عمره بل خرف فما رواه فى هذه الحال فلا جدال فى رده بالاتفاق ، وأخرجه ابن مردويه عن أبى ذر أيضا بسند ، قال الحافظ فى الفتح إنه حسن . وقال ابن أبى حاتم إنه لا يعرف فى تفسيرهما بما ذكر خلافا يعنى فى المأثور . ومع هذا نقول إن ما ذكره المحققون من الوجوه

(١) يعنى علم الدين وأساسه التوحيد

الأخرى لا يعد مخالفة المأثور الذى هو من قبيل تفسير العام ببعض أفراده من قبيل التمثيل لا التخصيص ولا الحصر بالأولى

العلاوة الثانية

التأمين بعد الفاتحة

عن أبى هريرة أن رسول الله ﷺ قال « إذا أمن الامام فأمنوا فان من وافق تأمينه تأمين الملائكة غفر له ما تقدم من ذنبه » وقال ابن شهاب كان رسول الله ﷺ يقول « آمين » رواه الجماعة إلا أن الترمذى لم يذكر قول ابن شهاب .وفى رواية « إذا قال الامام (غير المغضوب عليهم ولا الضالين) فقولوا : آمين ، فان الملائكة تقول آمين ، و إن الإمام يقول آمين فمن وافق تأمينه تأمين الملائكة غفر له ماتقدم من ذنبه » رواه أحمد والنسائى . وعن أبى هريرة قال « كان رسول الله ﷺ إذا تلا غير المغضوب عليهم ولا الضالين قال (آمين) يسمع من يليه من الصف الأول » رواه أبو داود وابن ماجه وقال حتى يسمعها أهل الصف الأول فيرتج بها المسجد . وعن وائل بن حجر قال « سمعت رسول الله ﷺ قرأ (غير المغضوب عليهم ولا الضالين) فقال « آمين » يمد بها صوته . رواه أحمد وأبو داود والترمذى اه منتقى الأخبار.

وهذه الأحاديث كلها صحيحة وأخرجها غير من ذكر وزاد أبو داود فى الأخير منها ورفع بها صوته . قال الحافظ ابن حجر وسنده صحيح ، وخطأ ابن القطان فى اعلاله إياه بجهالة حجر بن عنبس وقال إنه ثقة معروف قيل إن له صحبة

وهنالك أحاديث أخرى فى المسألة تبلغ مع هذه سبعة عشر حديثاً وهذه أصحها .

قال الشوكانى فى نيل الأوطار عند شرح حديث أبى هريرة الأول : والحديث يدل على مشروعية التأمين قال الحافظ :وهذا الأمر عند الجمهور للندب وحكى ابن بزيزة عن بعض أهل العلم وجوبه عملا بظاهر الأمر وأوجبته الظاهرية على كل من يصلى ، والظاهر من الحديث وجوبه على المأموم فقط لكن لا مطلقا بل مقيداً بأن يؤمن الإمام ، وأما الامام والمنفرد فمندوب فقط .

(قال) وحكى المهدى فى البحر عن العترة جميعاً أن التأمين بدعة – وقد عرفت ثبوته عن على عليه السلام من فعله وروايته عن النبي ﷺ فى كتب أهل البيت وغيرهم – على أنه قد حكى السيد العلامة الامام محمد ابراهيم الوزير عن الإمام المهدى محمد بن المطهر وهو أحد أئمتهم المشاهير أنه قال فى كتابه (الرياض الندية) إن رواة التأمين جم غفير – قال – وهو مذهب زيد بن على وأحمد بن عيسى اه وقد استدل صاحب البحر على أن التأمين بدعة بحديث معاوية بن الحكم السلمى « إن

هذه صلاتنا لا يصلح فيها شىء من كلام الناس » ولا يشك أن أحاديث التأمين خاصة وهذا عام ، و إن كانت أحاديثه الواردة عن جمع من الصحابة لا يقوى بعضها على تخصيص حديث واحد من الصحابة - مع أنها مندرجة تحت تلك العمومات القاضية بمشروعية مطلق الدعاء فى الصلاة لأن التأمين دعاء ، فليس فى الصلاة تشهد ، وقد أثبتته العترة فما هو جوابهم فى إثباته فهو الجواب فى إثبات ذلك . على أن المراد بكلام الناس فى الحديث هو تكليمهم لأنه اسم مصدر كلم لا تكلم و يدل على ذلك السبب المذكور فى الحديث اه .

والمراد بقوله السبب المذكور فى الحديث هو أن معاوية ابن الحكم السلمى شمت عاطسا فى الصلاة مع النبى صلى الله عليه وسلم فرماه القوم بأبصارهم فقال : واثكل أماه ما لكم تنظرون إلى ؟ الخ

وجملة القول أن التأمين فى الصلاة مشروع بنص الأحاديث الصحيحة الصريحة فلا وجه لمنعه بعموم أحاديث أخرى لا تنافيها ، ولو عارضتها لوجب ترجيحها عليها فإن أحاديث التأمين صحيحة صريحة مثبتة للعمل بها ومخالفها مفهوم اجتهادى ، والعملى لا يحتمل التأويل . وهو دعاء مشروع بخصوصه و بأدلة عامة .

واختلف فى موضعه بالنسبة إلى المأموم هل هو بعد قول الامام

(ولا الضالين) أم عند قوله آمين . وهـذا مبنى على أن بين الحديثين فى ذلك تعارضاً وهو غفلة عن كون الامام انمـا يؤمن بعد قوله (ولا الضالين) كما صرح به فى رواية أحمد والنسائى لحديث أبى هريرة فمعنى الحـديثين متفق ، وقوله ﷺ « إذا أمن الامام فامنوا » مبنى على أن من شأن الإمام أن يؤمن عقب إتمام الفاتحة اتباعاً للسنة فلا مفهوم للشرط فيه .

العلاوة الثالثة

ما ينبغى تدبره واستحضاره من معانى الفاتحة وغيرها فى الصلاة

إذا قمت أيها المسلم إلى الصلاة فوجه كل قلبك فيها إلى استحضار معنى كل ما يتحرك به لسانك من ذكر وتلاوة :

فإذا قلت « الله أكبر » فحسبك أن تذكر فى قلبك أن الله تعالى أعظم من كل عظيم وأكبر من كل شىء فلا يصح أن يشغلك عن الصلاة له أو فيها شىء دونه ، وكل شىء فهو دونه .

وإذا قرأت ما ورد فى ذكر الافتتاح فلا تشغل نفسك بغير معناه وهو ظاهر ، وإذا استعذت بالله تعالى قبل القراءة عملا بعموم قوله تعالى (فإذا قرأت القرآن فاستعذ بالله من الشيطان الرجيم) فتصور من معنى صيغة الاستعاذة أنك تلجأ إلى الله تعالى وتعتصم به من وسوسة الشيطان الشاغلة عن الصلاة وما يجب فيها من التدبر لكتابه والخشوع والاخلاص له تعالى .

وإذا قرأت البسملة فاستحضر من معناها : إننى أصلى أو أقرأ (باسم الله) الذى شرع الصلاة وأقدرنى عليها (الرحمن الرحيم) ذى الرحمة العامة التى وسعت كل شىء فى الدنيا والآخرة ، والخاصة بمن شاء من عباده المخلصين .

وإذا قلت (الحمد لله رب العالمين) فاستحضر من معناها أن كل ثناء جميل بالحق فهو لله تعالى استحقاقا وفعلا من حيث إنه الرب خالق العالمين ومربيهم ومدبر جميع أمورهم . (الرحمن) في نفسه (الرحيم) بخلقه (مالك يوم الدين) ذي الملك والتصرف دون غيره يوم محاسبة الخلق ومجازتهم بأعمالهم فلا يرجى غيره: وإذا قلت (إياك نعبد) الخ فتذكر أنك تخاطب هذا الرب العظيم كفاحا بما يجب أن تكون صادقا فيه ومعناه نعبدك وحدك دون سواك بدعائك والتوجه إليك (وإياك نستعين) نطلب معونتك وحدك على عبادتك وعلى جميع شؤوننا ، بالعمل بما أعطيتنا من الأسباب ، وبالتوكل عليك وحدك عند العجز عنها (اهدنا الصراط المستقيم) دلنا وأوصلنا بتوفيقك ومعونتك إلى طريق الحق في العلم والعمل ، الذي لاعوج فيه ولا زلل (صراط الذين أنعمت عليهم) بالإيمان الصحيح والعمل الصالح وثمرتهما وهي سعادة الدارين ، وتذكر إجمالا (أولئك الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين ، والشهداء والصالحين) وأن حظك من هذه الهداية لصراطهم إنما يكون بالتأسي والاقتداء بهم في الدنيا ومرافقتهم في الآخرة (وحسن أولئك رفيقاً) (غير المغضوب عليهم) بإيثارهم الباطل على الحق ، وترجيحهم الشر على الخير (ولا الضالين) عن طريق الحق والخير بجهلهم (الذين ضل سعيهم في الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا)

وأنصح لك أيها التالى للقرآن فى الصلاة وفى غير الصلاة أن تقرأه على مكث وتمهل بخشوع وتدبر ، وأن تقف على رءوس الآيات ، وتعطى القراءة حقها من التجويد والنغمات ، مع اجتناب التكلف والتطريب ، واتقاء الاشتغال بالألفاظ عن المعانى ، فان قراءة آية واحدة مع التدبر والخشوع ، خير لك من قراءة ختمة مع الغفلة . ومن المجربات أن تغميض العينين فى الصلاة يثير الخواطر ولذلك كان مكروها - وأن رفع الصوت المعتدل فى الصلاة الجهرية ولا سيما صلاة الليل يطرد الغفلة ويوقظ راقد الحشية وإعطاء كل أسلوب حقه من الاداء والصوت يعين على الفهم ويستفيض ما غاض بطول الغفلة من شآبيب الدمع (وَلاَ تَجْهَرْ بِصَلاَتِكَ وَلاَ تُخَافِتْ بِهَا وَابْتَغِ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلاً) وراجع بحث تأثير التلاوة فى أول تفسير سورة الاعراف فى الكلام على الحروف المفردة .

العلاوة الرابعة

﴿ معارضة نصرانية سخيفة . للفاتحة الشريفة ﴾

عرف كل من ذاق طعم البلاغة العربية من مؤمن وكافر أن القرآن أبلغ الكلام وأفصحه ، لم يكابر فى ذلك مكابر ، ولم يجادل فيه مجادل ، وأن الفاتحة من أعلاه فصاحة وبلاغة وجمعاً للمعانى الكثيرة فى الألفاظ القليلة ، واشتمالا على مهمات الدين من صفات الله التى تجذب قلب من تدبرها إلى حبه ، وتنطق لسانه بحمده ، وتعلى همته بتوحيده ، وتهذب نفسه بمعانى أسمائه وصفاته ، وإحاطة ربوبيته وملكه ، وتذكره يوم الدين الذى يجزى فيه على عمله ، وتوجه وجهه إلى السير على الصراط المستقيم فى خاصة نفسه ، وفى معاملة الله ومعاملة خلقه ، وتذكره بالقدوة الصالحة فى ذلك باضافة الصراط الذى يتحرى الاستقامة عليه ويسأل الله توفيقه دائماً له ، إلى من أسبغ الله عليهم نعمه ، ومنحهم رضوانه ، وجعلهم هداة خلقه بأقوالهم ، وأسوتهم الحسنة فى أفعالهم ، ومُثُل الكمال فى آدابهم وأخلاقهم ، من النبيين والصديقين ، والشهداء والصالحين ، وتحذره من شرار الخلق ، الذين يؤثرون الباطل على الحق ، ويفضلون الشر على الخير على

علم منهم بذلك ، وهم المغضوب عليهم — أو على جهل به كالذين ضل سعيهم فى الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا ، وهم الضالون. وهذا التحذير يتضمن حث المسلم المتعبد بالفاتحة المكررها فى صلاته على العناية بتكميل نفسه بتحرى التزام الحق ، وعمل الخير باحكام العلم وتربية النفس ، والتمرن على العمل الصالح .

هذه السورة الجليلة التى ذكرناك أيها القارىء بمجمل مافصلناه فى تفسيرها يزعم أحد دعاة النصرانية فى هذا العصر أنها بمعزل من البلاغة بأن كل ما بعد الصراط المستقيم فيها (حشو وتحصيل حاصل) وماقبله يمكن اختصاره بما لايضيع شيئا من معناه ، كما فعله بعضهم

قال هذا القول داعية من المبشرين المأجورين من قبل جمعيات التبشير الإنكليزية والاميركانية فى كتاب لفقه فى إبطال إعجاز القرآن بزعمه ، بل أنكر بلاغته من أصلها قال :

« وما أحسن قول بعضهم : إنه لو قال : الحمد للرحمن ، رب الأكوان ، الملك الديان لك العبادة وبك المستعان ، اهدنا صراط الإيمان . لأوجز ، وجمع كل المعنى وتخلص من ضعف التأليف والحشو والخروج عن الردىء كما بين الرحيم ونستعين » اه

أقول : لقد كان خيراً لهذا المتعصب المأجور لإضلال عوام المسلمين على شرط أن لايذكر اسمه فى كتيبه ، ولا يفضح نفسه بين قومه أن يختصر لمستأجريه آلهتهم وكتبهم التى صدت جميع مستقلى

الفكر من أقوامهم وشعوبهم عن دينهم — بل صدت بعضهم عن كل دين ، فان اختصار الدرارى السبع فى السماء أهون من اختصار آيات الفاتحة السبع فى الأرض . وحسب العالم من فضيحته إيراد سخافته هذه ، وتشهيره بها لو كان حياً يمشى بين الناس .

وأما العامى الجاهل . الذى قد يغتر بقول كل قائل ، ولا سيما إذا كان فى الطعن بغير دينه ، فربما يحتاج إلى التنبيه لبعض فضائح هذا الاختصار ، و إن كانت لاتخفى على أولى الأبصار ، ونكتفى منه ببضع فضائح بالاجمال يمكن للذكى بسطها وزيادتها فنقول :

(١) إن أول شىء اختصره هذا الجاهل المتعصب وجعل ذكره مطعنا فى فاتحة القرآن اسم الجلالة الاعظم (الله) الذى لايغنى عنه سرد جميع أسماء الله الحسنى !! فانه هو اسم الذات ، الملاحظ معه اتصاف تلك الذات بجميع صفات الكمال إجمالا

(٢) إنه اختصر اسم الرحيم وقد بينا فائدته ، وان اسم الرحمن لايغنى عنه ، وأنى لمثله أن يعلمه ؟ و يراجع الفرق بينهما فيما تقدم وحسبك منه أنه هو الدال على حظ العبد من رحمة ربه

(٣) إنه استبدل الأكوان بالعالمين وليس فى هذا اختصار ، وإنما فيه استبدال ، الذى هو أدنى بالذى هو خير وأولى ، فان الأكوان جمع كون ، وهو فى الأصل مصدر لايجمع ، وله معان لا يصح إضافة اسم الرب إليها منها الحدث والصيرورة والكفالة و يطلقه عرب الجزيرة على الحرب لعلهم لايستعملونه فى غيرها ، وأما

العالمون فجمع عالم، وفى اشتقاقه التذكير بكونه علامة ودليلا على وجود خالقه، وفى جمعه جمع العقلاء تذكير للقارىء بما فى كلمة الرب من معنى تربيته جل جلاله وعم نواله للأحياء ولا سيما الناس، وكونهم يشكرونه عليها بقدر استعمال عقولهم، ولذلك قال بعض الأعلام: إن لفظ العالمين عام مستعمل هنا فى الخاص، وهو عالم البشر وراجع سائر تفسيره المتقدم.

(٤) إنه استبدل كلمة « الديان » بكلمة (يوم الدين) وهى لا تقوم مقامها ولا تفيد ما فيها من المعانى المطلوبة لذاتها، فان للديان فى اللغة معاني منها القاضى والحاسب أو المحاسب والقاهر، وغاية مايفيده وصف الرب بأنه حاكم يدين عباده ويجزيهم، وأما يوم الدين فانه اسم ليوم معين موصوف فى كتاب الله بأصاوف عظيمة هائلة، يحاسب الله فيه الخلائق ويحكم بينهم ويجزيهم، والإيمان بهذا اليوم ركن من أركان الدين وإضافة ملك ومالك اليه تفيد أن الأمر كله فى ذلك اليوم له وحده فلا يملك أحد لأحد فيه شيئا، من نفع ولا من كشف ضر، كما تقدم تفصيله فى تفسير الآية - فاستحضار هذه المعانى فى النفس له من التأثير المقوى لعقيدة التوحيد، المرغب فى العمل الصالح المرهب الزاجر عن الشر، ماليس لاسم الديان وحده، ويكفى الانسان فى الجزم بهذا مشاورة فكره، ومراجعة وجدانه، وإن لم يكن يعلم من فنون البلاغة شيئا، وهل لهذا المبشر المتعصب

فكر ووجدان ، يهديه إلى ما يجهل من بلاغة القرآن ؟

(٥ و ٦) إنه اختصر قوله تعالى (إياك نعبد وإياك نستعين) بقوله هو : لك العبادة وبك المستعان. وهو أغرب ماجاء به وسماه إيجازا ، فانه استبدل أربعاً بأربع ، ولكنها أطول منها بزيادة حرف ، وتنقص عنها فى المعنى ، فأين الإيجاز ؟ إنه مفقود لفظا ومعنى .

إذا أراد بقوله: لك العبادة - إنها كلها له تعالى فى الواقع ونفس الأمر ، فالجملة غير صحيحة لأن الذين لا يعبدونه وحده من البشر هم الأكثرون ، ومنهم النصارى قوم الطاعن فى دين التوحيد الأقوم (الإسلام) وكتاب التوحيد الأعظم (القرآن) المبدلين لآية التوحيد البليغة . وإن أراد أن العبادة مستحقة لله تعالى وحده فالمعنى صحيح ولكنه لا يدل على أن القارىء ولا واضع الجملة من القائمين بهذا الحق له تعالى . وأما « إياك نعبد » فانها تفيد عرض عبادة القارىء مع عبادة جميع المؤمنين الموحدين عليه جل جلاله وتقربهم إليه بأنهم يعبدونه ولا يعبدون غيره

وأحيلك فى الفرق بين تأثير هذا وذاك على الوجدان الذى ذكرنك به فى النقد الذى قبله . دع مافى عرض المؤمن عبادته واستعانته على ربه فى ضمن عبادة جميع المؤمنين واستعانتهم من

ملاحظة أخوة الإيمان وتكافل أهله ، ومن هضم الفرد لنفسه ورجاء القبول فى ضمن الجماعة ، وغير ذلك مما يعلم من تفسير الآية .

ومثل هذا يقال فى مسألة الاستعانة ، ويمكن الزيادة عليه من جهة المعنى ومن جهة اللفظ ، ومنه اختياره المصدر الميمى الذى هو صيغة اسم المفعول (المستعان) على المصدر الأصلى وهو الاستعانة المناسب للفظ العبادة ، ومن جهة ارتباطه بما بعده فان طلبنا للهداية من الاستعانة التى أسندناها إلى أنفسنا .

(٧) استبداله « صراط الإيمان » بالصراط المستقيم ، وهذا أعم منه وأشمل ، لأنه يشمل الإيمان والإسلام والإحسان ، من العقائد والعبادات والآداب ، مع وصفه بالمستقيم الذى لاعوج فيه ، فان بعض الطرق الموصلة إلى المقاصد التى يسمى سالكها مهتدياً إلى مقصده فى الجملة ، قد يكون فيها عوج يعوق هذا السالك ، والمستقيم هو أقرب موصل بين طرفين فسالكه يصل إلى مقصده فى أسرع وقت ، كذلك الطرق المعنوية منها الموصل إلى الغاية وغير الموصل ، ومن الموصل مايوصل بسرعة لعدم العائق ، وما يعترى سالكه الموانع ، فيعوزه اقتحام العقبات ، واتقاء العثرات .

(٨) إن وصف الصراط المستقيم بكونه الصراط الذى سلكه خيار عباد الله المفلحين ، من النبيين والصديقين والشهداء

والصالحين ، مذكر لقارئه بأولئك الأئمة الوارثين ، الذين يجب التأسى بهم ، والسعى للانتظام فى سلكهم ، والتصريح بكونه غير صراط المغضوب عليهم من المعاندين للحق ، وغير الضالين الزائغين عن القصد ، مذكر للقارىء بوجوب اجتناب سبلهم ، لئلا يتردى فى هاويتهم .

الصلاة الربانية للنصارى

أين من هذه المقاصد السامية الهادية إلى تزكية النفس واعدادها لسعادة الدنيا والآخرة ، صيغة الصلاة فى ملة هذا المختصر المستأجر ، وهى كما فى إنجيل متى (٦ : ٩ ـ ١٣) « أبانا الذى فى السموات ، ليتقدس اسمك ، ليأت ملكوتك ، لتكن مشيئتك ، كما فى السماء كذلك على الأرض ، خبزنا كفافنا اعطنا اليوم ، واغفر لنا ذنوبنا كما نغفر نحن أيضاً المذنبين إلينا ، ولا تدخلنا فى تجربة ولكن نجنا من الشرير آمين » اه زاد فى نسخة الأميركان « لأن لك الملك والقوة والمجد إلى الأبد » وجعلوا هذه الزيادة بين علامتى الكلام الدخيل هكذا ( ) فمن ذا الذى زادها على كلام المسيح ؟ .

قد يقول لهم من لا يؤمن بأن هذه الصيغة منقولة نقلا صحيحاً عن المسيح عليه السلام ، أو من لا يؤمن به نفسه : إنها صلاة ليس فيها من الثناء على الله تعالى ما فى فاتحة المسلمين ولا بعضه

وطلب تقديس اسم الأب، وإتيان ملكوته تحصيل حاصل ؛ فهو لغو لا يليق بالعاقل ، وذكره بصيغة الأمر باللام غير لائق — إن لم نقل فى انتقاده ما هو أشد من ذلك — وأبعد من ذلك عن اللياقة والأدب مع الرب تبارك وتعالى طلب كون مشيئته على الأرض كمشيئته فى السماء ، وكونها بصيغة الأمر باللام أيضا ، فمشيئته تعالى نافذة فى جميع خلقه من سمائه وأرضه بالضرورة فلا معنى لطلبها ، وطلب المساواة بين السماء والأرض فيها إن أريد به من كل وجه فهو تحكم لا يخفى ما يترتب عليه .

وأما طلب الخبز الكفاف فى كل يوم بصيغة الحصر فهو يفيد أن كل همهم وكل مطلبهم من ربهم ولو لدنياهم هو الخبز الذى يكفيهم ، وهو مطلب حقير ، فأين هذا من طلب الصراط المستقيم الموصل إلى سعادة الدنيا والآخرة على أكمل وجه ، وهو صراط خيار الناس دون شرارهم ؟ .

وأما طلب المغفرة فهو على كونه يطلب منه تعالى دون غيره ينتقد منه تشبيه مغفرة الرب الكريم الرحيم بمغفرة الطالب المذنب المسىء إليه من وجهين (أحدهما) أن مغفرة الله لعبده أجل وأعظم وأعم من مغفرة العبد لمثله (ثانيهما) أن الذى يغفر لجميع المسيئين إليه نادر فى البشر ، ومن المشاهد أن أكثر الناس يجزون على السيئة إما بمثلها ، وإما بأكثر منها ، فكيف يكلف هؤلاء بمخاطبة ربهم بالكذب عليه الذى حاصله أنهم يطلبون أن لا يغفر لهم ،

لأنهم لا يغفرون لجميع المسيئين إليهم ؟

قد يقولون نعم نحن نلتزم هذا لأن ديننا يوجب علينا أن نغفر لجميع من أذنب وأساء إلينا، ونعتقد أن ربنا لا يغفر لنا إذا لم نغفر لهم، لأن من علمنا هذه الصلاة قال بعدها (متى ٦: ١٤ فانه إن غفرتم للناس زلاتهم يغفر لكم أيضا أبوكم السماوى ١٥ و إن لم تغفروا للناس زلاتهم لا يغفر لكم أبوكم أيضا زلاتكم)

فنقول: هذا التعبير يدل على وجوب مغفرة جميع الذنوب لجميع المذنبين عامة كانت أو خاصة، فأين منكم يامعشر النصارى من يفعل ذلك ؟ وهل يوجد فى الألف أو الألوف منكم واحد كذلك ؟ ألسنا نرى أكثركم ومن تعدونهم أرقاكم وتفتخرون بهم كالإفرنج لا يغفرون لأحد أدنى زلة ؟ بل لا يكتفون بعقاب من يسيء إلى أحد منهم إذا كان من غيرهم بمثل ذنبه وإنما يضاعفون له العقاب أضعافا. بل ينتقمون من أمته كلها إذا كانت ضعيفة لا يمكنها أن تصدهم بالقوة، فهم لا يمنعهم من الجزاء على السيئة بأضعافها من السيئات ولا من ابتداء الظلم والعدوان إلا العجز.

بل الأمر شر من ذلك: إن كل أمة من هذه الأمم النصرانية تربى أولادها على عداوة غيرها حسداً و بغيا، وتنفق جل مازاد عن المعيشة من ثروتها لاعداد وسائل التقتيل والتدمير لجيرانها وغيرهم، أفلا يستحيون من الله أن يخاطبوه بهذه الصلاة كاذبين عليه ؟ أما إنهم لو عرفوه وآمنوا به لاستحيوا منه. اه

تفسير سورة العصر

للأستاذ الامام أحسن الله جزاءه

بسم الله الرحمن الرحيم

وَالعَصْرِ . إِنَّ الانْسَٰنَ لفِى خُسرٍ . إِلَّا الذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوْا بِالحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبرِ

المرجح أن هذه السورة من المكيات ، وقد ورد عن الشافعى فيها أنه قال : لو لم ينزل إلا هذه السورة لكفت الناس. وفى رواية عنه : لو تدبر الناس هذه السورة لكفتهم . وصح أن الصحابة رضى الله عنهم كانوا إذا اجتمع اثنان منهم لم يتفرقا حتى يقرأ أحدهما على الآخر هذه السورة إلى آخرها، ثم يسلم أحدهما على الآخر وقد ظن الناس أن ذلك كان للتبرك وهو خطأ، و إنما كان ليذكر كل واحد منهما صاحبه بما ورد فيها خصوصاً من التواصى بالحق والتواصى بالصبر، حتى يجتلب منه قبل التفرق وصية خير لو كانت عنده .

جرت سنة الله فى كتابه أن يقسم أحيانا بشىء من خلقه، أو بشأن من شؤونه لينبه الناس إلى ما أودع فيه من الحكمة وأنهم إن كانوا قد نسبوا إليه شيئاً من الشر ، أو ظنوا فيه ضربا من السوء فهم مخطئون ، فان السوء والشر ليسا فى هذه

الأشياء ، وإنما هذا فى نفوس المستعملين أو المعتقدين ، وقد كانت أديان يظن أهلها أن هذا الكون الزمانى وما فيه كون شر وفساد ، ومن الواجب على طلاب السعادة أن يحقروه وأن يفروا من طيباته ويجردوا نفوسهم إلى عالم آخر فوق عالم الكون والفساد . فجاء الكتاب المبين يبين لهم سوء فهمهم عن الله . ومن طرق تنبيههم إلى خطأهم تلك الأساليب التى جاءت فى القسم ، ووردت فى الكتاب . أراد أن يكشف لهم أن هذه الأشياء من حكمة الله بالمنزلة التى تبلغ أن يقسم الله بها كأنها مما يعظمه الله ، وناهيك بذلك الذى يعظمه خالق كل شىء ، ووجود كل موجود الذى لا وجود لشىء إلا منه .

العصر إما القطعة المعروفة من الدهر وهو الزمن الذى يعيش فيه المتكلم مع غيره سواء قدر بعدد من السنين كمئة سنة مثلا أم لم يقدر ، وإما الوقت المعروف من النهار ما بين الظهر والمغرب ، وكل منها تصح إرادته . وقد اعتاد الناس سب الأول ، فكل يشتكى من عصره ، ويقول : هو عصر جهالة ونذالة ، ونقص مروءة ، وخبث طوية ، ورداءة عمل ، وينسبون ما شاءوا من الخير إلى ما كان قبل عصرهم من العصور ، فأراد الله أن يزعج نفوسهم عن مثل هذا الاعتقاد بأن أقسم به ليدهش عقولهم بتعظيم ما ألفوا تصغيره ، ورفع قدر ما اعتادوا تحقيره ، والعصر بالمعنى الثانى كان الوقت الذى يجتمع فيه الأعطال من العرب

قريش وغيرها اما عند الحرم أو فى مواضع أخرى من منتديات الأحياء ويخوضون فيما لاخير فيه من غيبة أو هزء وسخرية ، أو لغو من الحديث ملهٍ عن جد العمل ؛ فوقر فى نفوسهم أن ذلك الوقت نفسه هو قرارة السوء ومجتمع الشر ، فدفع الله ذلك عن الزمان إليهم ، وعلمهم أن الوقت نفسه بمنزلة من الشرف يصلح معها لان يقسم به خالق السموات والأرض ، فكان عليهم أن يستعملوه فيما يناسب هذه المنزلة ويشغلوه بطيبات الأعمال فيخلصوا بذلك من الخسران الذى لم يلحق بهم إلا بسيئات أعمالهم .

إنما ورد هذا القسم — على أى المعنيين — تأكيداً للخبر الذى أراد الله أن يسوقه إلينا وهو أن الإنسان فى خسر الخ وإنما احتاج هذا الخبر إلى التأكيد لان كثيراً من الناس يظنون ان من الأحوال والأعمال وراء ماذكر فى هذه السورة ما لا خسار فيه بل يعتقدون ان السعادة فى التخاص من عقد الإيمان ، والعتق من قيود الفضائل ، وانطلاق النفس فيما يسمونه متسع الفكر ، وحرية العمل ، بدون تحرج من رذيلة ، ولا إحجام عن فاحشة ، متى كانت تلذ للنفس فى العاجل ، وإن أدت بها إلى الهلكة فى الآجل ، وان من الأمم من يسعد وإن اتبع أفرادها أهواءهم ، وملكتهم شهوتهم ، ماداموا يكسبون المال ويوفرون على أنفسهم وسائل القوة فى زعمهم ، سواء آمنوا أم لم يؤمنوا ، عملوا الصالحات

أم لم يعملوا ، تواصوا بالحق والصبر أم لم يتواصوا ، وأمثال هؤلاء الظانين يفوق عددهم الحصر فى كل زمان ومكان .

« أل » فى الإنسان للاستغراق كما يدل عليه الاستثناء فى قوله « إلا الذين آمنوا » والاستغراق بأل فى لسان العرب ليس كالاستغراق بلفظ « كل » الذى يسور به المناطقة قضاياهم الكلية ، وليست « أل » مساوية لكل التى تضاف إلى النكرة ، ويريد بها العربى تعميم الحكم فى جميع أفراد الجنس ، وإنما يراعى فى « أل » استغراق المعهود عند المخاطبين لانها فى لسانهم للعهد ، وتعريف الجنس إما فى فرد أو أفراد ، ولن تفارق العهد فى حال من الأحوال ، وكذلك التى يسميها النحاة العهد الذهنى ، ويتحيرون فى الفرق بينها وبين النكرة ثم يقول من لا يعرف خصائص اللسان منهم : إن الفرق فى اللفظ واجراء أحكامه ، وأما المعنى فلا فرق فيه ، وهو وهم فاسد ، فان قول الرجل لعبده : اشتر اللحم من السوق : لا يفهم منه أى لحم فى الكون بأسره ولا أى سوق فى العالم باجمعه ، ولكن قد عهد السيد نوعا خاصاً تعود العبد شراءه وأسواقا خاصة هى أسواق المدينة التى يقيم فيها وإن لم يتعين أحدها ، فالعهد والتعريف به لم يفارقها ، والفرق بين المعنى معها والمعنى فى النكرة واضح لمن يعرف خصائص اللسان .

والإنسان : الذى تجرى عليه أحكام الإنسانية ويحدث عنه فى مثل هذه الشؤون : هو من بلغ سن الرشد عاقلا يميز بين

الخير والشر ، وليس يخطر بالبال عند التخاطب فى مثل هذا المقام الصبيان غير المكلفين ولا المجانين . ولو أتى بلفظ « كل إنسان » لشمل ذلك . ولا تؤدى « أل » مؤدى « كل » إلا بقرينة . فالاستغراق فى الآية على حقيقته ، وهو شامل لجميع أفراد المكلفين من الناس ، سواء كانوا ممن بلغتهم رسالات الأنبياء أم ممن لم تبلغهم كما سيأتى بيانه :

(والخسر) فى اللغة يطلق على الضلال وعلى الهلاك وعلى النقص ، وكل ما جر عليك عملك من شر فهو خسر لك وخسران وخسارة لأنك كنت تبتغى بعملك الفائدة والثمرة الطيبة تجنيها منه ، فاذا جر عليك ما كنت تتوقاه ، وحرمك ما كنت تتوخاه ، فقد خسرت لأنك ضللت فى القصد ، ودخل النقص عليك فى بغية نفسك ، وأتاك التعب من حيث تطلب الراحة ، وكل ما آلمك وأشقاك وأقلق نفسك ، واضطرب له قلبك ، فهو نقص فى لذتك . و إذا عملت عملا وأنت تقصد به سكون القلب وهناء العيش ، فحدث انزعاج النفس ، ونقص الطمأنينة ، فقد ضللت به فى القصد ، وخسرت فى السعى ، والخسر فى الآية مطلق لا يتقيد بدنيوى أو أخروى ، فكل مكلف ممن لم يتصف بالأوصاف الآتية (فى السورة) يصيبه حظ من الخسران فى هذه الحياة أو فى التى بعدها ، لأن السورة مكية كما قلنا والخطاب في المكيات كانت تراعى فيه العمومات فى كثير من الآيات كما

تراه فى سورة (والليل إذا يغشى) مثلا . والخسر بفقد الراحة وطمأنينة النفس

(الإيمان) فى هذه السورة مطلق كذلك لم يتقيد بشيء كما ترى ، ولكنه محمول على ما هو معروف عند المخاطبين ، والأمس بعموم الخطاب أنه اذعان النفس لليقين بالفرق بين الخير والشر ، والفضيلة والرذيلة ، و بأن على الوجود مسيطرا يرضى الخير ولا يرضى الشر ، ويحب الفضيلة ويكره الرذيلة وأن من رحمته أن يخص من شاء من خلقه باطلاعهم على شيء من سره ، وأمرهم بأن يبينوا للناس ما التبس عليهم من مذاهب أعمالهم ، و يعرفوهم مداخل الاهواء الفاسدة إلى قلوبهم ، ومسالك الدلائل الصحيحة إلى عقولهم ، فيقبلوا على هذه و يتلقوا ما يساق إليهم منها ، و يسدوا على أنفسهم تلك و يقيموا من العزم حارسا على نوافذها يمنع ما عساه يهوى إليها ، وهذا الإيمان هو المدلول عليه بقوله تعالى فى سورة (والليل إذا يغشى) : (وصدق بالحسنى) : وليس الإيمان هاهنا هو التصديق المقرون بالاذعان لتفصيل الأحكام الواردة فى شرعنا خاصة ، فان الحكم إنما هو على الانسان فى جميع أمكنته وأزمنته ، لايختص بأمة محمد صلى الله عليه وسلم ، بل يعم الأمم جميعها ماضيها وحاضرها ومستقبلها ، فالكلام فى السورة لتقرير حكم عام من أحكام الانسان فى نفسه ، و إنما تدخل رسالة النبى صلى الله عليه وسلم فى حكم هذا العام ، ويكون

من بلغته تلك الرسالة ولم يصدق بجميع ما ورد به القطعى سندا ودلالة من نصوصها خاسرا فى الدنيا والآخرة بحكم هذا النص من جهة عمومه وبالنصوص التفصيليه الأخرى التى وردت فى كثير من سور القرآن

وليس الإيمان كذلك مجرد ما يسميه الناس اعتقادا وان كان بمحض التقليد ، لا عمل لعقل ولا لوجدان فيه ، فان مثل هذا الإيمان قد خسرت معه أمم كثيرة ممن صدقت بمرسلين صادقين وأنبياء هادين ، وإنما المراد منه ذلك التصديق المقرون بطمأنينة النفس ، وخضوع القوى لحكم ما آمن به

(إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله ثم لم يرتابوا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم فى سبيل الله أولئك هم الصادقون) ذلك الإيمان هو الذى كان الله ولايزال ينوط به النجاة من الخسران فى الدنيا والآخرة . وسيأتى إيضاح ذلك أيضاً

أما هذا الذى يتلقاه الناس من أفواه آبائهم ، فينشأ ابن المسلم لا يفهم معنى لما يعتقد أو لما يقول أبوه وإنما ينطق كما ينطق وتأخذه الحمية [1] لما يراه يحمى له لا يفهم لذلك معنى ، ولا يجد لنفسه فيه بصيرة ، كما ينشأ ابن النصرانى أو ابن اليهودى أو ابن المجوسى على مثل ذلك — فهو مما لا يعتد الله به ، وإنما يعتد الله

(١) الحمية : الغضب والأنفة ، وحمى يحمى وزان رضى يرضى.

بتلك السكينة الروحية التى تشعر النفس بهبطها إليها، وذلك العقد القلبي الذى يعرف القلب مكانه منه. هذا هو الإيمان الذى يليق أن يسمى حياة للنفس يعدها للشعور بجميع مايلزم له، وما يصح أن يحمل عليه. أما ذلك الذى سموه إيمانا وهو ليس به فهو مما يقتل النفوس ويهلك الأرواح، ويسلك بها مسالك الجهل، وينتهى بها إلى مهاوى الهلكة.

(وأما الصالحات) فى هذه السورة فهى تلك الأعمال التى عرفت عند الناس بأنها من أعمال الخير النافعة لخاصتهم وعامتهم، المتفقة مع مصالحهم؛ التى لاتنكرها الأذواق السليمة، ولا تجافيها الطباع المستقيمة، ومنها ما هو من ضروب الشكر لمفيض الخير والاحسان على الخلائق أجمعين، كالعبادات الصحيحة التى جاء بها كل دين صحيح فى أى أمة من الأمم التى دعيت إلى الأخذ بذلك الدين زمن العمل بشريعتها. ومنها ماهو من ضروب البر كبذل الأموال فى طرق الخير والسعى فى إغاثة المنكوبين، واقالة العثار، والعدل فى الحكم، وانقاذ المظلوم من الظلم، ونحو ذلك مما يطول تفصيله. ومنها فضائل الملكات التى تصدر عنها الصالحات كالأمانة والعفة والانصاف والمحبة والاخلاص، وأمثال ذلك.

كل هذا يسمى صالحات، وإن كان منه ما هو بدنى يتعلق به العمل الظاهر، ومنه ما هو نفسى يتعلق به العمل الباطن، والعمل يتعلق بالملكات لأنها إنما تحصل عادة بترويض النفس عليها،

اليوم ، إذا دققت النظر وجدت السبب فيه ضعف الصبر فإن من عرف بابا من أبواب العلم لايجد من نفسه صبراً على التوسع فيه ، والتعب فى تحقيق مسائله ، و ينام على فراش من التقليد هين لين لا يكلفه مشقة ولا يجشمه تعبا ، و يسلى نفسه عن كسله بتعظيم من سبقه ، ولو كان عنده احترام حقيقى لسلفه لاتخذهم أسوة له فى عمله فحذا حذوهم ، وسلك مسلكهم ، وكلف نفسه بعض ماحملوا أنفسهم عليه ، واعتقد كما كانوا يعتقدون أنهم ليسوا بمعصومين

ثم هو إذا تعلم لايجد صبراً على مشقة دعوة الناس إلى علم مايعلم ، وحملهم على عرفان مايعرف ، ولا جلداً على تحصيل الوسائل لنشر ماعنده ، بل متى لاقى أول معارضة قبع فى بيته ، وترك الخلق للخالق كما يقولون . يجلس الطالب للدرس سنة أو سنتين ثم تعترضه مشقة التحصيل فيترك الدرس أو يتساهل فى فهمه ، أو يكل والده من الإنفاق عليه فيصرفه إلى حرفة أخرى يظنها أربح له فينقطع عن الطلب ، و يذهب فى الجهل كل مذهب ، وكل هذا من ضعف الصبر

يبخل البخيل بماله ، و يجهد نفسه فى جمعه وكنزه ، وتعرض له وجوه البر فيعرض عنها ، ولا ينفق درهما فى شىء منها ، فيؤذى بذلك وطنه وملته ، و يترك الشر والفقر يأكل قومه وأمته ، ولو

نظرنا إلى ماقبض يده لوجدناه ضعف الصبر ، ولو صبر على محاربة خيال الفقر اللائح فى ذهنه يهدده بالنزول به ، لما أصيب بذلك المرض القاتل له ولأهله

يسرف المسرف فى الشهوات ، ويتهتك المتهتك فى المنكرات ، حتى ينفد المال ، وتسوء الحال ، ويستبدل الذل بالعز ، والفقر بالغنى ، ولا سبب لذلك إلا ضياع صبره فى مقاومة الهوى وضبط نفسه عن مواقع الردى . ولو صبر فى مجاهدة تلك النزغات لما كان قد خسر ماله ، وأفسد حاله

وهكذا لو أردت أن أعد جميع الرذائل وأبحث عن عللها الأولى لوجدتموها تنتهى إلى ضعف الصبر أو فقده . ولو سردت جميع الفضائل وطلبت ينبوعها ، الذى تستمد منه حياتها ما وجدت لها ينبوعا سوى الصبر . أفلا يكون جديراً بعد هذا بأن يخص بالذكر ؟.

(فالحق) حياة العلم ، ومستنام السكينة ، ومطمأن العقل ، ومستقر الراحة للنفس ، و (الصبر) مستمد الفضائل ، ومدحرة الرذائل ، ومساك الصالحات ، وملاك الحسنات ، فجدير بهذين الأصلين الجليلين أن يخصا من بين أعمال الانسان بالإشادة بذكرهما والتنويه بفضلهما ، ولفت النفوس اليهما خاصة ، لتبدأ باحرازهما فتصلح بهما أعمالها كافة .

ربما تبين الناظر فيما ذكرنا وجه الحق فى هذا الخبر الكريم

وهو أن الانسان فى خسر إلا من استكمل لنفسه هذه الصفات التى ذكرت ، ولكننا مع ذلك نزيده توضيحا

الإيمان بالمعنى الذى بيناه طور من أطوار النفوس البشرية ارتقت اليه ، لتتخلص من سوء حال كانت عليه، النفوس البشرية فى طموحها إلى الشهوات ، هى على نحو ما عليه العجماوات ، مع امتياز فى قوة استحضار الفائت ، وتمثيل الآتى ففاقت سائر نفوس الحيوان فى الحرص على نيل مايلذ لها مما ألفته ، وادخار مايوفر لها أضعافه فيما يستقبل من الزمن . فكل نفس تستعمل قواها ، فى تحصيل مايرمى إليه هواها . فما أعظم الشر تتصوره فى أشخاص من البشر لاهم لواحد منهم إلا فى تحصيل مايتخيله لذيذا أو نافعا ، و إتلاف مايتمثله مؤلما أو ضارا ، ثم ينظر إلى ذلك فى يد غيره فيثب عليه ليستخلصه منه لنفسه ، أو يتلفه لزعمه أنه ضار به ، ولا رادع للمعتدى إلا ما يكون من المعتدى عليه ، ولا يصدق أحد منهم بأصل للخير أو للشر أو للفضيلة أو للرذيلة ، و إنما الخير عند كل واحد مايلذه أو ينفعه سواء آلم غيره أو أضره ، أو لم يكن كذلك .

أى شقاء يصيب النفوس البشرية إذا خلت من الشعور بذلك الاصل العظيم أصل التمييز بين الخير والشر ؟ فمن لم يكن مؤمنا بهذا الأصل ولم يصدق بالحسنى كما ورد فى سورة الليل فقد خسر خسرا ناميبنا ، الفرد الواحد فى ذلك ينال نصيبه من الضلال

وسوء الحال إذا خلا قلبه من ذلك الشعور ، فانه يخبط فى معاملته لمن معه على غير هدى ، فيصيبه منهم مايصيبه من الأذى ، ثم هو لا يزال قلق البال حليف البلبال ، كما لا يخفى . ونصيب الأمة من ذلك أعظم من نصيب الفرد بما لاحد له .

من لم يؤمن بالقوة العظمى ، والقدرة العليا ، والحكمة السامية والسيطرة القاهرة التى ينتهى اليها كل عمل فى الوجود ، وبأن جميع ماعداها فهو فى قبضتها فقد قصر نظره ، وضعف بصره ، وعظم وهمه ووهى معتمده ، يرى كل قوة من القوى التى بين يديه كأنها مصدر وجوده ، ومصرفة أموره ، وإذا أصابه شىء من الشر لا يعرف له سببا ، تخيل السبب شيئا من تلك القوى كما يخطر بباله ، أو أصاب شيئا من الخير بدون كسب منه ، اخترع له وهمه مصدرا كما يتفق له ، فتكثر عليه الأرباب ، وتنسد فى وجهه طرق الأسباب ، ويعتمد فى شئونه على ما لا يصح الاعتماد عليه . وهذا هو منشأ ضروب الوثنية ، التى كانت سببا فى فساد العقول البشرية ، والخسران الذى نزل بأهلها أفراداً أو أمماً لا يخفى خبره على أحد ، ولا يزال ينزل بها من الخسران ما يسوء أثره إلى اليوم (١)

(١) إن خسر البشر وشقاءه بالحرب العامة منذ عشرين سنة وسوء عواقبها فى هذه السنة (سنة ١٣٥٣ هـ ١٩٣٤ م) مما لم يسبق له نظير فى تاريخ البشر

وأما من آمن بأن جميع القوى التى نراها إنما تصدر من قوة واحدة ، وهى تحت نظام تديره إرادة واحدة ، وأن من الواجب على العاقل إذا جاءه شيء من الخير أو الشر لا يظهر له سببه أن يبحث بعقله حتى يقف على السبب ؛ أو ينتهى إلى مقدر الأسباب ، فلا ريب أنه ينجو من شر ذلك الخبط ، و يخلص من ورطة ذلك الخلط و يستوى فى نظره جميع ما هو فى الكون ، وتتساوى جميع أفراده عنده فى أنها مربوبة لا يمتاز شيء منها على آخر إلا بما ميز به من الخصائص وما يكون له من الآثار . فيسكن قلبه من كل ناحية ، و يعظم اعتماده على تلك القوة الواحدة . ولا يأخذ فى أعماله إلا بما سنته له ، فيعتبر ما وضعته من نظام الأسباب والمسببات فيجرى عليه ثابت الجأش مطمئن القلب ، غير خائف من شيء بعد ما عرف من القدرة الالهية ما عرف .

من لم يؤمن بأن الحكمة السامية تقضى بأن يكون فى البشر مبشرون ومنذرون يوضحون السبل ويكشفون الحجب ، ويغمض عينيه عن النظر فى الأدلة التى تؤيد دعواهم ، يحرم حظا وافرا من المعارف التى يصعب على عقله أو يستحيل عليه أن يصل اليها بدون واسطة هؤلاء المرشدين ، و يلتبس عليه كثير من أمره وتخفى عليه طرق الصواب فى كثير من عمله فيقع فى الشر وهو

يسعى إلى الخير ويصيبه الضر من حيث كان يطلب المنفعة . وأى خسران أعظم من هذا .

من فقد الإيمان بالله على الوجه الذى بيناه فأقل مايخسره قوة العزيمة بالاعتماد على من تحيط قوته بالأكوان ، وأدنى مايفقده ركون النفس إلى سندها الاكبر عند نزول الشدائد (١) وأخف مايصيبه من الخسران تشتت الاهواء عليه واضطرابه بين دواعيها ، وحرمانه من الهادى الذى يرشده إلى الوجهة التى ينبغى أن يولى وجهه نحوها . فيظل فى حيرة لاخلاص له منها ، وأى شقاء أعظم منها ؟ والامم فى هذا الشقاء كالأفراد .

الأعمال الصالحة تتبع الإيمان الصحيح فى الأغلب غير أن من الناس من يظن أن الإيمان قول يعبر عن خيال فى النفس لا أثر له فى العمل ، أو أنه اعتقاد يتخذه الشخص مميزا له عن غيره فى جامعة من الجوامع كاعتقاد المسلم بأنه من أهل التوحيد ، وأنه من أمة محمد ﷺ ليتميز بذلك عن غيره من الملل ،

---

(١) يؤيد هذا ما ثبت من أن الجنود المتدينة أشجع وأثبت من الملحدة أو ضعيفة الدين ، وقد كتبت الجرائد الاوربية هذه الملاحظة فى أثناء حرب انكلترا والترانسفال ، ومن ذلك اتفاق العارفين على أن جيش الدولة العلية فى مقدمة جيوش العالم شجاعة وصبراً على المكاره (هذا وما) .. فكيف لو رجعت إلى ذكر الصحابة والتابعين اه من حاشية المنار

وكاعتقاد كل ذى دين بما يظنه من دينه ، ومع ذلك لا يأخذ نفسه بالعمل على سنن ذلك الدين ، وهذا الإيمان لا ينجى صاحبه من الخسران ، بل لابد فى النجاة من العمل الصالح ، وقد بينا الأعمال الصالحة فيما سبق إجمالا ، ولا خسار أعظم من خسار يحل بمن لم يأت تلك الأعمال سواء كان ذلك فى الدنيا أو الآخرة .

وببيان الخسران بذلك المعنى الذى فهمته تعلم أنه عام فى كل من فقد الإيمان وترك العمل الصالح سواء كان ممن بلغته دعوة الأنبياء وحاد عن سننهم أم كان ممن يسمونه (أهل الفترة) أم ممن لم تبلغهم إلى اليوم دعوة سواء قلنا بنجاة هؤلاء فى الآخرة أم لم نقل ، فإن الخسر فى الآية الكريمة ليس محدوداً بخسر الآخرة وخسر الآخرة ليس محدودا بالأبدى منه ، فصريح الآيات أن من لم يكن من المؤمنين أو لم يعمل الصالحات فهو خاسر أى ضال أو واقع فى شقاء على ما سبق بيانه . ولا ريب فى عموم ذلك لجميع أصناف البشر فى أى زمان وفى أى مكان وعلى أى حال .

*

* *

بعد أن ذكر ركنين من أركان النجاة من الخسران فى الأمم والأفراد جاء بركنين آخرين لا يتم كل منهما إلا بتعاون الأفراد ولا يمكن لفرد واحد أن يستقل به ، وهما ركنا التواصى بالحق والتواصى بالصبر على النحو الذى بينا . فان التواصى لا يكون إلا

من متعدد فلا نجاة من الخسران إلا بأن يقوم الأفراد من الأمة مهما عظم عددهم بأن يوصى كل واحد منهم من يعرفه من الباقين بأن يطلب الحق ويلتزمه، وأن يأخذ بالصبر فى جميع شئونه. فلو أن شخصا واحدا قام بذلك وأوصى غيره ولكن الباقين لم يقوموا بمثل ماقام به لحل الخسر بالجميع فى الدنيا لامحالة فان الأمة إذا غفل معظمها عن الحق والدعوة إليه ووهن الصبر فى نفوسهم فلا محالة يستولى عليها الباطل، وتضعف منها العزائم فيسوء حالها، وترمى بنفسها فى الهلكة (واتقوا فتنة لا تصيبن الذى ظلموا منكم خاصة) وأما فى الآخرة فالخسار إنما يحيق بمن لم يوص أو من لم يسمع الوصية ولم يقبلها. فان كان الموصى لم يحصل من وسائل التقريب مايحتاج إليه، وكان نفور صاحبه من طريقة نصحه ولو سلك غيرها لقبل منه كان الخسار فى الآخرة عليه كذلك وأى نجاة لأمة يسكت أبناؤها على المنكر يفشو بينهم ولا تتحرك نفوسهم إلى التناهى عنه، والمنكر مفسدة الأفراد ومقراض الأمم؟؟

التواصى بالحق والتواصى بالصبر يدخل فيهما الأمران — الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر - لأن من أوصى بالحق ودعا إليه لا يتم له ذلك حتى ينهى عن الباطل ويصد عنه، ومن أوصى بالصبر على مشاق الأعمال الصالحة لا يكمل له ذلك حتى يبين مساوىء الأعمال الخبيثة وعواقب التفريط بترك تلك الصالحات

فقد أودع الله فى هذين الركنين - ركنى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر - جميع الأعمال والأحوال وقرر لنا أن لا نجـاة لقوم من الخسران فى الدنيا والآخرة إلا بأن يقوم كل واحـد منهم عما يجب عليه من ذلك فى القدر الذى يمكنه وعلى الوجه الذى يمكنه ، وقد أكد لنا الخبر بما أورده من القسم فليس فى الخـبر تجوز ، ولا فيما تضمنه من الأمر هوادة ، فمن الواجب على كل أمة تريد أن تنجو من الخسران أن تقوم بهذا الفرض، وهو التواصى بالخير ، والتناهى عن الشر أو التواصى بالحق والتواصى بالصبر، فإذا طرأ على عوائد الأمة أو نزل بهـا من الحوادث ما بغض إليها التناصح أو حبب إليهـا التساهل فى فريضة التواصى ، كان ذلك إنذاراً بحلول الخسار ، وتعرضا فى الدنيا للعار والدمار ، وفى الآخرة لعذاب النار .

ولا يجوز لأحد أن يتعلل بذلك التساهل إذا وقع من الأمة ويقنع نفسه بأنه عاجز عن النجاح فى نصيحته ، ولهذا يكفيه أن ينكر المنكر بقلبه ، وبذلك ينجو من الخسران الأخروى ، إن لم ينج من الخسران الدنيوى ، كما يتوهمه بعض المسلمين اليوم خصوصاً أولئك الذين عرفوا بينهم بالعلماء فقد أخطأوا الخطأ العظيم فى زعمهم أن إعراض العامة عنهم ينجيهم من العقوبة الالهية إذا لم يبذلوا النصح لهم ، ولم يبينوا لهم وجه الحق وإن أنكروه وصكوا وجـه الداعى إليه ، فقد صدق الله

وعده، وأكد خبره، ولا سبيل إلى التأويل فى أمره، ولا إلى جحد مايتلوه من أثره.

يحتج كثير من عامة أولئك العلماء بحديث «من رأى منكم منكراً فليغيره بيده، فان لم يستطع فبلسانه، فان لم يستطع فبقلبه»[1] ولكننا نقول إنه لايصح الاحتجاج به فى ترك الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، فإن تغيير المنكر عند رؤيته شىء يتعلق بأمر خاص وهو المنكر المعين الواقع من الشخص المعين، وقد يتسامح فى معاملة الشخص المعين فى حالة مخصوصة لشأن مخصوص، فان ملكا من الملوك أو أميراً من الأمراء الظالمين لا يحتمل أن يقال له: إن الأولى بك أن لا تفعل ماتفعل، أوليتك لم تفعل هذا، أوليتك فعلت هذا: فضلا عن أن يقال له: اترك هذا فانه منكر، أو افعل هذا فانه من المعروف: وربما كانت كلمة من هذا القبيل سبباً فى إتلاف نفس القائل، بسطوة ذلك الظالم، ولكن الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر لم ينحصر فى طلب تغيير المنكر فى هذه الحالة المحدودة، بل

---

(١) المنار: تتمته «وذلك أضعف الايمان» رواه أحمد وعبد بن حميد ومسلم وأبو داود والترمذى وحسنه وابن ماجه وابن حبان، وهو حجة على تاركى فريضة الامر والنهي كسلا وتعللا لانه يأمر ببذل الاستطاعة واستنفاد الطاقة فى هذه السبيل على خصوصية الموضوع كما قال الاستاذ الامام

ذلك شامل للوعظ العام فى المساجد والطرق والأسواق والمنتديات وفى أوقات الاجتماع الخاصة ، وفى الحديث مع الأصحاب والأحبة ، وفى كل حال من أحوال الاجتماع خاصة وعامة. ومثل هذا يستطيعه كل واحد من النساس على حسبه ، فلا يمكن لأحد أن يزعم أنه عاجز عن القيام بفرض الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر على الاطلاق ، لأنه لا يوجد أحد يزعم العجز من جميع الوجوه عن هذا الذى بينا ، إلا أن يكون قد بلغ من العجز غاية لا يبلغها الحيوان الأعجم.

غير أنه يجب على العلماء ومن يتشبه بهم أن يتعلموا من وسائل القيام بالواجب ماتدعو اليه الحال على حسب الأزمان واختلاف أحوال الأمم ، وأول ما يجب عليهم فى ذلك أن يتعلموا التاريخ الصحيح ، وعلم تكوين الأمم وارتفاعها وانحطاطها (١) وعلم الأخلاق وأحوال النفس ، وعلم الحس والوجدان ، ونحو ذلك مما لابد منـه فى معرفة مداخل الباطل إلى القلوب ومعرفة طرق التوفيق بين العقل والحق ، وسبيل التقريب بين اللذة والمنفعـة الدنيوية والأخروية ، ووسائل استمالة النفوس عن جانب الشر إلى جانب الخير ، فان لم يحصلوا علم ذلك كله فوزر العامة عليهم ، ولا تنفعهم دعوى العجز فانهم ينفقون من أزمانهم فى القيل والقال

---

(١) هو الذى يسمى علم الاجتماع

والبحث فى الألفاظ والأقوال ، ما كان يكفيهم أن يكونوا بحار علم ، وأعلام هدى ورشد ، فليطلبوا العلم من سبيله التى قام عليها السلف الصالح والله كفيل أن يمدهم بمعونته . أما وقد انقطعوا الى مايعجزهم عن القيام بأمره ، فلن يقبل الله لهم عذرا بل فليتربصوا حتى يأتى الله بأمره .

لو قضى الزمان بأن يكون من وسائل التمكن من الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر واشتغال الناس بالحق عن الباطل ، وبالطيب عن الخبيث ، أن يضرب الانسان فى الأرض ، ويمسحها فى الطول والعرض ، وأن يتعلم اللغات الأجنبية ليقف على مافيها مما ينفعه فيستعمله ، وما يخشى ضرره على قومه فيدفعه ، لوجب على أهل العلم أن يأخذوا من ذلك بما يستطيعون . ولهم فى سلف الأمة من القرن الأول إلى نهاية القرن الرابع من الهجرة أحسن أسوة ، وأفضل قدوة ، وكل ما يهونون به على أنفسهم مما يخالف ذلك فانما هى وساوس الشيطان ، يشغلهم بها عن النظر فى معانى القرآن ، ويحرمهم من التعرض لرحمة الرحمن .

. .

بقيت مسألة كثر السؤال عنها ، والالحاح على فى التعرض لها ، كلما ذهبت الى مكان وجدت لها حاملا ، لا يلبث أن يتوجه إلىّ سائلا ، وهى مسألة الاختيار والكسب ، ونسبه الافعال الاختيارية الى العبد أو الى خالق العبد ، ولا أنكر أن هذه المسألة

كانت من أعظم المسائل خطرا على الاسلام والمسلمين ،ولكن كان في مرور الزمان وتتابع الحوادث مايهدى الناس الى وجه الحق فيها ويرشدهم الى أن يرجعوا الى كتاب ربهم ، وهدى نبيهم.

نزوع النفوس الى الخوض في هذه المسألة ضرب من ضعف الصبر أو فقده. الوجدان يشهد والحس يشاهد أن الذى يرفع يده بالسيف ويضرب آخر فيقتله هو الذى ضربه ويقول الرائى والمخبر : إن فلانا قتل فلانا. أو ضربه أو اعتدى عليه : فنسبة الأفعال الى من صدرت عنه من العباد مما لايحتاج الى بحث ولا نظر. ثم جاء القرآن يقول (بما كنتم تعملون. وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم) وغير ذلك من الآيات حتى قال في الآية التى يحتجون بها (والله خلقكم وما تعملون) فلو سلم أن المراد مما (تعملون) العمل نفسه فقد نسب العمل اليهم وقامت أحكام الشريعة جميعا على هذا الأصل. ولو كان فعل العبد ليس له لبطل تكليفه به ، إذ لايعقل أن يدعى شخص الى مالا يقدر عليه ، وأن يكلف بما لا أثر لإرادته فيه ،ولو كان فعل القاتل ليس له لامتنع القصاص ولم تكن فيه لنا حياة. فالعقل والشرع والحس والوجدان متضافرة على أن فعل العبد فعله ،وكون جميع الأشياء راجعة الى الله تعالى، ووجود الممكنات إنما هو نسبتها اليه ولايتصور اعتبارها موجودة إلا إذا اعتبرت مستندة اليه — مما قام عليه الدليل بل كاد يصل الى البداهة كذلك ، ومثل هذا

يقال فى عظم قدرة الله تعالى وأنه إن شاء سلبنا من القدرة والاختيار ماوهبنا ، فهو أمر نشاهده كل يوم، ندبر شيئا ثم يأتى من الموانع من تحقيقه مالم يكن فى الحسبان ، ونتناول عملا ثم تنقطع قدرتنا عن تتميمه كل ذلك لا نزاع فيه ، شمول علم الله لما كان ولما يكون قام عليه الدليل ولاشبهة فيه عند المليين ، فوجب على المسلم أن يعتقد بأن الله خالق كل شىء على النحو الذى يعلمه وأن يقر بنسبة عمله اليه كما هو بديهى عنده ، و يعمل بما أمره به و يجتنب مانهاه عنه باستعمال ذلك الاختيار الذى يجده من نفسه ، وليس عليه بعد ذلك أن يرفع بصره الى ماوراءه ، فقد نعى الله على المشركين قولهم (لو شاء الله ما أشركنا ولا آباؤنا ولا حرمنا من شىء) ووردت الأحاديث متواترة المعنى فى النهى عن الخوض فى القدر وسره .

فلو صبر العبد حق الصبر لوقف عند ماحد الله له ولم ينزع بنفسه الى تعدى حدود الله التى ضربها لعباده ، ولست أحب التكلم فى هذه المسألة بأ كثر من هذا و إلا خرجت من الصابرين ، وخضت فى القدر مع الخائضين

ومن ثار به الهوس فتوهم أن علينا أن نعتقد أن العبد لافعل له فقد خالف كتاب الله ، وعصى رسول الله ، وقد أقول — واعتمادى على الله فيما أقول : إن من يقول ذلك يخرج عن دين الله ، و يعطل شرع الله ، فليحذر مؤمن بالله أن يقول ذلك ، وأسأل

الله أن يرشدنا جميعاً إلى مافيه صلاح أنفسنا وأن يوفقنا للتواصى بالحق والتواصى بالصبر بفضله وكرمه .

(سؤال مشكل وجوابه)

قد يمر بخاطر سائل أن يسأل : إذا كان هذا الذى ذكر فى هذه السورة هو حكم طبيعة الانسان فى كل فرد من أفراد المكلفين منه ، وأن من لم يكن على هـذه الصفـات فهو خاسر ضرباً من الخسران فى الدنيا أو فى الآخرة أو فيهما ، وأن من أخذ بالحظ الأوفر منها نجا من ذلك الخسران ، فما بالنا نرى من غير المؤمنين من يتمتع بالسعادة فى هذه الدنيا أمماً وأفراداً ، ونرى من المؤمنين من يغمره الشقاء أمماً وآحاداً ، و إذا شئت مثلا لذلك فانظر إلى حال اليابانيين وهم وثنيون أو حال بعض الأمم الأوربيـة التى لا يعتقد الكثير من أفرادها بالله ولا برسله ، وقارن بينهم و بين الأمم المؤمنة كالمسلمين مثلا :

فندفع عنه هذا الخاطر بأن مايراه فى بعض الأمم من ظاهر السعادة ليس إلا لمعان السراب حتى إذا جاءه وحقق أمره لم يجده شيئا . قال ماكس نوردوا فى كتابه المسمى (الأكاذيب العرفية لتمدننا) ما معناه : « إن الناس كانوا ولم يزالوا يطلبون الحق ولم يكونوا فى زمان أبعد عنه منهم فى هذا الزمان » ثم قال ماترجمته « إنك لو طرقت أى باب تسأل : هل مرت السعـادة بهـذا البيت ؟

لأجابك مجيب : إذا شئت فاطرق باباً آخر فإن السعادة لم تمر ببيئتنا» وهو يقول ذلك بعد أن ذكر ماعليه حال الأمم الاوربية جميعها ونسبته من السعادة والشقاء ، وبعد أن أجمل من وصف أحوالهم والمصائب التي تتوقع لهم، والآلام الشاغلة لقلوبهم أجمعين، مايرحمهم لأجله المقصرون عنهم،ويزهد الراغبين في مثل حالهم، ويصدهم عن اقتفاء آثارهم ، وبين سبب ذلك وأنه بعدهم عن الحق، ونزوع أنفسهم الى الباطل ، وفقدهم الصبر في طلب المال وهرولتهم خلف داعي الشهوة ، لا يعصون له أمراً ، ولايخالفون له إشارة ، ومنشأ ذلك خلو نفوسهم من الركون إلى الإله الواحد خالق الجميع ورازق الأحياء ، ومقدر الأسباب لمكاسبهم على حسب ما وهبهم من القوى والقدر . ولو اطلعت على ما أخذ اليابانيين من ذلك وما تألم له نفوسهم من الأوهام الوثنية التي ما اتصلت بروح إلا أفقدتها السكينة ، وأوجدتها الاضطراب ، صعب عليك أن تحكم بأنهم سعداء ، فاذا كان لهم شيء من السعادة فهو ببركة التواصي بالصبر أو عمل بعض الصالحات التي جعلها الله عماداً للسعادة في هذه الحياة الدنيا ، كالأمانة والصدق وارتفاع الهمة ، والأخذ بالحق في رفع الشأن ويكسب العزة .

أما حال المؤمنين - إن كانوا - فهو لا يخالف الحكم الوارد في الآيات الكريمة ، فانا لانعني ولا يعني عاقل بالسعادة وفرة المال ورفه العيش في ظاهر الأمر ، وإن كانت النفوس قلقة ، والضمائر

محترقة ، ولكن السعادة سكون النفوس وراحة الضمائر ، واطمئنان السرائر ، والرضى الحقيقي بما وصل إلى اليد ، والسعى المقارب إلى الرغيبة من سبلها المعروفة ، مع المعرفة بتلك السبل ، والاعتماد على الهادى إليها ، ولا أشك فى أنك تجد هذه الطمأنينة عند المؤمن بالمعنى الذى قدمنا فى أى أرض وجد ، وفى أى أمة ولد

وأما المثل الذى ضربته وهو جملة المسلمين فانى أقول لك ولا أخشى لوم لائم : إن من كان مؤمنا منهم وعمل الصالح وقام بفريضة التواصى بالحق والتواصى بالصبر فهو راض عن نفسه ، راض عن ربه ، سعيد وإن كان بين الاشقياء ، حكيم وإن وجد بين السفهاء ، لايعرف الشقاء إلا بما ينعكس إليه من صوره فى نفوس غيره ، وأما البقية فان كانوا خاسرين فخسرانهم جاءهم من فقد الأركان الأربعة .

أما الإيمان فلأنهم أخذوه اسما ، واكتفوا به علماً ورسما ، وورثوا عن الآباء والأمهات ، صوراً وعبارات ، ومثل عبادات ، لايحوك بصدرهم شيء من معناها ، وأوفرهم حمية على التوحيد أملؤهم من الاشراك ، تحت أسماء اخترعها وألقاب اختلقها ، كالوسيلة والواسطة وما يشبه ذلك مما لم ينزل به الله سلطانا .

وأما العمل الصالح فكيف يجتمع مع الحسد والعداوة

والكبرياء والجهل والكسل ونحو ذلك مما تراه فى عامتهم ، والأغلب من خاصتهم .

وأما التواصى بالحق والتواصى بالصبر فلم يبق له أثر بينهم ، يرون ما يرون من المنكرات ، ويحسون بما يحسون من فساد الاعتقاد وكل منهم ساكت عما يرى ويحس من الآخر كأنه لاصلة بينهما فى الدين ، وكأن لم يرد فى دينهم ما يدعوهم إلى التناصح ، ولو أن واحداً منهم نصح للآخر لقامت عليه قيامته ، وظنه محتقراً لمنزلته غامطا لحقه ، ولوجد من حذاقهم من يلومه ويقبح عمله ، وكيف لايخسر قوم هذا شأنهم ؟ ؟ .

فلو أنهم رجعوا إلى دينهم ، وأقاموا فى أنفسهم هذه الأصول الأربعة ، لرأيتهم وقد وفاهم الله وعده فى قوله (وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم فى الأرض كما استخلف الذين من قبلهم ، وليمكنن لهم دينهم الذى ارتضى لهم ، وليبدلنهم من بعد خوفهم أمناً يعبدوننى لا يشركون بى شيئاً) ولخرجوا من حكم الوعيد الذى أنذرهم الله به من قبل فى قوله (ومن كفر بعد ذلك فأولئك هم الفاسقون) . (إن الله لايغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم) والله أعلم .

(تم تفسير سورة العصر)

« للأستاذ الإمام رحمه الله تعالى »

(مختصر معنى السورة الذى يستحضره المصلى

إذا قرأه فى صلاته

(بقلم محمد رشيد رضا صاحب المنار وتفسيره)

القسم بالعصر للتأكيد، والعصر الزمان الذى قال فيه الكفار (وما يهلكنا إلا الدهر) والخسر النقص فى الكسب وغيره، ومنه قوله تعالى: (خسروا أنفسهم) وكذا الهلاك، والمراد بالقسم أن خسر الإنسان دائماً من نفسه وسوء سعيه لسعادته، لا من عصره، إلا الذين آمنوا بالله وما شرعه لعباده لتزكية أنفسهم، والجزاء على أعمالهم، وعملوا الصالحات وهى كل ما تصلح به أنفسهم ومعاملاتهم مع غيرهم، مما شرع الله لهم، وما اطمأنت به قلوبهم وتواصوا أى أوصى بعضهم بعضا باتباع الحق ضد الباطل من اعتقاد وعمل، وهو ما يجب عليهم لربهم من حمده وشكره، ولأنفسهم ولأهلهم ولأمتهم أفرادها وجماعتها ولغيرهم، وتواصوا كذلك بالصبر واحتمال التعب والمشاق فى سبيل الله وأداء الحق الواجب على كل منهم، ليكونوا متعاونين عليه - فهؤلاء هم السالمون من الخسارة فى سعيهم، الرابحون فى تجارتهم بقدر قيامهم بهذه الأربع: الإيمان الصحيح، والأعمال الصالحة، والتواصى بالحق، والتواصى بالصبر اه

ويليه تفسيره لسور الكوثر والكافرون والاخلاص والمعوذتين مختصرا لتدبرها فى الصلاة

تفسير سورة الكوثر (١٠٨)

(وهي مكية)

من المعلوم القطعى فى القرآن أن كبراء قريش فى مكة كانوا يعيرون النبي ﷺ بفقره وضعفه ، ويتربصون به ريب المنون لانتهاء أمره ، وانقطاع ذكره ، وورد فى الروايات عن أشدهم شنآناله كالعاص بن وائل وعقبة بن أبى معيط وأبى لهب أنهم كانوا يشمتون بموت أولاده الذكور ويقولون بقى « أبتر » أى انقطع عقبه فلم يبق له من يذكر به ، فنزلت هذه السورة المعجزة بإيجازها و إعجازها مبطلة لباطلهم ثم جاء الزمان مصدقا لها ومكذبا لهم .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ . إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ

إنا بما لنا من القدرة على كل شيء (أعطيناك) أيها الرسول من خيرى الدنيا والآخرة (الكوثر) أى الخير الكثير الذى لا تحد

كثرته ولا تحصر ، من الدين الحق ، وهداية الخلق ، ومالا يحصى من الاتباع ومالا يحصر من الغنائم والنصر على الأعداء ، وما لاينقطع من الذرية التى تنسب اليك فتذكر بذكرهم ، ويصلى ويسلم عليك وعليهم ، ثم من الشفاعة العظمى يوم الفزع الأكبر والحوض الذى يرده المؤمنون فى المحشر ، فلفظ الكوثر يشمل كل هذا وغيره ، وإنما يكون كل نوع منه فى وقته . وكان الاخبار به فى أول الاسلام من البشارة ونبأ الغيب ، وذكر بلفظ الماضى لتحقق وقوعه كقوله (أتى أمر الله فلا تستعجلوه) أو على معنى الانشاء وهو أنه تعالى قدره وأمضى حكمه به

ووصل تعالى هذه البشارة العظمى بالأمر بشكرها فقال (فصل لربك) أى مربيك وكافلك ومتولى أمرك ، الذى من عليك بهذه النعم وحده مخلصاً له الدين (وانحر) ذبائح نسكك له وحده ــ فهو كقوله تعالى (٦ : ١٦٢ قل إن صلاتى ونسكى ومحياى ومماتي لله رب العالمين) وهذا يدل على أنه سيكون له الغلب على المشركين الذى يتم بفتح مكة و بحجه ونسكه مع أتباعه ــ وقد كان ونحر صلى الله عليه وسلم فى حجة الوداع مائة بدنة (ناقة) فهذه بشارة خاصة ، بعد تلك البشارة العامة ، وكلاهما من أنباء الغيب

ثم قفى على ذلك ببشارة ثالثة هى تمام الرد على أولئك الطغاة

المغرورين بأموالهم وأولادهم أوردها مفصولة غير موصولة بالعطف على ماقبلها لأنها جواب عن سؤال تقديره : وماذا تكون عاقبة شانئيه ومبغضيه الذين رموه بلقب « الأبتر » وتربصوا به الدوائر لما يرجون من انقطاع ذكره ، واضمحلال دعوته ؟ فأجاب (إن شانئك) أى مبغضك وعائبك بالفقر وفقد العقب (هو الأبتر) من دونك — وهذا إخبار آخر بالغيب قد صح وتحقق بعد كر السنين ، ولفظ شانىء مفرد مضاف فمعناه عام ، فهو يشمل العاص ابن وائل وعقبة بن أبى معيط وغيرهما ممن نقل عنهم ذلك القول فيه ﷺ لفظا أو موافقة لاخوانهم المجرمين ، فقد بتروا كلهم وهلكوا ، ثم نسوا كأنهم ماوجدوا ، وزال ما كانوا يرجون من بقاء الذكر بالعظمة والرياسة وكثرة الولد والعصبية ، فلم يعد أحد منهم يذكر بخير ، ولا ينسب له عقب يفتخر به ،

فأنت ترى أن هذه السورة على إيجازها فى منتهى الفصاحة والبلاغة ، قد جمعت من المعانى الكثيرة الصحيحة ومن أنباء الغيب التى فسرها الزمان ماتعد به معجزة بينة الإعجاز ، وفيها من المعاني واللطائف غير ماذكرنا فيراجع تفسيرها فى مفاتح الغيب وغيره من المطولات ، يرى فيها العجب العجاب

(تم تفسير سورة الكوثر ولله الحمد)

تفسير سورة الكافرون (١٠٩)

وهى مكية

روى فى أسباب نزول القرآن وأخبار السيرة النبوية أن كبراء مشركى قريش كانوا يطمعون فى إقناع النبى صلى الله عليه وسلم بالكف عن تفنيد شركهم، وتحقير آلهتهم، على أن يجزوه بالاعتراف له بالرياسة، وتمتيعه بالثروة، حتى قيل إن الوليد بن المغيرة والعاصى بن وائل والاسود بن المطلب وامية بن خلف وهم من أشد المعاندين له صلى الله عليه وسلم قالوا له: هلم يا محمد فلتعبد ما نعبد، ونعبد ما تعبد، ونشترك نحن وأنت فى أمرنا كله، فأنزل الله هذه السورة ايئاسا لهم وإيذانا بالبراءة من دينهم الباطل، وعبادتهم الشركية المخترعة وسواء أصح هذا أم لم يصح، السورة نزلت فى هذا المعنى لاقتضاء الحال لها فى بيان الفصل بين التوحيد والشرك فى الحال والاستقبال وهاك خلاصة معناها الذى نستحضره عند قراءتها فى الصلاة وغيرها، والخطاب للنبى صلى الله عليه وسلم ثم لجميع المؤمنين به.

بسم الله الرحمن الرحيم

قُلْ يَاأَيُّهَا الْكَافِرُونَ . لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ .
وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ . وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَا عَبَدْتُمْ .
وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ . لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ .

﴿قل يا أيها الكافرون﴾ بالله الذين اتخذتم له أنداداً تحبونهم كحب الله أى من جنس حبه لا من جنس حب المخلوقات بعضهم لبعض، إذ تزعمون أنهم ينفعون و يضرون بتصرف غيبى خاص بهم أو بشفاعتهم عند الله ، فتتوجهون اليهم عند وقوع الشدائد والمصائب ، والحاجة إلى ماتعسر أو تعذر سببه من الرغائب ، فتدعونهم لكشف الضر وجلب النفع ﴿لا أعبد ماتعبدون﴾ أى لاأعبد ماعشت ماتعبدون من آلهة اتخذتموها وجعلتم رب العالمين واحداً منها ، أو إله قيدتم سلطانه المطلق بشفاعتها ووساطتها ، وانما أعبده وحده مخلصاً له الدين ، وأوجه وجهى اليه حنيفاً أى مائلا عن غيره وما أنا من المشركين ، فجملة (لا أعبد) تدل على نفى هذه العبادة لمن يعبد كل منهم فى الاستقبال مع الاستمرار .

﴿ولا أنتم عابدون﴾ فى الحال التى أنتم عليها (ما أعبد) أى

الإله الذى أعبده أنا وهو الرب الواحد الأحد ، الفرد الصمد ، الغنى عن الولد ، المنزه عن الشركاء من الشفعاء والأولياء (ما لكم من دونه من ولى ولا شفيع أفلا تتذكرون) ولم ينف عبادتهم فى المستقبل للرب الذى يعبده للرجاء فى إيمانهم بدين التوحيد .

﴿ولا أنا عابد ما عبدتم﴾ أى ولا أنا عابد فى وقت من الاوقات عبادتكم أى عبادة مثل عبادتكم التى جريتم عليها إلى الآن وأنا أدعوكم إلى تركها (ولا أنتم عابدون ما أعبد) أى عبادتى (فما فى هاتين الجملتين مصدرية ، وفى اللتين قبلهما موصولة) والمعنى أن عبادة كل منا تخالف عبادة الآخر ، كما أن معبود كل منهما يخالف معبود الآخر ، فعبادتى قد أمرنى بها ربى ، وعبادتكم ابتدعتموها بأهوائكم ، أو آراء رؤسائكم ، وعبادتى خالصة له وحده ، وعبادتكم مشوبة بالشرك معه

﴿لكم دينكم﴾ الذى ابتدعتموه أو ابتدعتم فيه مالم يأذن به الله ، (ولى دينى) الذى أوحاه إلى ربي لاشائبة فيه ، وبينهما غاية الخلف والمباينة فى صورتهما ومعناهما وتأثيرهما فى النفس ، فدينى مصلح للبشر أفرادهم وجماعاتهم بمعرفة الله وتنزيهه وتزكية الأنفس من رذائل الفواحش والمنكرات ، وإقامة الحق والعدل والمساواة بين الناس فيهما ، ودينكم بضد ذلك كله فان منكم من ينكر البعث والجزاء على الاعمال ، ومنكم من يجعل الجزاء الإلهى فى الدنيا والآخرة بالمحاباة وشفاعة الوسطاء المزعومين بين الله والناس ، وكل من هذا وذاك مانع من تزكية النفس والعروج بها إلى سماء الكمال .

(١١٢) سورة الاخلاص وهي مكية وآياتها أربع

تفسيرها بقلم محمد رشيد رضا

هذه السورة مكملة ومتممة لسورة الكافرون من حيث إن الأولى نافية لعقائد الكفار وعباداتهم الشركية ، وهذه مثبتة لعقيدة التوحيد وهادمة لعقائد الشرك بجميع أنواعه ، ولذلك كان النبي ﷺ يجمع بينهما إذا صلى ركعتين خفيفتين كركعتي سنة الصبح وتحية المسجد والطواف ، وقد أفردها غير واحد من العلماء بتفسير خاص لعل أجلها تفسير شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله .

روى الترمذى والحاكم وابن خزيمة من طريق أبى العالية عن أبى بن كعب أن المشركين قالوا لرسول الله ﷺ انسب لنا ربك فأنزل الله (قل هو الله أحد) إلى آخرها وأخرج الطبرانى وابن جرير مثله من حديث جابر بن عبد الله . وروى ابن أبى حاتم عن ابن عباس أن جماعة اليهود قالوا للنبى ﷺ : صف لنا ربك الذى بعثك ، فأنزل الله (قل هو الله أحد) إلى آخرها ، وظاهر هذا أنها مدنية ، وما قبله أنها مكية ، والأول أقوى سنداً ومعنى ويحمل الثانى على أنه ﷺ تلاها على اليهود عند ما سألوه فظن الراوى أنها نزلت وقتئذ .

بسم الله الرحمن الرحيم

قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ . اللَّهُ الصَّمَدُ . لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ . وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ

(قل) أى قل أيها الرسول فيما تبلغه للناس من معرفة الله وتوحيده وتنزيهه ، ولمن سألك من الكفار أن تنسب لهم ربك

أو عن صفاته ، (هو الله أحد) ضمير هو يعود إلى المسئول عنه إذا صح أن السورة نزلت عقب السؤال ؛ أو هو الضمير الذى يسمونه ضمير الشأن والحديث أو القصة فلا يحتاج إلى مرجع ، ومعناه الشأن العظيم الذى يجب أن يعرفه كل عاقل ، ان الله أحد أى واحد وحدة حقيقية غير قابلة للتعدد والكثرة فى ذاته ولا فى ربوبيته ولا فى ملكه ولا فى ألوهيته ، فهو غير مركب من أصلين كما زعمت الثانوية ، ولا من ثلاثة أصول أو أقانيم كما زعم المثلثون من قدماء وثنيي الهند وغيرهم وتبعهم النصارى . على خلاف أصل دين موسى وعيسى ومن قبلهما من النبيين .

(الله الصمد) معنى كلمة الصمد فى اللغة السيد الذى يصمد إليه ويقصد لقضاء الحوائج ، والجمله هنا تفيد الحصر ، أى إن الصمد هو الله تعالى وحده ، فهذه الصفة لا تليق بل لا تصح إلا له عز وجل ،

لأنه هو القادر على قضاء كل ما يحتاج اليه عباده من الحاجات، وكفايتهم جميع ما يعجزون عنه من المهمات ، بما يسخره لهم من الأسباب ، وما يهديهم إليه من سنته فيها

فلو كان مبتدعة عبادة القبور وأسرى الخرافات يفقهون معنى هذه الكلمة و يؤمنون بها إيمانا إذعانيا صحيحاً يملك قلوبهم، لما صمد أحد منهم إلى قبر أحد من الصالحين ، ولا إلى رجل حى من المعتقدين ، ولا إلى دجال يدعى استخدام الجان وتسخير الشياطين ، ليقضى له ماعجز عنه من منافعه ومصالحه ، أو من دفع الأذى عن نفسه وأهله وولده ، فان هؤلاء الأحياء الدجالين كالموتى من الصالحين ، عاجزون كلهم عما يظنه الجاهلون فيهم من التصرف فى عالم الغيب والشهادة . وقد يغترون ببعض مايجهلون حقيقته من شعوذة وحيل ؛ أو مصادفات يوجد أمثالها عند أمثالهم من جميع أهل الملل ، ولكن هذا الغرور لاسلطان له على الموحدين المؤمنين بواحدنية الله تعالى

(لم يلد ولم يولد) لأنه ليس بمخلوق له مزاج وجنس نشأ عن غيره ونشأ غيره عنه ، فتكون الربوبية والألوهية أسرة وعشيرة كسائر الأحياء الحادثة التى يتوقف وجود بعضها على بعض ، بل هو أحد ، لاشىء قبله ولده ، ولا شىء مثله ولد منه، فيحل محله ، بل هو أزلى أبدى سرمدى منزه عن

مشابهة كل ما فى العالم من الأجناس المتسلسلة من الأفراد البسيطة والمركبة ، والله غنى عن الوالدية والمولودية وهما نقص فى حقه يستلزمان الحاجة ، وينافيان الربوبية والالوهية

فلو كان تبارك وتعالى مولودا لكان حادثا مسبوقا بالعدم الذاتى فى نفسه ، ولجاز أن يكون والده مولودا مثله وكذا والد والده ، ويتسلسل الجواز إلى ما لانهاية له فى الماضى ، ويستلزم ذلك أن يكون للمخلوقات أرباب آلهة لاعدد لهم ، وهو غير معقول ولم يقل به أحد من البشر على سخافات كثير منهم

ولو كان تعالى والدا وكان هذا كمالا فى حقه لجاز أو لوجب أن يكون له أولاد لا عدد لهم ، وإذ كان يكون ولده مثله لزم أن يكون للخلق آلهة لاتحصى أيضا ولم يقل بهذا أحد منهم

أجمع أنبياء الله تعالى وحكماء البشر المثبتون لوجود إله لهم على أن الإله يجب شرعا وعقلا أن يكون واحدا ، لأن التعدد غير معقول ويترتب على القول به نقائص كثيرة ، ولهذا ادعى القائلون بالتثليث أن الثلاثة واحد فرارا من نقائص التعدد ، وحاولوا أن يجعلوه تعدداً صوريا أو اعتباريا لا حقيقيا

ثم إن كل مايحتاج البشر ومادونهم من الاحياء إلى الأولاد لأجله لايتأتى مثله فى الخالق بل هو غنى عنه فهو لايضعف ولا يعجز فيعينه ولده ، ولا يموت فيخلفه ويحفظ ذكره ، وليس

له أقران فيفاخرهم بكثرة ولده ، ولذلك قال تعالى (١٠ : ٦٨ قالوا اتخذ الله ولداً سبحانه هو الغنى ، له مافى السموات وما فى الأرض إن عندكم من سلطان بهذا ، أتقولون على الله ما لا تعلمون ؟)

﴿ولم يكن له كفوا أحدا﴾ الكفؤ النظير المكافىء ، أى ليس له تعالى مثل ولا ند فى ذاته ولا فى صفاته ولا فى أفعاله كما زعم عابدو الشيطان من الوثنيين ، وكذا متخذوا الانداد للوساطة والشفاعة عند الله تعالى من الكتابيين ، فالسورة أبطلت جميع أنواع الشرك الذى ضل به البشر فى كل جيل وزمن . وشبهة المبتدعة من المنسوبين إلى الرسل عليهم الصلاة والسلام هى شبهة الوثنيين من قبلهم بعينها ، يقولون إننا ملوثون بالخطايا والذنوب فلا يليق بنا أن نتوجه إلى الله وحدنا ، بل لابد لنا من واسطة بيننا و بينه من أوليائه يقربنا اليه زلفى ، وقرىء (كفوا) بالواو و بالهمزة و بضم الفاء وسكونها

روى البخارى والنسائي من حديث أبى هريرة رفعه «قال الله تعالى كذبنى ابن آدم ولم يكن له ذلك ، وشتمنى ابن آدم ولم يكن له ذلك . فأما تكذيبه إياى فقوله : لن يعيدنى كما بدأنى ، وليس أول الخلق بأهون على من إعادته ، وأما شتمه إياى فقوله اتخذ الله ولدا ، وأنا الأحد الصمد الذى لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد »

تفسير المعوذتين

لمحمد رشيد رضا

مقدمة وتمهيد

بين الله تعالى فى كتابه الكريم لعباده كل مايحتاجون اليه من توحيده ومعرفته وعبادته وأحكام شرعه وحكمه ؛ لتزكية أنفسهم واعدادها لسعادة الدارين بقدر الاستعداد البشرى ، وافتتحه بالسبع المثانى (الفاتحة) التى أجمل فيها أصول الهداية لهم ، وختمه بهاتين السورتين اللتين حذرهم فيهما من مصادر الشر الظاهرة والباطنة فى هذه الحياة الدنيا ليعوذوا بالله منه ، ويتذكروا ما ينبغى لهم من اتقاء أسبابه

واعلم أولا ان الشر اسم جامع لمعانى المضار والمساوىء والمفاسد ، وما يضاد الخير الجامع لمعانى المنافع والمحاسن والمصالح ، والخير هو الأصل فى المخلوقات ، والشر عارض أو نسبىّ ، فقد يكون ماهو خير لأناس شراً لآخرين والعكس ، من حيث النفع والضر ، فالماء الذى هو الأصل للحياة النباتية والحيوانية خير عظيم بمنافعه الكثيرة وقد يضر بكثرته فيغرق بعض الناس والحيوان والزرع ، ويقوض بعض الابنية ، فيكون شرا لمن أصابه ضرره لا لذاته ، وسم الأفاعى والثعابين والعقارب والنحل

والزنابير هو سلاحها الذى تحارب به أعداءها فيضرهم ، وقد ثبت انه دواء وترياق يشفى بعض الأدواء بل جميع السموم أدوية ، وما خلق الله شيئا إلا وفى خلقه حكمة وفائدة ، وإنما الشر فى بعضها أمر عارض أو نسبى كما تقدم ، وليس فيها شر محض فى ذاته وجنسه ، ولا فى مقتضى فطرة الأحياء أن تفعله ، وإنما فطر الله الأحياء على العمل النافع لها بما فيه من حفظ حياتها الشخصية والنوعية ودفع الضرر عنها بحسب إدراك كل منها

حتى إن الشيطان لم يخلق شرا محضا فإنما الشياطين هم الفساق المجرمون من الجن المكلفين ، وليس ضررهم وإيذاؤهم لأعدائهم من الانس بالوسوسة والاغراء بالمعاصى بأشد ضرراً وايذاء من فساق الانس بل إيذاء الانس لأنفسهم أشد

العقلاء من الثقلين هم الذين يدركون مافى أعمالهم لمنافعهم ودفع المضار عنهم من التعارض ، وما يقتضيه من وضع حدود لحق كل من أفرادهم وجماعتهم فيهما «أى المنافع والمضار» حتى لايبغى بعضهم على بعض ، وقد فعلوا ذلك من أول عهدهم بالحياة الاجتماعية ، وحدوث التنازع بينهم فيها ، ولكنهم كانوا ومازالوا يتبعون أهواءهم فى وضع هذه الحدود ثم فى العمل بها ، فيحكم الأقوياء أطماعهم فى الضعفاء ، ومن ثم كان صلاح حياتهم المدنية متوقفا على هداية دينية يكون لها الحكم المطاع بوازع العقيدة

فيما يقع بينهم فى الاجتماع من التنازع ، واختلاف الاهواء والمطامع وهو البرهان الفطرى على حاجة البشر إلى الدين الموحى به من ربهم عز وجل كما فصلناه فى محله من التفسير وكتاب الوحى المحمدى

وقد ثبت بالتجارب فى الأمم المختلفة ان الناس تقل بينهم الشرور بقدر اعتصامهم بالدين الصحيح عن إيمان و إذعان ، و إن قلت علومهم بفلسفة الشرائع والقوانين البشرية، والآداب العرفية ، وغيرها من العلوم والفنون ، وتكثر بضعف الدين حتى تكون العلوم والفنون من وسائل التفنن فيها

واعتبر ذلك بقلة البغى والعدوان والفواحش فى جزيرة العرب المسلمة ، وتفاقم شرورها فى أوربة وأمريكة ، سواء من الفريقين أفرادهم وجماعاتهم ودولهم ، وتأمل فى الحرب الأخيرة بين إمامى دولتى الجزيرة السعودية والمتوكلية ، والسرعة التى انتهت بهـا بالصلح الشريف الذى عقد بينهما والموازنة بينها وبين الحرب بين دول أوربة وأمريكة قديما وحديثا ، وكل صلح يعقدونه كيف يبرمونه على دخل ، ثم ينقضونه أنكاثا بضروب التأويل والحيل .

أكثر الشرور فى البشر من أنفسهم ، و إنما الباعث عليها هو الجهل بحقيقة المنافع والمضار ، أو بالترجيح بين مايتعارض منها

باتباع الهوى، وسببه فساد الاعتقاد والاخلاق ووسوسة الشيطان، المغريان بالبغى والعدوان، وهاتان السورتان ترشدان المؤمن إلى اجتناب جميع الشرور باتقاء أسبابها، والاستعاذة بالله عز وجل والاعتصام به للتغلب عليها (ومن يعتصم بالله فقد هدى إلى صراط مستقيم)

سورة الفلق وهى مكية وآياتها خمس (١١٣)

بسم الله الرحمن الرحيم

قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ . مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ . وَمِنْ شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ . وَمِنْ شَرِّ النَّفَّٰثَٰتِ فِى الْعُقَدِ . وَمِنْ شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ

تفسير المفردات

تقول (أعوذ) بكذا أو عاذ به فلان يعوذ عوذاً (كقال يقول) أى اعتصم واحتمى به. وكانوا فى الجاهلية يعوذون بعظماء الجن من أذى من دونهم فيقول من نزل واديا: أعوذ بعظيم هذا الوادى. قال تعالى (وأنه كان رجال من الإنس يعوذون برجال من الجن فزادوهم رهقا) أى زادوهم طغيانا وغياً يرهقهم ويغشاهم بهذه الاستعاذة الخرافية. ويصح هذا فى كل منهما و (الفلق) بالتحريك الصبح من الفلق بفتح فسكون كالفرق والشق، فان ضوءه يشق ظلام الليل. ومنه

(إن الله فالق الحب والنوى) أى عند بدء إنباتهما ، إلى قوله (فالق الاصباح) و (الشر) الضر والأذى و (الغاسق) ظلام الليل فى أوله . ومنه (أقم الصلاة لدلوك الشمس إلى غسق الليل) أى أوله وفيه صلاة العشائين ، ويقال غسق القمر إذا أظلم بخسوفه . و(وقب) وقبا ووقوبا اشتد ودخل فى كل شىء . و (النفاثات) جمع نفاثة ، وهو النفخ مع إلقاء شىء قليل من البزاق كالتفل (و بابهما ضرب) و (العقد) جمع عقدة (كغرفة وغرف) وهى معروفة و ينفث فيها بريق من الفم لأجل أن تلين فيسهل حلها ، و ينفث الراقى فيها أيضا عند عقدها . و (الحاسد) من يكره النعمة على غيره فيتمنى زوالها عنه .

معانى الجمل

﴿قل أعوذ برب الفلق﴾ أى قل أيها المؤمن أعوذ وأعتصم بالله رب الفلق وهو الصبح الذى يفلق بضوئه ظلمة الليل بما وضعه تعالى من النظام لهذه الشمس وسياراتها بحسبان كان منه ليل ونهار

﴿من شر ما خلق﴾ أى من كل ضرر وأذى يصيبنى من أى شىء خلقه تعالى فى هذا الطور من الزمان الذى يبتدىء بفلق هذا الصباح وهو عامة النهار الذى تحدث فيه أكثر أعمال الناس وغيرهم من الحيوان ، من كسب الأرزاق ، والتنازع فى أعمال الحياة ، من جهاد وخصام ، وكيد واحتيال ، و بغى وعدوان ، وهى مثار أكثر الشر بين الناس .

﴿ومن شر غاسق﴾ أى ومن شر مايقع فى ظلام الليل الذى يغسق عقب زوال النهار بغروب الشمس (إذا وقب) أى اشتد ودخل فى كل شىء حتى ملأ الأفق ، وخفى به على الانسان مايدب فيه من الهوام السامة ، والوحوش المفترسة ، واللصوص المستخفية ، وعسر عليه من وسائل الدفاع عن نفسه وأهله وماله مايسهل فى النهار ، ومن ثم قيل فى الأمثال «الليل أخفى للويل»

والاستعاذة من هذين الشرين تشمل جميع الشرور فى كل زمان من ليل ونهار . روى مسلم من حديث ابن مسعود فى دعاء الصباح والمساء أن النبى ﷺ كان يقول « اللهم انى أسألك خير ما فى هذه الليلة وخير مابعدها ، وأعوذ بك من شر ما فى هذه الليلة وشر مابعدها ، ويقول فى دعاء الصباح مثل هذا .

﴿ومن شر النفاثات فى العقد﴾ الذى لايعرف له وقت من ليل أو نهار يتقى فيه وتتخذ الوسائل لاجتنابه ، والمجترحون له صنفان من الناس يقترف كل واحد منهما طائفة من النفث فى العقد ، وهو جمع نفاثة ويطلق على الرجل والمرأة لأنه صيغة مبالغة كعلّامة وولّادة

(الطائفة الاولى) منتحلوا السحر بالدجل والشعوذة والحيل الخفية ، والتأثير بتوجه النفس وقوة الإرادة (ومنه ماعرف للجمهور فى هذا العصر مما يسمى التنويم المغناطيسى) . ومن الوسائل القديمة لسحر هؤلاء عقد يعقدونها فى خيط مثلا لمنع الرجل من أداء

وظيفة الزوجية فى بدئها قبل الدخول غالبا ، ومنها عقد يحلونها لإزالة هذا المنع ولأعمال أخرى ، وجرت عادتهم عند ذلك أن يقرؤا شيئا مما يسمونه العزائم على هذه العقد و ينفثون فيها ، وهى لا تأثير لها فى نفسها ولا فى خاصة خفية فيها ، و إنما يقع التأثير لبعض المسحورين باستيلاء الوهم عليهم إذا أعلموا بأنهم سحروا أو عقدوا (بالبناء المجهول) و يقع لبعضهم بقوة توجه الارادة ، والعادة المعروفة فى هذا من علم النفس أن هذا التأثير لا يكون إلا من قوى الإرادة فى ضعيفها ، وهذا النوع من شر النفاثات فى العقد يروج فى سوق العوام الجاهلين ، ويكسد فى سوق العقلاء والمثقفين بهداية الدين ، ولقد كان يشكو إلىّ بعض هؤلاء المعقودين فى بلدنا (القلمون) فأكتب لهم شيئا يحملونه فتنحل عقدتهم وسبب ذلك تأثير اعتقادهم و إن كان بعضهم من نصارى لبنان

والنوع الثانى أكثر منه رواجا ، وأعسر علاجا ، وهو الذى اعتمده و بينه شيخنا فى تفسير السورة بقوله « والمراد بهم هنا النمامون المقطعون لروابط الألفة . المحرقون لها بما يلقون عليها من ضرام نمائمهم ، و إنما جاءت العبارة كما فى الآية لأن الله جل شأنه أراد أن يشبههم بأولئك السحرة المشعوذين الذين إذا أرادوا أن يحلوا عقدة المحبة بين المرء وزوجه مثلا فيما يوهمون به العامة ، عقدوا عقدة ثم نفثوا فيها وحلوها ليكون ذلك حلا للعقدة التى بين الزوجين ، والنميمة تشبه أن تكون ضربا من السحر لأنها

تحول مابين الصديقين من محبة إلى عداوة بوسيلة خفية كاذبة ، والنميمة تضلل وجدان الصديقين ، كما يضلل الليل من يسير فيه بظلمته ، ولهذا ذكرها عقب ذكر الغاسق إذا وقب ، ولا يسهل على أحد أن يحتاط للتحفظ من النمام فانه يذكر عنك مايذكر لصاحبك وأنت لاتعلم ماذا يقول ولا مايمكن أن يقول . و إذا جاءك فربما دخل عليك بما يشبه الصدق حتى لايكاد يمكنك تكذيبه ، فلا بد لك من قوة أعظم من قوتك تستعين بها عليه وهى قوة الله» اه

﴿ومن شر حاسد﴾ الحاسد من يكره نعمة الله على غيره ولا سيما أقرانه وعشرائه و يتمنى زوالها عنهم ، والحسد خلق خبيث لايتمكن إلا من الانفس الخبيثة يكون فى الافراد والقبائل والشعوب. وأول الحاسدين من الجن إبليس حسد آدم عليه السلام فعصى الله بالامتناع من السجود له فصار عدواً له ولذريته ، ومن البشر قابيل بن آدم حسد أخاه هابيل أن تقبل الله قربانه دونه فطوعت له نفسه قتله فقتله ، والحسد يجنى دائما على صاحبه باعتراضه على أقدار ربه ، و يعاقب عليه فى الدنيا بآلامه المحرقة لقلبه ، ومن الأمثال : قاتل الله الحسد ما أعدله ، بدأ بصاحبه فقتله . ولله در التهامى حيث قال فى مرثيته المشهورة :

انى لأرحم حاسدىّ لفرط ما ... ضمت صدورهم من الاوغار
نظروا صنيع الله بى فعيونهم ... فى جنة وقلوبهم فى نار

وإنما يؤذى صاحب هذا الخلق محسوده إذا أطاع داعيته وسعى لإرضائها بالعمل الاختيارى وهو معنى قوله تعالى (إذا حسد) أى إذا عمل بإغراء حسده، والمؤمن المذعن يجاهدها فيكف نفسه عن كل عمل تزينه له وتغريه به. وورد فى الحديث أن المخرج المسلم من الحسد ألا يبغى على المحسود بعمل اختيارى وشره وأضره حسد الرؤساء والزعماء من رجال الدين والدنيا فإن بغيهم وكيد بعضهم لبعض يتعدى ضرره إلى غيرهم ويفسد على الأمة مصالحها العامة ومن كان لا يرضيه ولا يكف شره إلا زوال نعمتك فما حيلتك فيه وما أشد حاجتك إلى الاستعاذة بالله منه والاستعانة بقدرته وكفايته على كف بغيه عنك !!

علاوة لتفسير السورة

فى حديث سحر منافق من أشرار اليهود للنبي ﷺ

روى الشيخان من حديث عائشة (رض) قالت : سحر النبي ﷺ حتى إنه ليخيل إليه أنه فعل الشيء وما فعله، حتى إذا كان ذات يوم وهو عندى دعا الله ودعاه ثم قال : « أشعرت ياعائشة أن الله أفتانى فيما استفتيته فيه ؟ قلت وماذاك يارسول الله ؟ فقال : جاءنى رجلان فجلس أحدهما على رأسى والآخر عند رجلى، فقال أحدهما لصاحبه ماوجع الرجل ؟ قال مطبوب، قال : ومن

طبه ؟ قال لبيد بن الأعصم اليهودى من بنى زريق : قال فيم ذا ؟ قال فى مشط ومشاطة وجف طلعة ذكر (١) قال وأين هو ؟ قال فى بير ذى أروان ومن الرواة من قال : بئر ذروان : قال : وذروان بئر فى بنى زريق ، فذهب النبي صلى الله عليه وسلم فى أناس من أصحابه إلى البئر فنظر إليها وعليها نخل ثم رجع إلى عائشة فقال : « والله لكأن ماءها نقاعة الحناء ولكأن نخلها رؤوس الشياطين » (٢) قلت يارسول الله أفأخرجته ؟ قال « لا أما أنا فقد عافانى الله وشفانى وخشيت أن أثور على الناس منه شراً » وأمر بها فدفنت. وفى رواية للشيخين : كان صلى الله عليه وسلم سحر حتى كان يرى أنه يأتي النساء ولا يأتيهن بنحوه ، وفيه : سحره رجل من بنى زريق حليف اليهود كان منافقاً (٣) وعن (زيد بن أرقم) سحر النبى

---

(١) المطبوب الذى يعالج مرضه الطبيب والمسحور ، والمشط بالضم هو الذى يمشط به الشعر ، والمشاطة مايسقط من الشعر عند مشطه (فعله من بابى نصر وضرب) ومشطه تمشيطا كسرحه ، وطلعة ذكر معناه غطاء طلعة من طلع نخلة ذكر . فالجف بضم الجيم وتشديد الفاء الغطاء الذى يخرج منه طلع النخل وهو ما يطلع منه فيكون منه ثمره . ومن المعروف أن منه ذكر أو أنثى

(٢) أى فى قبحها الذى تضرب العرب به المثل وتسمى بعض الحيات شيطانا وهو ثعبان قبيح الوجه (٣) بنو زريق بطن من الخزرج فهو على هذه الرواية يهودى بالحلف لا بالنسب

ﷺ رجل من اليهود فاشتكى لذلك أياما فأتاه جبريل فقال إن رجلا من اليهود سحرك عقد لك عقداً فى بئر كذا وكذا فأرسل ﷺ فاستخرجها فحلها فقام كأنما أنشط من عقال فما ذكر ذلك لذلك اليهودى ولا رآه فى وجهه قط رواه النسائى . والأيام جمع قلة ولكن بالغ بعض الرواة فى غير الصحيحين فجعلوها أشهرا

فهذا الحديث صريح فى أن المراد من السحر فيه خاص بمسألة مباشرة النساء ولكن فهم أكثر العلماء أنه ﷺ سحر سحراً أثر فى عقله كما أثر فى جسده فأنكره بعضهم و بالغوا فى إنكاره وعدوه مطعنا فى النبوة ومنافيا للعصمة لقول عائشة : حتى إنه كان يخيل إليه أنه فعل الشىء ولم يكن فعله فعظمت هذه الرواية على علماء المعقول وعدوها مخالفة للقطعى فى النقل وهو ماحكاه الله تعالى عن المشركين من طعنهم فيه كعادة أمثالهم فى رسلهم بقولهم (٨:٢٥ إن تتبعون إلا رجلا مسحوراً) وتفنيده تعالى لهم بقوله (٩.٢٥ أنظر كيف ضربوا لك الأمثال فضلوا فلا يستطيعون سبيلا) ومخالفة للقطعى فى العقل من عصمة النبى ﷺ من كل ماينافى النبوة والثقة بهـا ، إذ يدخل فى ذلك التخييل ماهو من التشريع ، ومخالفة لعلم النفس الذى يعلم منه أن الأنفس السافلة الخبيثة لاتؤثر فى الأنفس العالية الطاهرة .
فأنكر صحة الرواية بعض العلماء ، وأقدم من عرفنا ذلك عنهم

من المفسرين الفقهاء أبو بكر الجصاص فى كتابه أحكام القرآن ، وآخرهم شيخنا الأستاذ الامام فى تفسير « جزء عم »

وقد أطال شيخنا فى هذا و بالغ فيه . وبنى إنكاره له على القاعدة المتفق عليها عند علماء العقائد وأصول الفقه فى معارضة الظنى للقطعى إذ الحديث آحادى وهو يفيد الظن فيرد بالقطعى عقلا ونقلا وهو ماذكرناه آنفاً ، وقد اتفقوا على أن أحاديث الآحاد لا يحتج بها فى أصول العقائد ، وقال إن كونه يفيد الظن خاص بمن صح عنده و إن له أن يتأوله أو يفوض الأمر فيه على قاعدتهم الأخرى فى النصوص المعارضة للعقل ، ولعمرى إن ما نعرفه عن شيخنا محمد عبده قدس الله روحه من إجلاله و إكباره لشأن محمد رسول الله وخاتم النبيين فى نفسه الزكية ، وروحه القدسية ، وعلو مداركه العقلية ، مما لم نعرف مثله عن أحد من العلماء العقليين كفلاسفة المسلمين ومتكلميهم ، ولا من العلماء الروحيين كالصوفية ، ولا من علماء النقل كجامعى الروايات الكثيرة فى معجزاته ﷺ وحسبك منها تلك الاثارة البليغة فى رسالة التوحيد ، بل كان يقول إن روحه ﷺ كانت منطوية على جملة هداية الدين ومدارك التشريع التى فصلت فى كتاب الله تعالى وسنته تفصيلا تاما كما نقلناه عنه فى تاريخه .

وأجاب عن الرواية المحدثون المصححون لها علما والمقلدون لهم بأن غاية ماتدل عليه أن ذلك السحر إنما أثر فى بدنه دون روحه وعقله ، فكان تأثيره من الأعراض الجسدية كالامراض التى لم يعصم الأنبياء عليهم السلام منها

وقد محصت هذه المسألة مراراً آخرها فى الرد على مجلة الأزهر (نور الإسلام) فى زعمها المفترى أننى كذبت حديث البخارى فى سحر النبى ﷺ فبينت أن الحديث الصحيح فى المسألة عن عائشة (رض) توهم عبارة بعض رواياته ماهو أعم من المعنى الخاص الذى أرادته منها وهو مباشرة الزوجية بينه ﷺ وبينها ، فقولها : كان يخيل إليه أنه يفعل الشىء وهو لم يفعله — كناية عن هذا الشىء الخاص لاعام فى كل شىء ، فلا يدخل فيه شىء من أمور التشريع ولا غير غشيان الزوجية من من الأمور العقلية أو الأمراض البدنية ، فضلا عما كان يريده الذين يرمون الأنبياء بسحر الجنون لأن أمورهم فوق المعقول عند أولئك الكافرين ، فالمسألة محصورة فيما يسمونه حتى الآن الربط أو العقد أى عقد الرجل المانع من مباشرة زوجه فقط

وبينت أيضا أن الرواية فى أصح أسانيدها عند الشيخين عن هشام عن أبيه عن عائشة فيها علة من علل الحديث الخفية التى يشترط فى صحة الحديث السلامة منها وهى أن بعض منكرى

الحديث أعلوه بهشام هذا وألف بعضهم كتاباً خاصا فيه محتجاً بقول بعض علماء الجرح والتعديل إنه كان فى العراق يرسل عن أبيه عروة بن الزبير ماسمعه من غيره ، وعروة هو راوية عائشة الثقة وهى خالته . وقال ابن خراش كان مالك لا يرضاه يعنى هشاما وقد نقم منه حديثه لأهل العراق ، وقال ابن القطان تغير قبل موته . ولا شك أن تعديل الجماعة له ومنهم الشيخان خاص بما رواه قبل تغيره فهذا عذر من طعن فى روايته لهذا الحديث الذى أنكروا متنه بما علمت ، والأمر فيه أهون مما قالوا (١) فالتحقيق أنه خاص بمسألة الزوجية كما جاء التصريح به فى الرواية الثانية كما تقدم ولا يعتد بغير هذا

أما مارواه البيهقى فى دلائل النبوة عن ابن عباس فى مرضه ﷺ وأنه كان شديداً وأنه كان سحراً فى بئر تحت صخرة فى كربة وأنهم أخرجوها فأحرقوها فاذا فيها وتر فيه إحدى عشرة عقدة وأنزلت عليه هاتان السورتان (يعنى المعوذتان) فجعل كلما قرأ آية انحلت عقدة . اه ملخصا ، فهذا حديث باطل مخالف لحديث الصحيحين فى المسألة ولروايات نزول السورتين بمكة وهو من طريق الكلبى عن أبى صالح عن ابن عباس والكلبى هذا متهم بالكذب وطريقه أوهى الطرق عن ابن عباس واسمه محمد بن السائب .

---

(١) راجع تفصيل المسألة فى كتاب المنار والأزهر ص ٩٥ - ١٠٥

وأما ما رواه أبو نعيم فى الدلائل عن أنس قال صنعت اليهود للنبي صلى الله عليه وسلم شيئا فأصابه من ذلك وجع شديد فدخل عليه أصحابه فظنوا أنه ألمَّ به فأتاه جبريل بالمعوذتين فعوذه بهما فخرج إلى أصحابه صحيحاً ، فهو من طريق أبي جعفر الرازى . عن الربيع بن أنس وهما ضعيفان . وليس فى متنه ذكر السحر ولا أن المعوذتين نزلتا فى ذلك الوقت ولا فى شيء من روايات الصحيحين فالاستدلال به على أنهما مدنيتان ضعيف فالحق أنهما مكيتان كما تقدم

١١٤ سورة الناس ، مكية وآياتها ست

بسم الله الرحمن الرحيم

قُلْ أَعوذُ بِرَبِّ النَّاسِ . مَلِكِ النَّاسِ . إِلهِ النَّاسِ . مِنْ شَرِّ الوَسْوَاسِ الخَنَّاسِ . الذِى يوَسْوِسُ فى صدورِ النَّاسِ . مِنَ الجِنَّةِ وَالنَّاسِ .

سورة الفلق نزلت فى الاستعاذة بالله من شرور جميع الخلق الظاهرة التى تطرأ فى جميع الأزمنة من ليل ونهار ، كالضرر فى الأبدان والأعراض والأموال ، وهـذه السورة فى الاستعانة من الشر الخفى النفسى وهو الفسـاد فى العقائد والعقول والآراء . كالشكوك والخرافات والأوهام ، ولذلك جعل الاستعاذة الأولى برب الفلق المحدث لنور الوجود فى ظلمة العدم ، وجعل الاستعاذة فى هذه السورة بما تقرأ فى قوله عز وجل :

﴿ قل أعوذ برب النـاس ﴾ أى اعتصم واحتمى برب الناس الذى خلقهم ويربيهم بنعمه ، ويؤدبهم بنقمه ، ويصلح ذات بينهم بتشريعـه ، ويؤلف بين قلوبهم بهداية دينـه ،

﴿ ملك الناس ﴾ المدبر لأمور حياتهم بقـدرته ، المتصرف فى

منافعهم ومضارهم بمشيئته ، الذى يحكم بينهم فيما يختلفون فيه بحكمته ، فأسباب رزقهم ومحياهم ومماتهم فى قبضته ﴿ إله الناس ﴾ أى معبودهم الحق الذى إياه يدعون بالحق خفية وتضرعاً ، وخوفاً وطمعاً ، وله يسجدون طوعا وكرها ، ذى السلطان الغيبى الأعلى على الأسباب والمسببات الذى تسبح له السموات السبع والأرض ومن فيهن ، وإليه تتوجه قلوبهم إذا عجزت قواهم عن مطالبها ، وتقطعت بهم الأسباب دون رغائبها . من رفع ضر أو جلب نفع .

وحكمة إعادة كلمة الناس فى إضافة كل من هذه الصفات الثلاث هى أظهر وأجلى من كل ما تقرر فى علم المعاني من اقتضاء البلاغة لوضع الاسم الظاهر موضع الضمير ، ومن اقتضاء سياق الكلام للاعادة والتكرير ، لما يجدده فى العقل من يقظة التفكير ، وفى القلب من قوة التأثير ، كقوله تعالى فى سورة الرحمن (والسماء رفعها ووضع الميزان * ألاَ تطغوا فى الميزان * وأقيموا الوزن بالقسط ولا تخسروا الميزان) فتكريره للفظ الميزان المفرد تنبيه لعظم شأن الحسى والمعنوى منه فى نظام الكون ، فالأول الآلات التى تعرف بها نسب الأشياء ومقاديرها من الثقل والمساحة وغيرهما ، والثانى العدل الذى توزن به الحقوق ويميز بين الراجح منها والمرجوح . ومثله تكريره فيها لآية (فبأى

آلاء ربكما تكذبان) بعد ذكر كل نوع من نعم الله تعالى الحسية والمعنوية فى الدنيا والآخرة لأجل تدبرها ومراعاتها فى العمل .

القرآن هداية للناس غايتها أن يكونوا بالاهتداء كملة احراراً أعزة سعداء فى الدنيا والآخرة ، لايذلون ولا يدينون لمخلوق مثلهم ، ولكنهم أهانوا أنفسهم شر الاهانة ، وأذلوها أقبح الذل ، باتخاذ أرباب لهم من خلقه يحلوهم صفات ربهم الحق فى الخلق والتدبير ، والرزق والتقدير ، والهداية والتشريع — وباتخاذ ملوك لهم من أنفسهم يطيعونهم فى معصية الله ، ويرضون بأن يكونوا عبيداً لهم من دون الله ، ويذلون لهم بعد أن أعزهم الله ، وقد يرون من نقائصهم ومساويهم ما يعلمون به أنهم دونهم علماً وعملا ، ولذلك ادعى بعضهم أن سلطتهم على رعاياهم إلهية ، وخضوعها لهم عبودية ، فلما استذلوها سموا أنفسهم آلهة وأربابا ، — وباتخاذ آلهة من دونه يجعلونهم شركاء له فى السلطة الغيبية المسخرة لأسباب المنافع والمضار ، والتصرف الذاتى فى ملك الله ، فيدعونهم مع الله أو من دون الله ، وينذرون لهم كما ينذرون لله ، ويذبحون لهم القرابين كما يذبحون ويقربون لله ، ويحلفون بهم كما يحلفون بالله ، بل ربما أقدموا على الحنث إذا حلفوا به ولا يحنثون إذا حلفوا بهم ، فيجعلونهم أعز وأكرم

عليهم من الله عز وجل – فجميع مصائب النــاس ومخازيهم المفسدة لدينهم والمذلة لهم فى دنيــاهم ، لا مصدر لها إلا أوهام النــاس وخواطر الناس وهواجس الناس ، فقد كرر لهم كلمة الناس ليذكرهم بأن جل شرورهم ومصائبهم من أنفسهم من حيث إنهم هم الناس ، فان البهائم لا تجنى على أنفسها مثل هذه الشرور التى حذرهم منهــا بما يقرر فى أنفسهم كمال التوحيد فى ربوبيته وملــكه وألوهيته ، وأن يعوذوا به مما يصرف قلوبهم عنهــا ، وذلك قوله عز وجل :

﴿ من شر الوسواس ﴾ وهو كما فى المصباح : بالفتح اسم من وسوست إليه نفسه إذا حدثته ، وبالكسر مصدره ، ويقال لما يخطر فى القلب من شر ولما لا خير فيــه وسواس (أى بالفتح) اهـ . وقال الراغب الوسوسة الخطرة الرديئة ، وأصله من الوســواس وهو صوت الحلى والهمس الخفى اهـ فالوسواس يــكون من نفس الإنسان ومنه (ولقد خلقنا الإنســان ونعلم ماتوسوس به نفسه) ويكون من الشيطان ومنه قوله تعالى فى آدم (فوسوس إليه الشيطان) وفى آدم وحواء (فوسوس لهما الشيطان) وقد استعمل بمعنــاه المصدري وهو خواطر النفس الرديئــة وحديثها الضار ، واستعمل صفة للسبب الذى يحدثها فى النفس

بمعنى الوسواس – كالثرثار – وصف به للمبالغة ﴿ والخناس ﴾

صفة له بهذا المعنى وهو صيغة مبالغة من خنس (كضرب) أى انقبض ورجع ، و يستعمل متعديا فيقال خنسته فانخنس أى قبضته وأخرته فانقبض أى تأخر وتوارى ومنه (الجوارى الكنس) وهى الكواكب التى تنقبض وتختفى فى ضوء الشمس بالنهار . والمعنى ان هذا الوسواس يعرض للانسان فى حال الغفلة ويخنس وينزوى فى حال التذكر والبصيرة ، كما قال الله تعالى (٧ : ٢٠١ إن الذين اتقوا إذا مسهم طائف من الشيطان تذكروا فإذا هم مبصرون) فهو يوسوس له تارة ويخنس تارة دواليك ، فلا يدوم أبداً ، ولا يزول و ينقطع سرمداً ، فيجب عليه ان يفطن له لمنع شره ، فانه إذا غفل عنه ملكه واستعبده ، ﴿ الذى يوسوس فى صدور الناس ﴾ دائما - كما تفيده صيغة الفعل المضارع - بما يلقى فى خواطرهم من الشكوك والشبهات فى الدين ، والأوهام فى المنافع والمضار ، واتباع الشهوات المحرمة ، وإغراء العداوات الضارة ، والمكايد المفسدة ، التى تنشرح صدورهم لبعضها وتنقبض لبعض ، بحسب ما يناسبها من أهواء النفس . والمراد من الصدور القلوب التى تحويها إذ هى التى تشعر بالقبض والبسط ، والانفعال المؤلم والملائم للنفس ، فيسند الادراك إليها ، كما يسند إدراك المبصرات إلى العينين ، والمسموعات إلى

الأذنين ، وهذا لا يمنع أن تكون آلة جميع أنواع الادراك العصب ، وأن يكون مركزه الكلى أو العام الدماغ .

﴿ من الجنة والناس ﴾ هذا بيان للوسواس أو للذى يوسوس من شياطين الجن والانس ، فان بعضه من الجنة أى المخلوقات الخفية التى نشعر بأثرها إذا فطنا له ولا نراها لانها من جنس أنفسنا لا من جنس أبداننا ، وبعضه من الناس أمثالنا الذين نراهم بأعيننا ، ونسمع كلامهم بآذاننا ، وقد نغفل عما يلقونه فى قلوبنا من الوسواس المفسد للعقائد ، والمغوى بالمفاسد ، والمغرى بالفتن والمنكرات ، والمزين لاتباع الهوى فى الشهوات ، لأنهم يدسون سمومها فى دسم النصيحة من حيث يدرون ويقصدون ، أو من حيث لا يشعرون . فيساعدهم على قبولها ما يتراءى للموسوس له أنهم له ناصحون بمساواته بأنفسهم ، وتمنيهم له ما يتمنونه لها ، أو ماظفروا به منها .

قال تعالى (٧ : ١١٢ وكذلك جعلنا لكل نبى عدوا شياطين الانس والجن ، يوحى بعضهم إلى بعض زخرف القول غرورا . ولو شاء ربك ما فعلوه ، فذرهم وما يفترون (١١٣) ولتصغى إليه أفئدة الذين لا يؤمنون بالآخرة وليرضوه وليقترفوا ماهم مقترفون) أى اقتضت سنتنا بأن يكون لكل نبى اعداء يصدون قومه عما بعث به من البينات والهدى ، هم شياطين الانس

والجن أى شرارهم ، يوحى بعضهم إلى بعض بالوسواس مايزينونه بزخرف القول الخادع يغرونهم ويخدعونهم بخلابته فيقبلونه ويفتتنون به [١] .

وإن شياطين الإنس لأقوى شرا وأشد ضرا من شياطين الجن ، وجل فسادهم منهم ، وشرهم رؤساؤهم من الملوك المستبدين ، والعلماء المنافقين ، والعباد الجاهلين الدجالين ، والأغنياء المتكبرين والشعراء الغاوين ، ويوم القيامة يلعن بعضهم بعضا ويتبرأ بعضهم من بعض ويتحاجون فى النار كما أخبرنا الله تعالى به فى سور البقرة وابراهيم والعنكبوت وسبأ والصفات والمؤمن

وان شيطان الجن يخنس وينزوى ويترك وسواسه إذ ذكر الانسان الله تعالى بقلبه ولسانه أو بقلبه فقط ، وكذا إذا تذكر ان هذه الوسوسة منه وأما شيطان الانس فلا يخنس ولا يرجع عنك وإن ذكرت الله وذكرته به ، بل يجادل فى الله وفى كتاب الله وآياته

فالخناس يصح أن يكون صفة للوسواس الذى هو حديث النفس وخواطرها الرديئة فانه يخنس وينقبض إذا فطنت له وسلطت عليه ذكر الله وآياته ووعده ووعيده ، ويصح أن يكون وصفا لشيطان الجن الموسوس وعليه الجمهور ، وليس له سلطان على الانسان بغيرها وكل مايدعيه بعض الدجالين من تسلط الشيطان

(١) راجع تفسير الآيات فى الجزء السابع من تفسير المنار .

أو ملوك الجان على بعض الناس وقدرتهم على نفعهم وضرهم فهو كذب وحيل من شياطين الانس وحدهم ، ومن أراد تفصيل وسوسة الشيطان للانسان ومعالجته بذكر الله فليطلبه من تفسير (٧ : ٢٠٠ - ٢٠٢) فى (ص ٥٣٩) من الجزء التاسع من تفسير المنار

نصيحة لكل مؤمن

يجب عليك أيها المؤمن الذى يريد تزكية نفسه بحفظها من الشر وجعلها خيرة وأهلا لسعادة الدارين ، أن تعنى بوقايتها من الشر قبل وقوعه و بمعالجتها بعد وقوعه ، كما تعنى بوقاية بدنك من الأمراض قبل وقوعها و بمعالجتها منها بعد وقوعها ، وأن تعلم أن لكل من أمراض النفس والبدن أسبابا ظاهرة وأسبابا خفية فالخفية من أمراض البدن أحياء دقيقة تملأ الأرض والفضاء يسميها الأطباء « الميكروبات » وما عرفوها إلا فى القرن الماضى فهم يرونها الآن بالمناظير المكبرة ، وأما الخفية من أمراض النفس فهى لا ترى ولذلك سماها الوحى الجنة والجن (بكسر الجيم) ومنشؤها الوسواس الذى تلقيه الشياطين فى خواطر الناس وهم شرار الجنة ، وقد علمنا الوحى أن لكل إنسان منا شيطانا يوسوس له بالشر الذى يغويه ، فالذى يجب على كل منا اتقاء وسواسه بمراقبة خواطره ووزنها بميزان الشرع ليميز بين الحق والخير منها الذى يكون بهداية الدين وسلامة الفطرة الالهية ،

والباطل والشر الذى يكون بوسواس وشياطين الجن والإنس ، فاذا نسى نفسه والتمييز بين خواطره غلب عليها الشر وكان من الغاوين ، نعوذ بالله من الشيطان الرجيم

أثارات للاستاذ الامام

(فى مشكلات فى العقيدة و بعض آيات القرآن)

الاولى فى التوسل بالأنبياء والاولياء

استفتاء من بعض أهل العلم هذا نصه : ـ

فضيلتلو أفندم مفتى الديار المصرية متعنا الله بوجوده آمين أبدى أنه قد بلغنى أن بعض الناس كتب إلى فضيلتكم سؤالا يدعى فيه أنى أنكرت جاه النبى ﷺ والتوسل به إلى الله تعالى و بأوليائه رضوان الله عليهم أجمعين والحقيقة أنى لم أنكر شيئا من ذلك ولم أتكلم به بل الحقيقة أنه سألنى جمع من الناس عن حقيقة ما يعتقدونه و يقولونه بألسنتهم من التوسل بجاه النبى ﷺ والتوسل بأوليائه معتقدين أن النبى أو الولى يستميل إرادة الله تعالى عما هى عليه كما هو المعروف للناس من معنى الشفاعة والجاه عند الحكام وان التوسل بهم إلى الله تعالى

كالتوسل بأكابر الناس إلى الحكام فلما رأيت منهم ذلك وان هذا أمر مخل بالعقيدة كما تعلمون وأن قياس التوسل إلى الله تعالى على التوسل بالحكام محال فاجبتهم بما أعتقده وأدين الله به من تقرير عقيدة التوحيد وهى أنه لا فاعل ولا نافع ولا ضار إلا الله تعالى وأنه لا يدعى معه أحد سواه كما قال تعالى (فلا تدعوا مع الله أحداً) وأن النبي ﷺ و إن كان أعظم منزلة عند الله تعالى من جميع البشر وأعظم الناس جاها ومحبة وأقربهم إليه ليس له من الأمر شيء ، ولا يملك للناس ضرا ولا نفعاً ولا رشدا ولا غيره كما فى نص القرآن ، وانما هو مبلغ عن الله تعالى ولا يتوسل إليه تعالى إلا بالعمل بما جاء على لسانه ﷺ واتباع ما كان عليه الصحابة والتابعون والائمة المجتهدون من هديه وسنته ، وأنه لا سبب لجلب المنافع ودفع المضار إلا ما هدى الله الناس إليه ، ولا معنى للتوسل بنبي أو ولى إلا باتباعه والاقتداء به . يرشدنا إلى هذا كثير من الآيات الواردة فى القرآن العظيم كقوله تعالى (قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله) (وان هذا صراطى مستقيما فاتبعوه) إلى غير ذلك من الآيات . هذا هو اعتقادى وهو الذى قلته للناس فان كنتم ترون فيه خطأ فأرجو بيانه ، وان كان هو الصواب فأرجو إقرارى عليه كتابة لأدافع بذلك من أساء بى الظن لازلتم هادين مهديين

(محمد موسى من محلة فرنوى بحيره)

﴿ جواب المفتى ﴾

بسم الله الرحمن الرحيم ولاحول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم

اعتقادك هذا هو الاعتقاد الصحيح ولا يشوبه شوب من الخطأ وهو مايجب على كل مسلم يؤمن بما جاء به محمد صلى الله عليه وسلم أن يعتقده ، فان الأساس الذى بنيت عليه رسالة النبي محمد صلى الله عليه وسلم هو هذا المعنى من التوحيد كما قال الله له : « قل هو الله أحد * الله الصمد » والصمد هو الذى يقصد فى الحاجات ، ويتوجه إليه المربوبون فى معونتهم على ما يطلبون ، وامدادهم بالقوة فيما تضعف عنه قواهم ، والاتيان بالخبر على هذه الصورة يفيد الحصر كما هو معروف عند أهل اللغة فلا صمد إلا هو ، وقد أرشدنا إلى وجوب القصد إليه وحده بأصرح عبارة فى قوله (وإذا سألك عبادى عنى فانى قريب أجيب دعوة الداعى إذا دعان) وقد قال الشيخ محيى الدين بن عربى شيخ الصوفية فى صفحة ٢٢٦ من الجزء الرابع من فتوحاته عند الكلام على هذه الآية : ان الله تعالى لم يترك لعبده حجة عليه بل لله الحجة البالغة فلا يتوسل إليه بغيره : فان التوسل إنما هو طلب القرب منه وقد أخبرنا الله انه قريب وخبره صدق اه ملخصا

على أن الذين يزعمون جواز شيء مما عليه العامة اليوم

فى هذا الشأن انما يتكلمون فيه بالمبهمات ، و يسلكون طرقا من التأويل لا تنطبق على مافى نفوس الناس ، و يفسرون الجاه والواسطة بما لا أثر له فى مخيلات المعتقدين ، فأى حالة تدعوهم إلى ذلك ؟ و بين أيديهم القرون الثلاثة الأولى ولم يكن فيها شيء من هذا التوسل ولا مايشبهه بوجه من الوجوه ، وكتب السنة والسير بين أيدينا شاهدة بذلك فكل ماحدث بعد ذلك فأقل أوصافه انه بدعة فى الدين وكل بدعة ضلالة وكل ضلالة فى النار وأسوأ البدع ما كان فيه شبهة الاشراك بالله وسوء الظن به كهذه البدع التى نحن بصدد الكلام فيها .

وكأن هؤلاء الزاعمين يظنون أن فى ذلك تعظيما لقدر النبى ﷺ أو الأنبياء والأولياء مع أن أفضل التعظيم للانبياء هو الوقوف عندما جاءوا به واتقاء الزيادة عليهم فيما شرعوه باذن ربهم (١) وتعظيم الأولياء يكون باختيار مااختاروه لأنفسهم وظن هؤلاء الزاعمين ان الأنبياء والأولياء يفرحون باطرائهم وتنظيم المدائح وعزوها إليهم ، وتفخيم الألفاظ عند ذكرهم واختراع شؤون لهم مع الله لم ترد فى كتاب الله ولا فى سنة رسوله ولا رضيها السلف الصالح ـ هذا الظن بالأنبياء والأولياء هو أسوأ الظن لأنهم شبهوهم فى ذلك بالجبارين من أهل الدنيا الذين غشيت أبصارهم ظلمات الجهل قبل لقاء الموت وليس يخطر

(١) يعنى ماشرعه الله للناس على ألسنتهم فبلغوه عنه باذنه

بالبال ان جباراً لقي الموت وانكشف له الغطاء عن أمر ربه فيه يرضى أن يفخمه الناس بما لم يشرعه الله فكيف بالأنبياء والصديقين

إن لفظ الجاه الذي يضيفونه إلى الأنبياء والأولياء عند التوسل مفهومه العرفي هو السلطة وان شئت قلت نفاذ الكلمة عند من يستعمل عليه أو لديه فيقال فلان اغتصب مال فلان بجاهه ، ويقال فلان خلص فلانا من عقوبة الذنب بجاهه لدى الأمير أو الوزير مثلا . فزعم زاعم أن لفلان جاها عند الله بهذا المعنى إشراك جلي لا خفي وقلما يخطر ببال أحد من المتوسلين معنى اللفظ اللغوي وهو المنزلة والقدر ، على انه لامعنى للتوسل بالقدر والمنزلة في نفسها لانها ليست شيئا ينفع وانما يكون لذلك معنى لو أولت بصفة من صفات الله كالاجتباء والاصطفاء ولا علاقة لها بالدعاء ، ولا يمكن لمتوسل أن يقصدها في دعائه ، وإن كان الألوسي المسكين بنى تجويز التوسل بجاه النبي خاصة على ذلك التأويل ، وما حمله على هذا إلا خوفه من ألسنة العامة وسباب الجهال ، وهو مما لاقيمة له عند العارفين ، فالتوسل بلفظ الجاه مبتدع بعد القرون الثلاث وفيه شبهة الشرك والعياذ بالله وشبهة العدول عما جاء به رسول الله صلى الله عليه وسلم فلم الاصرار على تحسين هذه البدعة ؟

يقول بعض الناس ان لنا على ذلك حجة لا أبلغ منها وهي مارواه الترمذي بسنده إلى عثمان بن حنيف رضي الله عنه قال إن رجلا ضرير البصر أتى النبي صلى الله عليه وسلم فقال ادع الله أن يعافيني

فقال : « إن شئت دعوت وإن شئت صبرت فهو خير لك » قال فادعه قال فأمره أن يتوضأ فيحسن الوضوء ويدعو بهذا الدعاء : اللهم انى أسألك وأتوجه اليك بنبيك محمد نبى الرحمة، إنى توجهت بك الى ربى ليقضى لى فى حاجتى هذه اللهم فشفعه فى : قال الترمذى وهو حديث حسن صحيح غريب (١)

ونقول أولا قد وصف الحديث بالغريب وهو مارواه واحد، ثم يكفى فى لزوم التحرز عن الأخذ به ان أهل القرون الثلاثة لم يقع منهم مثله وهم أعلم منا بما يجب الأخذ به من ذلك ولا وجه لابتعادهم عن العمل به إلا علمهم بأن ذلك من باب طلب

---

(١) هذا الحديث له سند ضعيف فيه الشبهة وسند قوى خلاصة معناه ان التوسل المراد منه هو الدعاء من الأعمى ودعاء النبى (ص) له ، والدعاء وطلبه مشروعان ، ومن دعا لغيره كان شفيعا له ومنه الدعاء للميت فى صلاة الجنازة ومن المأثور فيها « وقد جئناك راغبين اليك شفعاء له » فالأعمى طلب الدعاء من النبى (ص) فدعا له، والدعاء شفاعة وهو دعا الله أن يقبل شفاعته فيه أى دعاءه له . ولا يمكن الآن لأحد أن يعلم أن النبى (ص) دعا له وشفع فيه فيسأل الله أن يقبل شفاعته له، والكلام فى هذا الحديث مفصل فى كتاب التوسل والوسيلة لشيخ الاسلام ابن تيمية رحمه الله فليراجعه من شاء فهو مطبوع . وكتبه محمد رشيد رضا

الاشتراك فى الدعاء من الحى كما قال عمر رضى الله عنه فى حديث الاستسقاء إنا كنا نتوسل اليك بنبينا صلى الله عليه وسلم فتسقينا وإنا نتوسل اليك بعم نبيك العباس فاسقنا قال ذلك رضى الله عنه والعباس بجانبه يدعو الله تعالى ، ولو كان التوسل مايزعم هؤلاء الزاعمون لكان عمر يستسقى و يتوسل بالنبى صلى الله عليه وسلم ولا يقول كنا نستسقى بنبينا والآن نستسقى بعم نبيك ، وطلب الاشتراك فى الدعاء مشروع حتى من الأخ لأخيه بل و يكون من الأعلى للأدنى كما ورد فى الحديث وليس فيه مايخشى منه فان الداعى ومن يشركه فى الدعاء وهو حى كلاهما عبد يسأل الله تعالى والشريك فى الدعاء شريك فى العبودية ، لا وزير يتصرف فى إرادة الأمير كما يظنون (سبحان ربك رب العزة عما يصفون)

ثم المسألة داخلة فى باب العقائد لا فى باب الأعمال ، ذلك أن الأمر فيها يرجع إلى هـذا السؤال : هل يجوز أن نعتقد بأن واحدا سوى الله يكون واسطة بيننا و بين الله فى قضاء حاجاتنا أو لا يجوز ؟

أما الكتاب فصريح فى أن تلك العقيدة من عقائد المشركين وقد نعاها عليهم فى قوله (و يعبدون من دون الله مالا يضرهم ولا ينفعهم و يقولون هؤلاء شفعاؤنا عند الله) (سورة يونس)[1]

(١) راجع تفسير هذه الآية وهى (١٠ : ١٨) فى صفحة ٣٢٣ من تفسير المنار الجزء الحادى عشر

وقد جاء في السورة التي نقرأها كل يوم في الصلاة (وإياك نستعين) فلا استعانة إلا به وقد صرح الكتاب بأن أحدا لا يملك للناس من الله نفعا ولا ضرا وهذا هو التوحيد الذي كان أساس الرسالة المصطفوية كما بينا ، ثم البرهان العقلي يرشد إلى أن الله في أعماله لا يقاس بالحكام وأمثالهم في التحول عن إرادتهم بما يتخذه أهل الجاه عندهم لتنزهه جل شأنه عن ذلك (١) ولو أراد مبتدع أن يدعو إلى هذه العقيدة فعليه أن يقيم عليها الدليل الموصل إلى اليقين ، إما بالمقدمات العقلية البرهانية أو بالأدلة السمعية المتواترة ولا يمكنه أن يتخذ حديثا من حديث الآحاد دليلا على العقيدة مهما قوى سنده فان المعروف عند الأئمة قاطبة أن أحاديث الآحاد لا تفيد إلا الظن « وإن الظن لا يغني من الحق شيئا » والله أعلم

في ٢٧ جمادى الثانية سنة ١٣٢٢ محمد عبده

قد أعطانا الأستاذ الامام رحمه الله هذه الفتوى فنشرناها في المجلد السابع من المنار (ص ٥٠٤) في أيام حياته المباركة

---

(١) هذا القياس هو تشبيه لله تعالى بالملوك الظالمين ، وإذا كان تشبيهه تعالى بأعظم خلقه محظورا فكيف تشبيهه بشرارهم (ليس كمثله شيء سبحانه وتعالى عما يشركون)

الاثارة الثانية

(فى أفعال العباد ونسبتها تارة اليهم وتارة إلى الله تعالى)

نشرنا هذه المقالة فى الجزء السابع من المجلد الثالث من مجلة المنار (ص ١٧٥) تحت عنوان « سؤال وجواب عن آيتين من الكتاب »

رفع سؤال إلى مولانا حجة الإسلام وقدوة الأنام الشيخ محمد عبده مفتى الديار المصرية يطلب صاحبه فيه بيان الجمع بين قوله تعالى (وإن تصبهم حسنة يقولوا هذه من عند الله ، وإن تصبهم سيئة يقولوا هذه من عندك ، قل كل من عند الله ، فما لهؤلاء القوم لا يكادون يفقهون حديثا ،) وقوله تعالى عقيبها (ما أصابك من حسنة فمن الله وما أصابك من سيئة فمن نفسك وأرسلناك للناس رسولا وكفى بالله شهيداً) فان بينهما فى بادىء الرأى تنافيا ينزه عنه كلام الله تعالى فأجاب (رضى الله تعالى عنه) بقوله :

كان بعض القوم بطرا جاهلا إذا أصابه خير ونعمة يقول إن الله تعالى قد أكرمه بما أعطاه من ذلك وأصدره من لدنه وساقه اليه من خزائن فضله عناية منه به لعلو منزلته ، وإذا وصل اليه شر ، وهو المراد من السيئة ـ يزعم أن منبع هذا الشر هو النبى صلى الله عليه وسلم وأن شؤم وجوده هو ينبوع هذه السيئات والشرور . فهؤلاء

الجاهلون الذين كانوا يرون الخير والشر والحسنة والسيئة يتناوبانهم قبل ظهور النبي وبعده كانوا يفرقون بينهما فى السبب الأول لكل منها فينسبون الخير أو الحسنة إلى الله تعالى على أنه مصدرها الأول ومعطيها الحقيقى يشيرون بذلك إلى أنه لا يد للنبي فيه ، وينسبون الشر أو السيئة إلى النبى على أنه مصدرها الأول ومنبعها الحقيقى كذلك وأن شؤمه هو الذى رماهم بها وهذا هو معنى « من عند الله » و « من عندك » أى من لدنه ومن خزائن عطائه ومن لدنك ومن رزاياك التى ترمى بها الناس . فرد الله عليهم هذه المزاعم بقوله (قل كل من عند الله) أى ان السبب الأول وواضع أسباب الخير والشر المنعم بالنعم والرامى بالنقم إنما هو الله وحده وليس ليمن ولا لشؤم مدخل فى ذلك ، فهو بيان للفاعل الأول الذى يرد اليه الفعل فيما لا تتناوله قدرة البشر ولا يقع عليهم كسبهم وهو الذى كان يعنيه أولئك المشاقون عند مايقولون : الحسنة من الله والسيئة من محمد ، أى إنه لا دخل لاختيارهم فى الاولى ولا فى الثانية وأن الاولى من عناية الله بهم والثانية من شؤم محمد عليهم ، فجاءت الآية ترميهم بالجهل فيما زعموا ولو عقلوا لعلموا أن ليس لأحد فيما وراء الأسباب المعروفة فعل الخير والشر فى ذلك سواء

هذا فيما يتعلق بمن بيده الأمر الأعلى فى الخير والشر والنعم

والنقم ، أما مايتعلق بسنة الله فى طريق كسب الخير والتوقى من الشر والتمسك بأسباب ذلك فالأمر على خلاف مايزعمون كذلك فان الله سبحانه وتعالى قد وهبنا من العقل والقوى ما يكفينا فى توفير أسباب سعادتنا والبعد عن مساقط الشقاء ، فاذا نحن استعملنا تلك المواهب فيما وهبت لأجله وصرفنا حواسنا وعقولنا فى الوجوه التى ننال منهـا الخير ، وذلك إنما يكون بتصحيح الفكر و إخضاع جميع قوانا لأحكامه وفهم شرائع الله حق الفهم والتزام ماحدده فيها ـ فلا ريب فى أننا ننال الخير والسعادة ، ونبعد عن الشقاء والتعاسة ؛ وهذه النعم إنما يكون مصدرها تلك المواهب الإلهية ، فهى من الله تعالى فما أصابك من حسنة فمن الله لأن قواك التى كسبت بها الخير واستغزرت بها الحسنات بل واستعمالك لتلك القوى إنما هو من الله لأنك لم تأت بشىء سوى استعمال ماوهب الله . فاتصال الحسنة بالله ظاهر ، ولا يفصلها عنه فاصل لاظاهر ولا باطن :

وأما إذا أسأنا التصرف فى أعمالنا وفرطنا فى النظر فى شئوننا وأهملنا العقل وانصرفنا عن سر ما أودع الله فى شرائعه وغفلنا عن فهمه فاتبعنا الهوى فى أفعالنا وجلبنا بذلك الشر على أنفسنا كان ما أصابنا من ذلك صادراً عن سوء اختيارنا و إن كان الله تعالى هو الذى يسوقه إلينا جزاء على مافرطنا ولا يجوز لنا أن

ننسب ذلك إلى شؤم أحد أو تصرفه . ونسبة الشر والسيئات إلينا فى هذه الحالة ظاهرة الصحة. فأما المواهب الالهية بطبيعتها فهى متصلة بالخير والحسنات ، وانما يبطل أثرها إهمالها أو سوء استعمالها ، وعن كلا الأمرين يساق الشر إلى أهله، وهما من كسب المهملين وسيء الاستعمال، فحق أن ينسب اليهم ما اصيبوا به وهم الكاسبون لسببه ، فقد حالوا بكسبهم بين القوى التى غرزها الله فيهم لتؤدى إلى الخير والسعادة و بين ماحقها أن تؤدي اليه من ذلك ، و بعدوا بها عن حكمة الله فيها وصاروا بها إلى ضد ماخلقت لأجله ، فكل مايحدث بسبب هذا الكسب الجديد فأجدر به أن لاينسب إلى كاسبه

وحاصل الكلام فى المقامين : أنه إذا نظر إلى السبب الأول الذى يعطى و يمنع ، و يمنح و يسلب ، و ينعم و ينتقم ، فذلك هو الله وحده ، ولا يجوز أن يقال إن سواه يقدر على ذلك ، ومن زعم غير هذا فهو لايكاد يفقه كلاما ، لأن نسبة الخير إلى الله ونسبة الشر إلى شخص من الأشخاص بهذا المعنى مما لايكاد يعقل . فان الذى يأتى بالخير و يقدر على سوقه هو الذى يأتى بالشر و يقدر عليه فالتفريق ضرب من الخبل فى العقل

و إذا نظرنا الى الأسباب المسنونة التى دعا الله الخلق الى استعمالها ليكونوا سعداء ولايكونوا أشقياء، فمن أصابته نعمة بحسن استعماله لما وهب الله فذلك من فضل الله . لأنه أحسن استعماله

الآلات التى من الله عليه بها ، فعليه أن يحمد الله و يشكره على ما آتاه ، ومن فرط أو أفرط فى استعمال شىء من ذلك فلا يلومن إلا نفسه ، فهو الذى أساء اليها بسوء استعماله ما لديه من المواهب وليس بسائغ له أن ينسب شيئا من ذلك إلى النبي ولا إلى غيره فإن النبي أو سواه لم يغلبه على اختياره ولم يقهره على إتيان ما كان سببا فى الانتقام منه

فلو عقل هؤلاء القوم لحمدوا الله وحمدوك (يا محمد) على ما ينالون من خير . فإن الله هو مانحهم ما وصلوا به الى الخير وأنت داعيهم لالتزام شرائع الله وفى التزامها سعادتهم . ثم إذا أصابهم شر كان عليهم أن يرجعوا باللائمة على أنفسهم لتقصيرهم فى أعمالهم أو خروجهم عن حدود الله ، فعند ذلك يعلمون أن الله قد انتقم منهم للتقصير أو العصيان ، فيؤدبون أنفسهم ليخرجوا من نقمته إلى نعمته لأن الكل من عنده ، و إنما ينعم على من أحسن الاختيار ، و يسلب نعمته عمن أساءه .

وقد تضافرت الآثار على أن طاعة الله من أسباب النعم ، وأن عصيانه من مجالب النقم ، وطاعة الله إنما تكون باتباع سننه وصرف ما وهب من الوسائل فيما وهب لأجله .

ولهذا النوع من التعبير نظائر فى عرف التخاطب ، فانك لو كنت فقيرا وأعطاك والدك مثلا رأس مال فاشتغلت بتنميته والاستفادة منه مع حسن فى التصرف وقصد فى الإنفاق ، وصرت

بذلك غنياً فإنه يحق لك أن تقول : إن غناك إنما كان من ذلك الذى أعطاك رأس مال، وأعدك به للغنى. أما لو أسأت التصرف فيه وأخذت تنفق منه فيما لا يرضاه واطلع على ذلك منك فاسترد ما بقى منه وحرمك نعمة التمتع به ، فلا ريب أن يقال : إن سبب ذلك إنما هو نفسك ، وسوء اختيارها ، مع أن المعطى والمسترد فى الحالين واحد وهو والدك غير أن الأمر ينسب إلى مصدره الأول إذا انتهى على حسب مايريد ، و ينسب إلى السبب القريب إذا جاء على غير ما يحب ، لأن تحويل الوسائل عن الطريق التى كان ينبغى أن تجرى فيها إلى مقاصدها إنما ينسب إلى من حولها وعدل بها عما كان يجب أن تسير اليه .

وهناك للآية معنى أدق ، يشعر به ذو وجدان أرق ، مما يجده الغافلون من سائر الخلق ، وهو أن ما وجدت من فرح ومسرة . وما تمتعت به من لذة حسية أو عقلية، فهو الخير الذى ساقه الله اليك واختاره لك ، وما خلقت إلا لتكون سعيدا بما وهبك. أما ما تجده من حزن وكدر فهو من نفسك ، ولو نفذت بصيرتك إلى سر الحكمة فيما سبق اليك لفرحت بالمحزن فرحك بالسار ، و إنما أنت بقصر نظرك تحب أن تختار مالم يختره لك العليم بك المدبر لشأنك ولو نظرت إلى العالم نظرة من يعرفه حق المعرفة وأخذته كما هو

وعلى ماهو عليه لكانت المصائب لديك بمنزلة التوابل [1] الحريفة يضيفها طاهيك [2] على مايهيء لك من طعام لتزيده حسن طعم وتشحذ منك الاشتهـاء لاستيفاء اللذة واستحسنت بذلك كل ما اختاره الله لك ، ولا يمنعك ذلك من التزام حدوده والتعرض لنعمه والتحول عن مصاب نقمه ، فإن اللذة التى تجدها فى النقمة إنما هى لذة التأديب ومتاع التعليم والتهذيب . وهو متاع تجتنى فائدته ، ولا تلتزم طريقته فكما يسر طالب الأدب أن يتحمل المشقة فى تحصيله وأن يلتذ بما يلاقيه من تعب فيه ، يسره كذلك أن يرتقى فوق ذلك المقام الى مستوى يجد نفسه فيه متمتعاً بما حصل بالغا ما أمل ، وفى هذا كفاية لمن يريد أن يكتفى اه

(١) هى مايطيب به الطعام ، كالفلفل، وواحدها تابل بفتح الباء وكسرها (٢) الطاهى الطباخ

الأثارة الثالثة

﴿ مسألة الغرانيق ، وتفسير الآيات التي فسرت بها خطأ ﴾

﴿ منقولة من المجلد الرابع من مجلة المنار بعد تمهيد في أهم مسائلها ﴾

تمهيد . مصارعة الحق والباطل ، رفع الاسلام مقام الأنبياء وحكمه بعصمتهم ، عبث عشاق الروايات و إفسادهم في الدين ، الروايات واختلافها في مسألة الغرانيق ، مخالفة المحققين لها ، الرجوع الى أهل العلم الصحيح في إزالة الحيرة ، الطعن في رواية تفسير التمني بالقراءة الطعن في حديث الغرانيق ، رواية الطعن فيه دراية ، عصمة الأنبياء الوجوه الدالة على بطلان حديث الغرانيق ، تفسير الآيات على الوجه الموافق لأسلوب القرآن المنطبق على العقائد الصحيحة . السياق وسابق الآيات ، التفسير الأول وفيه المقابلة بين الآيات وآيات سورة آل عمران في المحكمات والمتشابهات ، التفسير الثاني أماني الأنبياء ، سنة الله فيهم وفي أقوامهم ، تأويل ثالث ، وسواس الشيطان ، اللغات في الغرنوق ومعانيه ، عدم ملاءمة معانيه لوصف الآلهة ، انتفاء نقل ذلك عن العرب ، الجزم بأن الحديث من وضع الأعاجم .

حديث الغرانيق صار مشهوراً عند المتأخرين لوجوده في كثير من كتب التفسير التي تتناولها الأيدي (حتى الجلالين أخصرها) ولو صح لكان أكبر شبهة على الدين ولكن المقلد البحت الذي لا نظر

له لايبالى بالشبه ويقبل كل نقل، وإن كان الفرع فيه ينفى الأصل وطلاب العنت يتشبثون بأهداب الشبهات ، فيجعلونها معاول تهدم الأركان الثابتة ، وتنفى القضايا الثابتة بالبرهان القطعى ، ولذلك كثر الطعن فى هذه الأيام بدين الاسلام من دعاة النصرانية وبعض المفتونين بالشبه المادية ، وأقوى تكأة لهؤلاء الطاعنين ما قاله بعض المفسرين فى مسألة زيد وزينب، وفى مسألة الغرانيق، ومسألة أخرى (١) ولما كان كشف الشبهات وتخليص الحق من شوائب الباطل على وجه تثق به النفوس ، وتطمئن اليه القلوب ، من وظائف أئمة الدين، وأكابر العلماء الراسخين ، لجأ قوم الى حكيم الاسلام فى هذا العصر . وإمام المسلمين فى كل بادية ومصر ، مولانا الأستاذ الأكبر الشيخ محمد عبده مفتى الديار المصرية ، فى أن يجلى لهم الحق فى المسألة الأولى . فأجاب بما هو الحكمة وفصل الخطاب ، ونشرناه فى المنار ليشتهر فى الأقطار ، ثم سأله آخرون فى هذه الأيام عن الثانية ، فأجاب بما أزال الالتباس ومحص ما فى صدور الناس :—

جعل المسألة أولا موضوع درس فى الأزهر حضره الجماهير ، والجم الغفير ، ثم كتبها لتنشر فى المنار ، وتتناقل فى الأمصار . وهاك ما جاء من فضيلته ، بنصه وعبارته :

(١) أعنى بهذه المسألة ما رووه من أن النبى صلى الله عليه وسلم سحر ، وقد حل هذه المسألة الأستاذ الامام فى تفسير جزء عم . وقد طبع للمرة الثانية .

آيات سورة الحج ومن ضل فى تفسيرها

(وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلاَ نَبيٍّ إِلاَّ إِذَا تمنىَّ أَلقَى الشَّيْطَانُ فى أُمْنِيَّتِه فَينْسخُ اللهُ ما يُلقِي الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحْكِمُ اللهُ آيَاتِه وَاللهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ . لِيَجْعَلَ مَا يُلقِي الشَّيْطَانُ فِتْنَةً لِلذِينَ فى قُلوبهم مَّرَضٌ وَالقَاسِيَةِ قُلوبهُم وَإِنَّ الظَالِمِينَ لَفِي شِقَاقٍ بعيدٍ . وَلِيعلَمَ الذِينَ أُوتُوا العِلمَ أَنَّه الحقُّ مِن رَّبِّكَ فَيؤْمنوا بهِ فَتخْبتَ له قلوبهم وَإِنَّ اللهَ لهَادِ الذِينَ آمَنوا إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ . وَلا يَزال الذِينَ كَفَروا فى مِرْيَةٍ مِّنه حَتىَّ تَأْتِيَهُمُ السَاعَةُ بَغْتَةً أَوْ يَأتِيَهم عَذابُ يَوْمٍ عَقِيمٍ)

(سورة الحج ٢٢ : ٥٢ ـ ٥٥)

قد يجد الباطل أنصارا ، فيتبوأ من نفوسهم داراً ، ويتخذ له منها قرارا ، وتذهب على ذلك الأيام بعد الأيام ؛ وتمضى عليه الأعوام إثر الأعوام ، وهو يلعب بأهله ، و يغلب أهواءهم بحيله حتى يقصروا نظارهم عليه ، ولا يجدوا ملجأ منه إلا إليه ، فاذا أتوا

من ناحيته رضوا ، واذا عرض لهم الحق أعرضوا . ولا يزالون كذلك الى أن تنحل به عراهم ،وتفسد بعلله قواهم ، والحق لا يزال يعرض نفسه ، يستخدم مرة لينه وأخرى بأسه،وهو الشاب الذى لا يهرم ، والعامل الصبور الذى لا يسأم ، وانما يعرض بوجهه عن الاغبياء ، ويولى ظهره الاشقياء ثم لا ينفك يرحمهم ، ولا يبرح يتعهدهم ، يسفر عليهم محياه ، ويرسل اليهم أشعة من سناه ، فاذا وافاهم وقد وهنت مننهم (١) ومرهت عيونهم (٢) وحلك ليلهم ، واشتد خبلهم ، صاح بهم منه صائح ، ورمحهم من جنده رامح (٣) فقلق بالباطل مكانه. وزلزلت من حوله أركانه ،وفزع يطلب النصير وثار يلتمس المجير ، فلا يجد الا أسبابا تقطعت به ،واعضاداً فت فيها بسببه ، (٤) وقد رنق قومه (٥) وعبس يومه ، فيحملق الى الحق يأخذه ببصره ، ويستنزله بنظره ، ولكن خاب الظن ، وبطل الفن ، ثم لا يلبث وهو الباطل أن يتحول عنده اليأس أملا، ويجد من اليبس بللا ، فيظن وهو هو أن الحق ناصره . وأن سنقوى به أواصره ،فيستنصر بجنده ، ويطلب النجدة من عنده ،وأقرب

(١) المنن جمع منة بالضم وهى القوة (٢)مرهت العين خلت من الكحل أو فسدت لتركه (٣) رمحه : طعنه بالرمح، والرامح ذو الرمح (٤) الفت الدق والكسر بالاصابع ويقولون :فت فى عضده اذا كسر قوته وفرق عنه أنصاره (٥) رنق القوم بالمكان ـ بتشديد النون ، أقاموا ـ وفى الامر خلطوا الرأى ـ والطائر خفق بجناحيه ورفرف ولم يطر

مايكون خصم الى الهلكة اذا اطمأن الى عدوه ، وأمل الخير فى دنوه ، هذا شأن الباطل وأهله ، مع تقلبه فى مله ونحله

يعلم كل ناظر فى كتابنا الالهى (القرآن) مارفع الاسلام من شأن الانبياء والمرسلين . والمنزلة التى أحلهم من حيث هم حملة الوحى ، وقدوة البشر فى الفضائل وصالح الاعمال ، وتنزيهه اياهم عما رماهم به أعداؤهم وما نسبه اليهم المعتقدون بأديانهم ، ولا يخفى على أحد من أهل النظر فى هذا الدين القويم أنه قد قرر عصمة الرسل كافة من الزلل فى التبليغ ، والزيغ عن الوجهة التى وجه الله وجوههم نحوها من قول أو عمل ، وخص خاتمهم محمداً ﷺ فوق ذلك بمزايا فصلت فى ثنايا الكتاب العزيز

عصمة الرسل فى التبليغ عن الله أصل من أصول الاسلام ، شهد به الكتاب وأيدته السنة ، وأجمعت عليه الامة . وماخالف فيه بعض الفرق فانما هو فى غير الإخبار عن الله تعالى وابلاغ وحيه إلى خلقه . ذلك الأصل الذى اعتمدت عليه الأديان حق لايرتاب فيه ملى يفهم ما معنى الدين .

مع ذلك لم يعدم الباطل فيه أعوانا يعملون على هدمه ، وتوهين ركنه ، أولئك عشاق الروايات وعبدة النقل . نظروا نظرة فى قوله تعالى (وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبى) ــ الآية ، وفيما روى عن ابن عباس رضى الله عنهما من أن « تمنى »

بمعنى قرأ والامنية القراءة ، فعمى عليهم وجه التأويل الحق على فرض صحة الرواية عن ابن عباس ، فذهبوا يطلبون ما به يصح التأويل فى زعمهم ، فقيض لهم من يروى فى ذلك أحاديث تختلف طرقها ، وتتباين ألفاظها ، وتتفق فى أن النبي ﷺ عند ما بلغ منه أذى المشركين ما بلغ ، وأعرضوا عنه وجفاه قومه وعشيرته لعيبه أصنامهم ، وزرايته على آلهتهم ، أخذه الضجر من إعراضهم ، ولحرصه على إسلامهم وتهالكه عليه تمنى أن لا ينزل عليه ما ينفرهم ، لعله يتخذ ذلك طريقا إلى استمالتهم واستنزالهم عن غيهم وعنادهم ، فاستمر به ما تمناه حتى نزلت عليه سورة (والنجم إذا هوى) وهو فى نادى قومه ، وروى انه كان فى الصلاة ، وذلك التمنى آخذ بنفسه ، فطفق يقرؤها فلما بلغ قوله (ومناة الثالثة الأخرى) ألقى الشيطان فى أمنيته التى تمناها بأن وسوس له بما شيعها به فسبق لسانه على سبيل السهو والغلط فمدح تلك الأصنام ، وذكر ان شفاعتهن ترجى ، . فمنهم من قال انه عند ما بلغ (ومناة الثالثة الأخرى) سها فقال « تلك الغرانيق العلى ، وان شفاعتهن لترتجى » : ومنهم من روى (الغرانقة العلى) ومنهم من روى إن شفاعتهن ترتجى بدون ذكر الغرانقة والغرانيق . ومنهم من قال انه قال (وانها لمع الغرانيق العلى) ومنهم من روى : وانهن لهن الغرانيق العلى ، وإن شفاعتهن

لهى التى ترتجى » ففرح المشركون بذلك ، وعندما سجد فى آخر السورة سجدوا معه جميعا ؟ ! .

قال ابن حجر العسقلانى وتعدد الطرق وصحة ثلاثة منها و إن كانت مرسلة يدل على أن للواقعة أصلا صحيحا . وهذه الأسانيد الصحيحة - فى رأيه - و إن كانت مراسيل يحتج بها من يرى الاحتجاج بالحديث المرسل بل ومن لايراه كذلك ، لانهامتعددة يعضد بعضها بعضا اهـ ولولا خوف التطويل لأتيت بجميع تلك الروايات ما صح عنده منها وما لم يصح ولكن لا أرى حاجة إليه فى مقالى هذا .

روى ذلك ابن جرير الطبرى وشايعه عليه كثير من المفسرين وفى طباع الناس إلف الغريب ، والتهافت على العجيب ، فولعوا بهذه التفاسير واتخذوها عمدة إيمانهم ، حتى ظنوا - وبعض الظن اثم - أن لا معدل عنها ، ولا سبيل فى فهم الآية سواها ، ونسوا ما رآه جمهور المحققين فى تأويلها ، وذهب إليه الائمة فى بيانها . حتى ثارت ثائرة الشبه هذه الأيام فى نفوس كثير منهم وهم يزعمون أنهم مسلمون ، وأحسوا أن ذلك الضرب من التفسير ، لا يتفق مع أصل العصمة فى التبليغ ، وأن فيه من الحجة للعدو مالا سبيل إلى دفعه ، فلجأوا إلى أهل العلم الصحيح يلتمسون منهم بيان المخرج مما سقطوا فيه ، وتوهموا أنهم

يقررون لهم ما ألفوا ، ثم ينقذونهم من الحيرة مع ثباتهم على ماحرفوا ، ولكن ضل رأيهم . وخاب ظنهم ، وسيقاومون على المنهج ، ويرون الحق ناصعا ابلج .

فى صحيح البخارى : وقال ابن عباس فى (إذا تمنى ألقى الشيطان فى امنيته) إذا حدث ألقى الشيطان فى حديثه ، فيبطل الله ما يلقى الشيطان ويحكم الله آياته ، ويقال امنيته قراءته « الا أماني » يقرءون ولا يكتبون اه فتراه حكى تفسير الأمنية بالقراءة بلفظ (يقال) بعد ما فسرها بالحديث رواية عن ابن عباس . وهذا يدل على المغايرة بين التفسيرين ، فمايدعيه الشراح أن الحديث فى رأى ابن عباس بمعني التلاوة يخالف ظاهر العبارة ثم حكايته تفسير الامنية بمعنى القراءة بلفظ (يقال) يفيد أنه غير معتبر عنده (وسيأتى أن المراد بالحديث حديث النفس) .

وقال صاحب الابريز : إن تفسير تمنى بمعنى قرأ والامنية بمعنى القراءة مروى عن ابن عباس فى نسخة على بن أبى طلحة عن ابن عباس ورواها على بن صالح كاتب الليث عن معاوية ابن صالح عن على بن أبى طلحة عن ابن عباس وقد علم ماللناس فى ابن أبى صالح كاتب الليث وأن المحققين على تضعيفه . اه —

هذا ما فى الرواية عن ابن عباس ، وهى أصل هذه الفتنة . وقد رأيت أن المحققين يضعفون راويها .

وأما قصة الغرانيق فمع ما فيها من الاختلاف الذى سبق ذكره جاء في تتميمها أن النبى ﷺ لم يفطن لما ورد على لسانه وان جبريل جاءه بعد ذلك فعرض عليه السورة فلما بلغ الكلمتين قال له : ماجئتك بهاتين ، فحزن لذلك ، فأنزل الله عليه (وما أرسلنا) الآيات — تسلية له، كما أنزل بذلك قوله : (و إن كادوا ليفتنونك عن الذى أوحينا إليك لتفترى علينا غيره وإذاً لا تخذوك خليلا . ولولا أن ثبتناك لقد كدت تركن إليهم شيئا قليلا . إذاً لأذقناك ضعف الحياة وضعف الممات ثم لاتجد لك علينا نصيراً) وفى بعض الروايات : أن حديث الغرانيق فشا فى الناس حتى بلغ أرض الحبشة فساء ذلك المسلمين والنبى ﷺ فنزلت (وما أرسلنا) — الآية . قال القسطلانى فى شرح البخارى : وقد طعن فى هذه القصة وسندها غير واحد من الائمة ، حتى قال ابن اسحاق وقد سئل عنها : هى من وضع الزنادقة اه وكفى فى إنكار حديث أن يقول فيه ابن اسحاق إنه من وضع الزنادقة مع حال ابن اسحاق المعروفة

عند المحدثين (١) .

وقال القاضى عياض : إن هذا حديث لم يخرجه أحد من أهل الصحة ولا رواه أحد بسند متصل سليم ، وإنما أولع به وبمثله المفسرون والمؤرخون المولعون بكل غريب . المتلقفون من الصحف كل صحيح وسقيم ، ثم نقل عن أبى بكر بن العلاء مايدل على سقم الرواية واضطراب الرواة فيها وما يقضى عليها بالوهن والسقوط عن درجة الاعتبار . وقال الإمام أبو بكر بن العربى — وكفى به حجة فى الرواية والتفسير — : إن جميع ماورد فى هذه القصة لا أصل له .

قال القاضى عياض : والذى ورد فى الصحيح أن النبى ﷺ قرأ (والنجم) وهو بمكة فسجد معه المسلمون والمشركون والجن والانس اهـ وقد يكون ذلك لبلاغة السورة ، وشدة قرعها ، وعظم وقعها . ثم قال القاضى : قد قامت الحجة واجمعت الأمة على عصمته ﷺ ونزاهته عن هذه الرذيلة ، إما من تمنيه أن ينزل عليه مثل هذا من مدح آلهة غير الله وهو كفر ، أو ان يتسود عليه الشيطان ، ويشبه عليه القرآن ، حتى يجعل فيه

(١) يعنى انهم ضعفوه وقالوا انه مدلس فى الحديث .

ما ليس منه ، ويعتقد النبي ﷺ أن من القرآن ما ليس منه حتى يفهمه جبريل عليه السلام ، وذلك كله ممتنع في حقه ﷺ ، أو يقول ذلك النبي ﷺ من قبل نفسه عمداً وذلك كفر — أو سهوا وهو معصوم من هذا كله . وقد قررنا بالبراهين والاجماع عصمته ﷺ من جريان الكفر على لسانه أو قلبه لا عمداً ولا سهواً ، أو أن يشبه عليه ما يلقيه الملك بما يلقى الشيطان أو يكون للشيطان عليه سبيل . أو أن يتقول على الله — لا عمدا ولا سهوا — ما لم ينزل عليه ، وقد قال الله تعالى (ولو تقوّل علينا بعض الأقاويل لأخذنا منه باليمين . ثم لقطعنا منه الوتين) وقال (إذاً لأذقناك ضِعف الحياة وضعف الممات ثم لا تجد لك علينا نصيراً) .

(ووجه ثان) وهو استحالة هذه القصة نظراً وعرفا وذلك ان هذا الكلام لو كان كما روى لكان بعيد الالتئام متناقض الاقسام ، ممتزج المدح بالذم ، متخاذل التأليف والنظم ، ولما كان النبي ﷺ ومن بحضرته من المسلمين ، وصناديد المشركين ، ممن يخفى عليه ذلك وهذا لا يخفى على أدنى متأمل فكيف بمن رجح حلمه ، واتسع في باب البيان ومعرفة فصيح الكلام علمه . ؟

(ووجه ثالث) انه علم من عادة المنافقين ، ومعاندة المشركين ، وضعفة القلوب والجهلة من المسلمين ، نفورهم لأول

وهلة ، وتخليط العدو على النبي صلى الله عليه وسلم لاقل فتنة ، وتعييرهم المسلمين والشماتة بهم الفينة بعد الفينة (١) وارتداد من فى قلبه مرض ممن أظهر الاسلام لأدنى شبهة ، ولم يحك أحد فى هذه القصة شيئا سوى هذه الرواية الضعيفة الأصل ، ولو كان ذلك لوجدت قريش بها على المسلمين الصولة ولأقامت بها اليهود عليهم الحجة ، كما فعلوا مكابرة فى قصة الاسراء ، قال : ولافتنة أعظم من هذه البلية لو وجدت ، ولا تشغيب (٢) للمعادى حينئذ أشد من هذه الحادثة لو أمكنت ، وما ورد عن معاند فيها كلمة ، ولا عن مسلم بسببها بنت شفة ، فدل على بطلها ، واجتثاث أصلها ، ولا شك فى ادخال بعض شياطين الإنس والجن هذا الحديث على بعض مغفلى المحدثين ، ليلبس به على ضعفاء المسلمين .

(ووجه رابع) ذكر الرواة لهذه القصة ان فيها نزلت (وإن كادوا ليفتنونك عن الذى أوحينا إليك) الآيتان ـ هاتان الآيتان تردان الخبر الذى رووه ، لأن الله تعالى ذكر أنهم كادوا يفتنونه حتى يفترى ولولا أن ثبته لكاد يركن إليهم شيئا قليلا ، فمضمون هذا ومفهومه أن الله عصمه من أن يفترى وثبته حتى لم يركن إليهم قليلا فكيف كثيراً ؟ وهم يروون فى أخبارهم الواهية أنه زاد على الركون والافتراء بمدح آلهتهم ، وأنه صلى الله عليه

(١) الفينة كالعيلة الساعة والحين (٢) التشغيب تهييج الشر

وسلم قال . افتريت على الله وقلت مالم يقل . وهي تضعف الحديث لو صح فكيف ولا صحة له ؟ وهذا مثل قوله تعالى فى الآية الأخرى (ولولا فضل الله عليك ورحمته لهمت طائفة منهم أن يضلوك وما يضلون إلا أنفسهم وما يضرونك من شيء) قال القشيري ولقد طالبته قريش وثقيف إذ مر بآلهتهم أن يقبل بوجهه إليها ، ووعدوه الايمان به إن فعل فما فعل ، ولا كان ليفعل . قال ابن الانبارى : ماقارب الرسول ولا ركن . انتهى المطلوب من كلام القاضى رحمه الله . وقد أورد بعد ذلك كثيراً من القول فى توهين الرواية وتكذيبها .

أما ماذكره ابن حجر من أن القصة رويت مرسلة من ثلاث طرق على شرط الصحيح وأنه يحتج بها الخ ما سبق فقد ذهب عليه - كما قال فى الابريز - إلى أن العصمة من العقائد التى يطلب فيها اليقين ، فالحديث الذى يفيد خرمها ونقضها لا يقبل على أى وجه جاء ، وقد عد الأصوليون الخبر الذى يكون على تلك الصفة من الأخبار التى يجب القطع بكذبها . هذا لو فرض اتصال الحديث ، فما ظنك بالمراسيل ؟ وإنما الخلاف فى الاحتجاج بالمرسل (١)

(١) الحديث المرسل هو الذى سقط من سنده من بعد التابعى والجمهور يتوقفون عن الاحتجاج به ، لجواز أن يكون الساقط غير صحابى

وعدم الاحتجاج به فيما هو من قبيل الأعمال وفروع الأحكام ، لافى أصول العقائد ومعاقد الايمان بالرسل وما جاءوا به ، فهى هفوة من ابن حجر يغفرها الله له .

هذا ماقاله الائمة جزاهم الله خيراً فى بيان فساد هذه القصة وانها لاأصل لها ، ولاعبرة برأى من خالفهم ، فلا يعتد بذكرها فى بعض كتب التفسير ، و إن بلغ أربابها من الشهرة ما بلغوا . وشهرة المبطل فى بطله لا تنفخ القوة فى قوله ، ولا تحمل على الأخذ برأيه .

تفسير لآيات

والآن أرجع إلى تفسير الآيات على الوجه الذى تحتمله ألفاظها وتدل عليه عباراتها والله أعلم .

لا يخفى على كل من يفهم اللغة العربية وقرأ شيئا من القرآن أن قوله تعالى (وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبى) الآيات يحكى قدراً قُدِّر (بتشديد الدال وكسرها) للمرسلين كافة لايعدونه ، ولا يقفون دونه ، و يصف شنشنة عرفت فيهم وفى أممهم ، فلو صح ماقال أولئك المفسرون لكان المعنى أن جميع الأنبياء والمرسلين قد سلط الشيطان عليهم ، فخلط فى الوحى المنزل إليهم ، ولكنه بعد هذا الخلط ينسخ الله كلام الشيطان

ويحكم الله آياته الخ وهذا من أقبح مايتصور متصور فى اختصاص الله تعالى لأنبيائه، واختيارهم من خاصة أوليائه؛ فلندع هذا الهذيان ولنعد إلى مانحن بصدده

ذكر الله لنبيه حالا من أحوال الأنبياء والمرسلين قبله ليبين له سنته فيهم. وذلك بعد أن قال (وإن يكذبوك فقد كذبت قبلهم قوم نوح وعاد وثمود وقوم ابراهيم وقوم لوط وأصحاب مدين وكذب موسى فأمليت للكافرين ثم أخذتهم فكيف كان نكير) إلى آخر الآيات. ثم قال: (قل يا أيها الناس إنما أنا لكم نذير مبين. فالذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم مغفرة ورزق كريم. والذين سعوا فى آياتنا معاجزين أولئك أصحاب الجحيم. وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبي) الخ فالقصص السابق كان فى تكذيب الأمم لأنبيائهم ثم تبعه الأمر الالهى بأن يقول النبى ﷺ لقومه: إننى لم أرسل إليكم إلا لأنذركم بعاقبة ما أنتم عليه ولأبشر المؤمنين بالنعيم، وأما الذين يسعون فى الآيات والأدلة التى اقيمها على الهدى وطرق السعادة، ليحولوا عنها الأنظار، ويحجبوها عن الأبصار، ويفسدوا أثرها الذى أقيمت لأجله، ويعاجزوا بذلك النبى ﷺ والمؤمنين - أى يسابقونهم ليعجزوهم ويسكتوهم عن القول، وذلك بلعبهم بالألفاظ وتحويلها عن مقصد قائلها- كما يقع عادة من أهل الجدل والمماحكة- هؤلاء الضالون المضلون

هم أصحاب الجحيم . وأعقب ذلك بما يفيد أن ما ابتلى به النبى ﷺ من المعاجزة فى الآيات قد ابتلى به الأنبياء السابقون فلم يبعث نبى فى أمة إلا كان له خصوم يؤذونه بالتأويل والتحريف، ويضادون أمانيه ويحولون بينه وبين مايبتغى بما يلقون فى سبيله من العثرات . فعلى هذا المعنى الذى يتفق مع مالقيه الأنبياء جميعا يجب أن تفسر الآية . وذلك يكون على وجهين .

(الأول) أن يكون تمنى بمعنى قرأ والامنية بمعنى القراءة وهو معنى قد يصح وقد ورد استعمال اللفظ فيه . قال حسان بن ثابت فى عثمان رضى الله عنهما :

تمنى كتاب الله أول ليله وآخره لاقى حمام المقادر

وقال آخر :

تمنى كتاب الله أول ليله تمنى داود الزبور على رسل

غير أن الالقاء لا يكون على المعنى الذى ذكروه بل على المعنى المفهوم من قولك « ألقيت فى حديث فلان » إذا أدخلت فيه ماربما يحتمله لفظه ولا يكون قد أراده ، أو نسبت إليه مالم يقله تعللا بأن ذلك الحديث يؤدى إليه . وذلك من عمل المعاجزين الذين ينصبون أنفسهم لمحاربة الحق ، يتبعون الشبهة ، ويسعون وراء الريبة ، فالالقاء بهذا المعنى دأبهم ، ونسبة الالقاء إلى الشيطان لأنه مثير الشبهات بوساوسه ، مفسد

القلوب بدسائسه ، وكل ما يصدر من أهل الضلال يصح أن ينسب إليه ، ويكون المعنى : وما أرسلنا قبلك من رسول ولا نبي إلا إذا حدث قومه عن ربه أو تلا وحيا أنزل إليه فيه هدى لهم ، قام فى وجهه مشاغبون يحولون ما يتلوه عليهم عن المراد منه ، ويتقولون عليه ما لم يقله ، وينشرون ذلك بين الناس ليبعدوهم عنه ويعدلوا بهم عن سبيله ، ثم يحق الله الحق ويبطل الباطل ، ولا زال الأنبياء يصبرون على ما كذبوا وأوذوا ويجاهدون فى الحق ولا يعتدون بتعجيز المعجزين ولا بهزء المستهزئين ، إلى أن يظهر الحق بالمجاهدة ، وينتصر على الباطل بالمجالدة ، فينسخ الله تلك الشبه ويجتثها من أصولها ، ويثبت آياته ويقررها ، وقد وضع الله هذه السنة فى الناس ليميز الخبيث من الطيب فيفتتن الذين فى قلوبهم مرض وهم ضعفاء العقول بتلك الشبه والوساوس فينطلقون وراءها ، ويفتتن بها القاسية قلوبهم من أهل العناد والمجاحدة فيتخذونها سندا يعتمدون عليها فى جدلهم ، ثم يتمحص الحق عند الذين أوتوا العلم ويخلص لهم بعد ورود كل شبهة عليه فيعلمون أنه الحق من ربك فيصدقون به فتخبت وتطمئن له قلوبهم . والذين أوتوا العلم هم الذين رزقوا قوة التمييز بين البرهان القاطع الذى يستقر بالعقل فى قرارة اليقين ، وبين المغالطات وضروب السفسطة التى تطيش بالفهم ، وتطير به مع الوهم ، وتأخذ

بالعقل تارة ذات الشمال وأخرى ذات اليمين ، وسواء أرجعت الضمير فى «أنه الحق» إلى ماجاءت به الآيات المحكمة من الهدى الإلهى أو إلى القرآن ، وهو أجلها ، فالمعنى من الصحة على مايراه أهل التمكين .

هؤلاء الذين أوتوا العلم هم الذين آمنوا وهم الذين هداهم الله إلى الصراط المستقيم ، ولم يجعل للوهم عليهم سلطانا فيحيد بهم عن ذلك النهج القويم. وأما الذين كفروا وهم ضعفاء العقول ومرضى القلوب أو أهل العناد وزعماء الباطل وقساة الطباع ، الذين لاتلين أفئدتهم ، ولا تبش للحق قلوبهم ، فأولئك لايزالون فى ريب من الحق أو الكتاب لاتستقر عقولهم عليه ، ولا يرجعون فى متصرفات شئونهم اليه ، حتى تأتى ساعة هلاكهم بغتة فيلاقوا حسابهم عند ربهم ، أو إن امتد بهم الزمن ، ومادهم الأجل ، فسيصيبهم «عذاب يوم عقيم» يوم حرب يسامون فيه سوء عذاب القتل أو الأسر ، و يقذفون إلى مطارح الذل وقرارات الشر ، فلا ينتج لهم من ذلك اليوم خير ولا بركة ، بل يسلبون ما كان لديهم ويسافرون إلى مصارع الهلكة ، وهذا هو العقم فى أتم معانيه وأشأم درجاته .

ما أقرب هذه الآيات فى مغازيها إلى قوله تعالى فى سورة آل عمران (هو الذى أنزل عليك الكتاب منه آيات محكمات هن أم الكتاب وأخر متشابهات ، فأما الذين فى قلوبهم زيغ

فيتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله ، وما يعلم تأويله إلا الله والراسخون فى العلم يقولون آمنا به كل من عند ربنا وما يذكر إلا أولوا الألباب)

وقد قال بعد ذلك (إن الذين كفروا لن تغني عنهم أموالهم ولا أولادهم من الله شيئا وأولئك هم وقود النار) ثم قال (قل للذين كفروا ستغلبون وتحشرون إلى جهنم وبئس المهاد) الخ الآيات وكأن إحدى الطائفتين من القرآن شرح للأخرى . فالذين فى قلوبهم زيغ هم الذين فى قلوبهم مرض والقاسية قلوبهم ، والراسخون فى العلم هم الذين أوتوا العلم ، وهؤلاء هم الذين يعلمون أنه الحق من ربهم فيقولون آمنا به كل من عند ربنا فتخبت له قلوبهم وان الله ليهديهم إلى صراط مستقيم ، وأولئك هم الذين يفتتنون بالتأويل ، ويشتغلون بقال وقيل ، بما يلقى اليهم الشيطان ويصرفهم عن مرامى البيان ، ويميل بهم عن محجة الفرقان ، وما يتكثرون عليه من الأموال والأولاد لن يغنى عنهم من الله شيئا فستوافيهم آجالهم ، وتستقبلهم أعمالهم ، فإن لم يوافهم الأجل على فراشهم ، فسيغلبون فى هراشهم (1) وهذه سنة جميع الأنبياء مع أممهم ، وسبيل الحق مع الباطل من يوم رفع الله الانسان إلى منزلة يميز فيها بين سعادته وشقائه ، وبين مايحفظه

(1) الهراش المواثبة والمخاصمة

وما يذهب ببقائه، وكما لا مدخل لقصة الغرانيق فى آيات آل عمران لامدخل لها فى آيات سورة الحج : هذا هو الوجه الأول فى تفسير آيات (وما أرسلنا) إلى آخرها علي تقدير أن تمنى بمعنى قرأ ، وأن الأمنية بمعنى القراءة والله أعلم .

الوجه الثانى فى تفسير الآيات

إن التمنى على معناه المعروف، وكذلك الأمنية وهى أفعولة بمعنى المنية وجمعها أمانى كما هو مشهور . قال أبو العباس أحمد بن يحيي: التمنى حديث النفس بما يكون و بما لا يكون . قال والتمنى سؤال الرب . وفى الحديث «إذا تمنى أحدكم فليستكثر فإنما يسأل ربه» وفى رواية «فليكثر[١] » وقال ابن الأثير : التمنى تشهى حصول الأمر المرغوب فيه وحديث النفس بما يكون وما لا يكون . وقال أبو بكر : تمنيت الشىء إذ قدرته وأحببت أن يصير إلى . وكل ماقيل فى معنى التمنى على هذا الوجه فهو يرجع إلى ماذكرنا و يتبعه معنى الأمنية .

ما أرسل الله من رسول ولا نبى ليدعو قوما إلى هدى جديد أو شرع سابق شرعه لهم ويحملهم على التصديق بكتاب جاء به نفسه إن كان رسولا أو جاء به غيره إن كان نبياً بعث ليحمل

---

(١) رواه الطبرانى فى الاوسط عن عائشة (رض)

الناس على اتباع من سبقه — إلا وله أمنية فى قومه وهى أن يتبعوه ويتحازوا إلى مايدعوهم اليه ،و يستشفوا من دائهم بدوائه،و يعصوا أهواءهم باجابة ندائه ، ومامن رسول أرسل إلا وقد كان أحرص على إيمان أمته ، وتصديقهم برسالته ، منه على طعامه الذى يطعم وشرابه الذى يشرب ، وسكنه الذى يسكن اليه ، و يغدو عنه و يروح عليه ، وقد كان نبينا ﷺ من ذلك فى المقام الأعلى ، والمكان الأسمى ، قال الله تعالى : (فلعلك باخع نفسك على آثارهم إن لم يؤمنوا بهذا الحديث أسفا) وقال (وما أكثر الناس ولو حرصت بمؤمنين) وقال (أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين ؟) وفى الآيات مايطول سرده مما يدل على أمانيه ﷺ المتعلقة بهداية قومه واخراجهم من ظلمات ما كانوا فيه إلى نور ماجاء به .

وما من رسول ولا نبى إلا إذا تمنى هذه الأمنية السامية ، ألقى الشيطان فى سبيله العثرات ، وأقام بينه و بين مقصده العقبات ووسوس فى صدور الناس ، وسلبهم الانتفاع بما وهبوا من قوة العقل والاحساس ، فثاروا فى وجهه ، وصدوه عن قصده ،وعاجزوه حتى لقد يعجزونه ، وجادلوه بالسلاح والقوة حتى لقد يقهرونه ، فاذا ظهروا عليه والدعوة فى بدايتها وسهل عليهم إيذاؤهم وهو قليل الاتباع ، ضعيف الأنصار ، ظنوا الحق من جانبهم ،وكان فيما ألقوه من العوائق بينه و بين ماعمد اليه فتنة لهم .

غلبت سنة الله فى أن يكون الرسل من أوسط قومهم أو من المستضعفين فيهم ليكون العامل فى الإذعان بالحق محض الدليل وقوة البرهان ، وليكون الاختيار المطلق هو الحامل لمن يدعى اليه على قبوله ، ولكيلا يشارك الحق الباطل فى وسائله ، أو يشاركه فى نصب شراكه وحبائله أنصار الحق فى كل زمان هم أهل الأنفة والقوة والجاه ، والاعتزاز بالأموال والأولاد والعشيرة والأعوان والغرور بالزخارف ، والزهو بكثرة المعارف ، وتلك الخصال إنما تجتمع كلها أو بعضها فى الرؤساء وذوى المكانة من الناس فتذهلهم عن أنفسهم ، وتصرف نظرهم عن سبيل رشدهم ، فاذا دعا إلى الحق داع عرفته القلوب النقية من أوضار هذه الفواتن ، وفزعت اليه النفوس الصافية والعقول المستعدة لقبوله بخلوصها من هذه الشواغل وقلما توجد إلا عند الضعفاء وأهل المسكنة ، فاذا التف هؤلاء حول الداعى وظاهروه على دعوته ، قام أولئك المغرورون و يقولون (مانراك إلا بشراً مثلنا وما نراك اتبعك إلا الذين هم أراذلنا بادى الرأى وما نرى لكم علينا من فضل ، بل نظنكم كاذبين) فاذا استدرجهم الله على سنته وجعل الجدال بينهم و بين المؤمنين سجالا ، افتتن الذين فى قلوبهم مرض من أشياعهم ، افتتنوا بما أصابوا من الظفر فى دفاعهم ، ولكن الله غالب على أمره ، فيمحق ما ألقاه الشيطان من هذه الشبهات ، و يرفع هذه الموانع وتلك العقبات

ويهب السلطان لآياته فيحكمها ، ويثبت دعائمها ، وينشيء من ضعف أنصارها قوة ، ويخلف لهم من ذلتهم عزة ، وتكون كلمة الله هى العليا ، وكلمة الشيطان هى السفلى ، (فأما الزبد فيذهب جفاء وأما ماينفع الناس فيمكث فى الأرض)

وفى حكاية هذه السنة الإلهية التى أقام عليها الأنبياء والمرسلين ، تسلية لنبينا ﷺ عما كان يلاقى من قومه ، ووعد له بأن سيكمل له دينه ويتم عليه وعلى المؤمنين نعمته ، مع إلفاتهم إلى سيرة من سبقهم ، (أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا وهم لا يفتنون * ولقد فتنا الذين من قبلهم فليعلمن الله الذين صدقوا وليعلمن الكاذبين * أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يأتكم مثل الذين خلوا من قبلكم ، مستهم البأساء والضراء وزلزلوا حتى يقول الرسول والذين آمنوا معه : متى نصر الله ؟ ألا إن نصر الله قريب)

هذا هو التأويل الثانى فى معنى الآية ويدل عليه ماسبق من الآيات ويرشد اليه سياق القصص السابق فى قوله « وإن يكذبوك فقد كذبت قبلهم قوم نوح ، الخ ، وأنت ترى أن قصة الغرانيق لاتتفق مع هذا المعنى الصحيح

وهناك تأويل ثالث ذكره صاحب الابريز وإنى أنقله بحروفه وما هو بالبعيد عن هذا بكثير . بعد ذكر أمانى الأنبياء فى

أممهم وطمعهم فى إيمانهم وشأن نبينا ﷺ فى ذلك على نحو يقرب مما ذكرناه فى الوجه الثانى .

« ثم الأمة تختلف كما قال تعالى (ولكن اختلفوا فمنهم من آمن ومنهم من كفر) فأما من كفر فقد ألقى اليه الشيطان الوساوس القادحة له فى الرسالة الموجبة لكفره . وكذا المؤمن أيضا لايخلو أيضا من وساوس لأنها لازمة للايمان بالغيب فى الغالب وإن كانت تختلف فى الناس بالقلة والكثرة وبحسب المتعلقات . إذا تقرر هذا فمعنى تمنى أنه يتمنى لهم الإيمان ويحب لهم الخير والرشد والصلاح والنجاح فهذه أمنية كل رسول ونبى وإلقاء الشيطان فيها يكون بما يلقيه فى قلوب أمة الدعوة من الوساوس الموجبة لكفر بعضهم ، ويرحم الله المؤمنين فينسخ ذلك من قلوبهم ، ويحكم فيها الآيات الدالة على الوحدانية والرسالة ، ويلقى ذلك عز وجل فى قلوب المنافقين والكافرين ليفتتنوا به فخرج من هذا أن الوساوس تلقى أولا فى قلوب الفريقين معاً غير أنها لاتدوم على المؤمنين وتدوم على الكافرين اه وأنت إذا نظرت بين هذا التفسير وبين ما سبقه نتبين الأحق بالترجيح

لو صح ماقاله نقلة قصة الغرانيق لارتفعت الثقة بالوحى وانتقض الاعتماد عليه كما قاله القاضى البيضاوى وغيره ، ولكان الكلام فى الناسخ كالكلام فى المنسوخ يجوز أن يلقى فيه الشيطان مايشاء ولانهدم أعظم ركن للشرائع الإلهية وهو العصمة . وما يقال فى

المخرج عن ذلك ينفر منه الذوق ولا ينظر اليه العقل على أن وصف العرب لآلهتهم بأنها الغرانيق العلى لم يرد لافى نظمهم ولا فى خطبهم ، ولم ينقل عن أحد أن ذلك الوصف كان جارياً على ألسنتهم ، إلا ماجاء فى معجم ياقوت غير مسندولامعروف بطريق صحيح ، وهذا يدل على أن القصة من اختراع الزنادقة كما قال ابن إسحق ، وربما كانت منشأ ما أورده ياقوت ، ولايخفى أن الغرنوق والغرنيق لم يعرف فى اللغة اسما لطائر مائى أسود أو أبيض أو هو اسم الكركى أوطائر يشبهه . والغرنيق (بالضم وكزنبوروقنديل وسموأل وفردوس وقرطاس وعلابط) معناه الشاب الأبيض الجميل وتسمى الخصلة من الشعر المفتلة « الغرنوق » كما يسمى به ضرب من الشجر ، ويطلق الغرنوق والغرانق على مايكون فى أصل العوسج اللين النبات، ويقال لمة غرانقة وغرانقية أى ناعمة تفيئها الريح ، أو الغرنوق الناعم المستتر من النبات الخ

ولاشىء فى هذه المعاني يلائم الآلهة والأصنام حتى يطلق عليها فى فصيح القول الذى يعرض على ملوك البلاغة وأمراء الكلام . فلاأظنك تعتقد إلا أنها من مفتريات الأعاجم ومختلقات الملبسين ممن لايميز بين حر الكلام ،وما استبعد منه لضعفاء الأحلام،فراج ذلك على من يذهله الولوع بالرواية ، عما تقتضيه الدراية (ربنا لاتزغ قلوبنا بعد إذ هديتنا وهب لنا من لدنك رحمة إنك أنت الوهاب)

الاثارة الرابعة

مسأله زيد وزينب ـ أو إبطال التبنى وتفسير الآيات فى ذلك
(منقولة من العدد السابع والعشرين من مجلد المنار الثالث)

علم القراء مما كتبناه فى وضع الحديث وأسبابه (أى فى المنار) أن من الواضعين عن سوء القصد قوماً كانوا يتظاهرون بالاصلاح أن تقبل روايتهم ، و إن منهم من كان يضع لقصد حسن بحسب ما أداه اليه فكره القاصر وعقله الضعيف ، وأن النتيجة من هذا أن قبول الحديث لايصح أن يكون موقوفا على قوة سنده وضعفه فقط ، بل تجب فيه مراعاة أمورأخرى كانطباقه على قواعد الشريعة العامة، وعقائد الدين الصحيحة وغير ذلك مما لامحل لشرحه هنا. فاذا جاءت الرواية على خلاف ذلك، كأن كانت لاتنطبق على ماجاء فى القرآن أومايليق بجلال الله وتنزيهه وحرمة دينه وعصمة أنبيائه وكرامتهم وجب رفضها وعدم قبولها سواء أطعن فى سندها أم لا

ومما يدخل فى هذا الباب مارووه فى مسألة زيد بن حارثة وطلاقه لزينب «رضى الله عنهما» وأن سببه عشق النبى صلى الله عليه وسلم لها ، فقد كانت هذه الرواية المشئومة التى لطخت بها صفحات أكثر التفاسير ولم ينظر فى اخلالها بمقام الرسالة،وما يليق بتلك الأخلاق التى شهد الله لها بالعظمة — شبهة على الإسلام ومجرئة

لغير أهله على الخوض فى النبى الأكرم ﷺ والاستدلال بذلك على عدم صحة نبوته ، حتى لا تكاد تجد كتابا من الكتب التى ألفها دعاة النصرانية فى الطعن بدين الإسلام وتنفير أهله منه إلا وهذه المسألة تكأتهم العظمى فيه بما يزيدونها من التشويه . وقد سأل أحد فضلاء تونس فى هذه الأيام (١) مولانا حكيم الأمة ، وخاتمة الأئمة ، الأستاذ الأكبر الشيخ محمد عبده مفتى الديار المصرية عن تفسير الآيات الواردة فى هذه المسألة فأجاب (حفظه الله تعالى) بهذا الجواب ، الذى هو لب اللباب ، وآية الحكمة وفصل الخطاب ، وهو بنصه :

(تفسير الآيات فى المسألة)

(وَإِذْ تَقولُ لِلَّذِى أَنْعَمَ اللهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللهَ ، وَتُخْفِى فى نَفْسِكَ مَا اللهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ ، فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاكَهَا لِكَىْ لَا يَكُون

(١) نشر هذا فى غرة شعبان سنة ١٣١٨ نوفمبر سنة ١٩٠٠ م

عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَآئِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَرًا ، وَكَانَ أَمْرُ اللهِ مَفْعُولاً)

(سورة الأحزاب ٣٣ : ٣٧)

نزل قبل هذه الآية قوله تعالى (وما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله أمراً أن يكون لهم الخيرة من أمرهم ، ومن يعص الله ورسوله فقد ضل ضلالا مبيناً)

نزلت هذه الآية فى زينب بنت جحش وهى بنت عمته ﷺ أميمة بنت عبد المطلب ، وقد خطبها الرسول على مولاه زيد ابن حارثة (١) فأبت وأبى أخوها عبد الله بن جحش ، فنزلت آية (وما كان لمؤمن) الخ فلما نزلت الآية قال : رضينا يارسول الله ، فأنكحها إياه ، وساق عنه اليها مهرها ستين درهما وخماراً وملحفة ودرعاً و إزاراً وخمسين مداً من طعام ، وثلاثين صاعا من تمر (٢)

---

(١) يقال خطب فلانة على فلان أى جعلها خطيبة له

(٢) كذا نقل شيخنا وفى تفسير العماد ابن كثير : وأصدقها عشرة دنانير وستين درهما وخمارا وملحفة ودرعا (أى قميصا) وخمسين مدا من طعام وعشرة امداد من تمر . قاله مقاتل بن حيان

فنحن نرى من جهة أن زينب كانت بنت عمة النبى ﷺ ربيت تحت نظره وشملها من عنايته مايشمل البنت من والدها لأول الأمر، حتى إنه اختارها لمولاه زوجة مع إبائها و إباء أخيها وعد إباءها هذا عصياناً ، ولا زالت كذلك حتى نزل فى شأنها قرآن ، فكأنه أرغمها على زواجه لما ألهمه الله من المصلحة لها وللمسلمين فى ذلك .

لو كان للجمال سلطان على قلبه ﷺ لكان أقوى سلطانه عليه جمال البكر فى روائه ونضرة جدته ، وقد كان يراها ولم يكن بينه وبينها حجاب ، ولا يخفى عليه شئ من محاسنها الظاهرة ، ولكنه لم يرغبها لنفسه ورغبها لمولاه ، فكيف يمتد نظره إليها و يصيب قلبه سهم حبها بعد أن صارت زوجة لعبد من عبيده أنعم عليه بالعتق والحرية ؟

لم يعرف فيما يغلب على مألوف البشر أن تعظم شهوة القريب وولعه بالقريب إلى أن تبلغ حد العشق – خصوصاً إذا كان عشيره منذ صغره – بل المألوف زهادة الأقرباء بعضهم فى بعض متى تعود بعضهم النظر إلى بعض من بداية السن إلى أن يبلغ حداً منه يجول فيه نظرة الشهوة ، فكيف نظن أو نتوهم أن النبى الذى يقول الله له (٢٠: ١٣١ ولا تمدن عينيك إلى مامتعنا به أزواجاً منهم زهرة الحياة الدنيا) يخالف مألوف العادة ثم يخالف

أمر الله فى ذلك ؟ أم كيف يخطر بالبال أن من عصم الله قلبه عن كل دنيئة يغلب عليه سلطان شهوة فى بنت عمته بعد أن زوجها بنفسه لعبد من عبيده ؟

ومن جهة أخرى: نرى أن النبى صلى الله عليه وسلم وهو الرؤوف الرحيم - لم يبال بإباء زينب ورغبتها عن زيد ، وقد كان لا يخفى عليه أن نفور قلب المرأة من زوجها مما تسوء معه العشرة وتفسد به شئون المعيشة ، فما كان له وهو سيد المصلحين أن يرغم امرأة على الاقتران برجل وهى لا ترضاه ، مع ما فى ذلك من الضرر الظاهر بكل من الزوجين ، لا ريب أننا نجد من ذلك هاديا إلى وجه الحق فى فهم الآية التى نحن بصدد تفسيرها

ذلك أن التصاق الأدعياء بالبيوت واتصالهم بأنسابها كان أمراً تدين به العرب ؛ وتعده أصلا يرجع إليه فى الشرف والحسب ، وكانوا يعطون الدعى جميع حقوق الابن ويجرون عليه وله جميع الأحكام التى يعتبرونها للابن حتى فى الميراث وحرمة النسب . وهى عقيدة جاهلية رديئة أراد الله محوها بالاسلام حتى لا يعرف من النسب إلا الصريح . ولا يجرى من أحكامه إلا ماله أساس صحيح ، لهذا أنزل الله (وماجعل أدعياءكم أبناءكم ذلكم قولكم بأفواهكم والله يقول الحق وهو يهدى السبيل) ثم قال (أدعوهم لآبائهم هو أقسط عند الله) الخ

فهذا هو العدل الإلهى أن لاينال حق الابن إلا من يكون ابنا. أما التبنى واللصيق فلايكون له إلا حق المولى والأخ فى الدين ، فحرم الله على المسلمين أن ينسبوا الدعىّ لمن تبناه وحظر عليهم أن يقتطعوا له شيئا من حقوق الابن لاقليلا ولا كثيراً ، وشدد الأمر حتى قال (وليس عليكم جناح فيما أخطأتم به ولكن ماتعمدت قلوبكم. وكان الله غفوراً رحيما) فهو يعفو عن اللفظة تصدر من غير قصد ، بأن يقول الرجل لآخر : هذا ابنى ، وينادى شخص آخر بمثل ذلك ، لا عن قصد التبنى ، ولكنه لا يعفو عن العمد من ذلك الذى يقصد منه الالصاق بتلك اللحمة كما كان معروفا من قبل .

مضت سنة الله فى خلقه أن مارسخ فى النفس بحكم العادة لا يسهل عليها التفصى منه ، ولا يقدر على ذلك إلا من رفعه الله فوق العادات ، وأعتقه من رق الشهوات ، وجعل همته فوق المألوفات ، فلا يطبيه إلا الحق (١) ولا يحكم عليه إلف (٢) ولا يغلبه عرف ، ذلك هو النبى صلى الله عليه وسلم ومن يختصه الله بالتأسى به

---

(١) اطباه - بتشديد الطاء - استماله قال ابن دريد

لا يطبينى طمع مدنس إذا استمال طمع أو أطبى

(٢) الألف بفتح الهمزة : مصدر ألف وأما الالف بكسرها فهو الآلف أى العشير

لهذا كان الأمر إذا نهى الله عن مكروه — كانت الجاهلية عليه ، أو أحل شيئا كانت الجاهلية تحرمه — بادر النبي ﷺ إلى امتثال النهى بالكف عن المنهى عنه والاتيان بضده ، وسارع إلى تنفيذ الأمر باتيان المأمور به حتى يكون قدوة حسنة ، ومثالا صالحا تحاكيه النفوس ، وتحتذيه الهمم ، وحتى يخف وزر العادة ، وتخلص العقول من ريب الشبهة .

نادى ﷺ فى حجة الوداع بحرمة الربا ، وأول ربا وضعه ربا عمه العباس ، حتى يرى الناس صنيعه بأقرب الناس إليه وأكرمهم عليه ، فيسهل عليهم ترك مالهم ، وتنقطع وساوس الشيطان من صدورهم .

على هذا السنن الإلهى كان عمل النبي ﷺ فى أمر زينب ، كبر على العرب أن يفصلوا عن أهلهم من ألصقوه بأنسابهم من أدعيائهم ، كما دل عليه قوله تعالى (وتخشى الناس) الخ فعمد النبي ﷺ على سنته ، إلى خرق العادة بنفسه ، وما كان ينبغى له (١) ولا من مقتضى الحكمة أن يكلف أحد الأدعياء الأباعد أن يتزوج

---

(١) وقوله (ما كان الخ) أى ليس من شأنه ذلك ولا من مقتضى سنته وحكمته لأن هذا تربية والتربية لا تدور إلا على قطب الأسوة وفى مسألة الحلق فى الحديبية عبرة ومثل ، فقد خالفوا الأمر بالقول حتى حلق فحلقوا

ثم يأمره بالطلاق ثم يأمر من كان قد تبناه أن يتزوج مطلقته ، ففى ذلك من المشقة مع تحكم العادة ، وتمكن الاشمئزاز من النفوس ما لا يخفى على أحد . فألهمه الله أن يتولى الأمر بنفسه فى أحد عتقائه لتسقط العادة بالفعل ، كما ألغى حكمها بالقول الفصل

لهذا أرغم النبى ﷺ زينب أن تتزوج بزيد وهو مولاه وصفيه ، والنبى يجد فى نفسه أن هذا الزواج مقدمة لتقرير شرع ، وتنفيذ حكم إلهى ، و بعد أن صارت زينب إلى زيد لم يلن إباؤها الأول ولم يسلس قيادها ، بل شمخت بأنفها ، وذهبت تؤذى زوجها ، وتفخر عليه بنسبها ، و بأنها أكرم منه عرقا ، وأصرح منه حرية لأنه لم يجر عليها رق كما جرى عليه ، فاشتكى منها إلى رسول الله ﷺ المرة بعد المرة فى تنفيذ حكم الله ولا يعجل فكان يقول لزيد (أمسك عليك زوجك واتق الله) إلى أن غلب أمر الله على أمر الانفة ، وسمح لزيد بطلاقها بعد أن مضه العيش معها ، ثم تزوجها بعد ذلك رسول الله ليمزق حجاب تلك العادة و يكسر ذلك الباب الذى كان مغلقا دون مخالفتها ، كما قال (لكيلا يكون على المؤمنين حرج فى أزواج أدعيائهم إذا قضوا منهن وطراً وكان أمر الله مفعولا) وأكد ذلك بالتصريح فى نفى الشبهة بقوله : (ما كان محمد أبا أحد من رجالكم ولكن رسول الله وخاتم النبيين وكان الله بكل شىء عليما) هذه هى الرواية الصحيحة والقولة الراجحة .

ذكر الله نبيه بما وقع منه ليزيده تثبيتا على الحق ، وليدفع عنه ما حاك فى صدور ضعاف العقول ومرضى القلوب فقال (وإذ تقول للذى أنعم الله عليه) بالاسلام (وأنعمت عليه) بالعتق والحرية والاصطفاء بالولاية والمحبة وتزويجه بنت عمتك ، وتعظه عند ما كان يشكو إليك من إيذاء زوجه (أمسك عليك زوجك واتق الله) واخشه فى أمرها فان الطلاق يشينها ، وقد يؤذى قلبها ، وارع حق الله فى نفسك أيضا فربما لا تجد بعدها خيراً منها — تقول ذلك وأنت تعلم ان الطلاق لابد منه لما ألهمك الله أن تمتثل أمره بنفسك . لتكون أسوة لمن معك ولمن يأتى بعدك وإنما غلبك فى ذلك الحياء وخشية أن يقولوا تزوج محمد مطلقة متبناه ، فأنت فى هذا تنصح له[1] (وتخفى فى نفسك ما الله مبديه) من الحكم الذى ألهمك (وتخشى الناس والله) الذى أمرك بذلك كله (أحق أن تخشاه) فكان عليك أن تمضى فى الأمر من أول وهلة تعجيلا بتنفيذ كلمته ، وتقرير شرعه ، ثم زاده بيانا بقوله (فلما قضى زيد منها وطراً) أى حاجة بالزواج (زوجناكها لكيلا يكون على المؤمنين حرج فى أزواج أدعيائهم إذا قضوا منهن وطراً) لترتفع الوحشة من نفوس المؤمنين ولا يجدوا فى أنفسهم حرجا

---

(١) « كلمة تنصح له » للناشر زادها ليصح عطف الجملة فى السياق

من أن يتزوجوا نساءً، كن من قبل زوجات لأدعيائهم (وكان أمر الله مفعولا)

وأما ما رووه من أن النبى مرّ ببيت زيد وهو غائب فرأى زينب ،فوقع منها فى قلبه شىء فقال : سبحان مقلب القلوب ، فسمعت التسبيحة فنقلتها إلى زيد فوقع فى قلبه أن يطلقها الخ ماحكوه ، فقد قال الإمام أبو بكر بن العربى إنه لايصح ، وان الناقلين له المحتجين به على مزاعمهم فى فهم الآية لم يقدروا مقام النبوة حق قدره ،ولم تصب عقولهم من معنى العصمة كنهها ،وأطال فى ذلك . وأذكر من كلامه مايؤيد ما ذكرنافى شأن هذه الروايات

قال بعد الكلام فى عصمة النبى ﷺ وطهارته من العيب فى زمن الجاهليـة و بعد أن جاء الإسلام « وقد مهدنا لك روايات كلها ساقطة الاسانيد ، و إنما الصحيح منها ما روى عن عائشة أنها قالت : لو كان النبى ﷺ كاتما شيئا من الوحى لكتم هذه الآية (و إذ تقول للذى أنعم الله عليه) يعنى بالاسلام (وأنعمت عليه) فأعتقته (أمسك عليك زوجك) إلى قوله (وكان أمر الله مفعولا) وان رسول الله لما تزوجها قالوا تزوج حليلة ابنه فأنزل الله (ما كان محمد أبا أحد من رجالكم) الآية وكان رسول الله تبناه وهو صغير فلبث حتى صار رجلا يقال له زيد بن محمد، فأنزل الله (ادعوهم لآبائهم هو أقسط عند الله) يعنى أنه أعدل عند الله

قال القاضي: وما وراء هذه الآية غير معتبر. فأما قولهم إن النبي ﷺ رآها فوقعت في قلبه فباطل، فانه كان معها في كل وقت وموضع ولم يكن حينئذ حجاب، فكيف تنشأ معه وينشأ معها ويلحظها في كل ساعة ولا تقع في قلبه إلا إذا كان لها زوج وقد وهبته نفسها وكرهت غيره فلم يخطر ذلك بباله، فكيف يتجدد هوى لم يكن؟ حاشا لذلك القلب المطهر من هذه العلاقة الفاسدة. وقد قال سبحانه وتعالى (ولا تمدن عينيك إلى ما متعنا به أزواجا منهم زهرة الحياة الدنيا لنفتنهم فيه) والنساء أفتن الزهرات وأنشر الرياحين ولم يخالف هذا في المطلقات فكيف في المنكوحات المحبوسات؟، ثم ساق الكلام في تفسير الآية على حسب ما صح في الواقعة، ولولا خوف التطويل لنقلت كلامه بحروفه

سبحان الله! كيف ساغ لقوم مسلمين أن يعتقدوا مثل هذه الروايات وقد علموا أن الله لم يدع لنبيه أن يعرض عن ابن أم مكتوم ويتصدى لصناديد قريش طمعاً في إسلامهم حتى عاتبه على ذلك في قوله (عبس وتولى) الخ الآيات مع أنه لم ينصرف عن الأعمى إلا لاشتغاله بما كان يعده في نفسه خيراً للدين، ولم يكن رغبة في جاه، ولا شرهاً إلى مال، ولا طموحاً إلى لذة؟ فلو صحت الرواية التي زعموها في شأن زينب لكان العتاب على تلك

التسبيحة بسمع من زينب ، ثم على الزواج بعد الطلاق كما أشار اليه فى قصة داود عليه السلام . وما كان محمد فى علو مقامه ورفعة منزلته من النبوة لتطمح نفسه إلى التلذذ ببنت عمه وزوجة مولاه ، ولا أن يسمعها ما يدل على شغفه بها ، ولا أن تضعف عزيمته عن قمع شهوته وكبح جماحها ، وما كان رب محمد يعلل شهوته و يرفه من هواه فيما يخالف أمره ، وهو الذى نهاه أن يمد عينيه إلى مامتع الله به الناس من زهرة الحياة ، ومن زهرتها النساء . تسامى قدر محمد عن ذلك ، وتعالى شأن ربه عن هذا علوا كبيراً

أما والله لولا ما أدخل الضعفاء أو المدلسون من مثل هذه الرواية ما خطر ببال مطلع على الآية الكريمة شىء مما يومئون اليه فان نص الآية ظاهر جلى لا يحتمل معناه التأويل ، ولا يذهب إلى النفس منه إلا أن العتاب كان على التمهل فى الأمر والتريث به ، وأن الذى كان يخفيه فى نفسه هو ذلك الأمر الإلهى الصادر اليه بأن يهدم تلك العادة المتأصلة فى نفوس العرب ، وأن يتناول المعول لهدمها بنفسه ، كما قدر له أن يهدم أصنامهم بيده لأول مرة عند فتح مكة ، وكما هو شأنه فى جميع مانهى عنه من عاداتهم . وهذا الذى كان يخفيه فى نفسه كان الله مبديه بأمره الذى أوحاه اليه فى كتابه و بتزويجه زوجة من كانوا يدعونه ابناً له كما تقدم بيانه . ولم يكن يمنعه عن ابداء ما أبدى الله إلا حياء الكريم ، وتؤدة الحليم ، مع العلم بأنه سيفعل لا محالة لكن مع معاونة الزمان

أذكر لطيفة لبعض الاذكياء جرت بمحضر منى وذلك أننا كنا نزور أحد الأساتذة الاميركانيين فى مدينة بيروت فجاء فى الحديث ذكر قوله تعالى (الذى أحسن كل شيء خلقه) فقال الأستاذ الأميركى : حتى زينب زوجة زيد بن حارثة ، يشير بقوله هذا إلى تلك الحادثة، ويعرض بعشقه ﷺ لزينب (على مازعموا) فقال له صاحبى : سبحان الله ! انكم تشتغلون بعلوم السموات والأرض ولا تستعملون عقولكم فى أقرب الأشياء إليكم ، مع أنكم فى المشهور عنكم من أشد الناس ولعاً بالبحث فى الأديان. ان الله أمر نبيه أن يتزوج زوجة من دعاه ابنا له ليبين للناس بالفعل أنه ليس كل من لقب بالابن يكون على الحقيقة ابنا ، فان كان المسيح قد دعى فى لسان الانجيل بالابن ، فليس هذا على الحقيقة ، وإنما الابن الحقيقى من ولد من أبيه ولادة صحيحة (ان فى ذلك لذكرى للعالمين) والله أعلم اه

(انتهت مقالة الأستاذ الإمام)

أحسن الله ثوابه

مقالة للمنار فى هذه المسألة

(إيضاح وخلاصة — رد شبهة مسيحى فاضل)

منقولة من ج ٢٩ ص ٦٨٤ مجلد ٣

لقد كان لما كتبه مولانا مفتى الديار المصرية فى هذه المسألة ونشرناه فى الجزء ٢٧ من المجلد الثالث للمنار أجمل وقع ، وأجل نفع ، فتقشعت به سحب الشبهات ، وانحلت عقد المشكلات. وسكنت حركة الشكوك التى كان يثور عجاجها ، وتتلاطم أمواجها وينهمر ثجاجها (١) وتتدفق أثباجها (٢) وشفيت أمراض أعيا الاطباء علاجها، وقطعت من شخوص المطاعن حلاقيمها وأوداجها وهكذا يقذف بالحق على الباطل ، فيدمغه فإذا هو زاهق زائل

ألا إن كلام الأستاذ الإمام فى علو أسلوبه ، وبديع تأليفه وتركيبه ، ورسوخ عرقه فى الفصاحة ، وبعد غوره فى البلاغـة . لم تتجل جميع مقاصده لجميع الأذهان ، ولم تنجل عرائس حسنه لكل من له عينان ، ومن الناس من أعشاه نوره ، وراعت فؤاده حوره ، فاشتبه عليه سلطان البرهان ، بسحر البيان ، فتوهم أنه

---

(١) منصبها بتشديد الباء (٢) معظمها

مسحور الواجدان لا مقتنع العقل والجنان وتخيل أنه مختلب بعبارة القلم واللسان لا مجتذب ببراعة الحجة الى قرارة الاقرار والاذعان أعنى بهذا وما قبله من استزادنا فى المسألة بيانا ، ليزداد الذين آمنوا إيمانا .

ومن قال من فضلاء المسيحيين : إن الشبهة لم تنكشف عن غير المسلمين ، و إنما غشيها من فصاحة الأستاذ و بلاغته ، و براعته فى عبارته ، نور علاظلمتها ، وشغل النظر عن تشويه صورتها ، وأن من يضع على عينيه منظارا ملون الزجاج ، ينكسر به شعاع البلاغة الوهاج ، يمكنه أن يبصر الطريقة ، و يدرك الحقيقة ، قال هذا وأنشأ ينتقد كلمات للأستاذ رأى أنها إقناعية ، وليست حقيقة واقعية . منها قول الأستاذ « ولو كان للجمال سلطان على قلبه ﷺ لكان أقوى سلطانه عليه جمال البكر فى روائه ونضرة جدته » الخ وذهب هذا المعترض فى نقض هذه المسألة إلى أن من البنات من تكون دميمة فى طور البكارة حتى إذا ما تزوجت اكتست حلل الحسن والبهاء ، والجمال والرواء ، فيحتمل أن السيدة زينب كانت من هذا القبيل ، و إن كان فى الوجود أقل القليل .

ومنها قول الأستاذ الامام « لم يعرف فى مألوف البشر أن تعظم شهوة القريب ، ولعه بالقريب ، خصوصا إذا كان عشيره منذ صغره » الخ قال : المعترض إنه يحفظ وقائع متعددة تعلق فيها الأقرباء بعضهم ببعض ، حتى كان من ذلك مالا خير فيه .

كذلك شأن من أشرب قلبه إنكار شيء أو إثباته يتعلق بالشذوذ و يتشبث بالاستثناء، و يترك القواعد العامة لا يحفل بها.

وعهدي بأذكياء المسيحيين أنهم يرون أقوى اعتراض لهم على المسلمين فى احتجاب النساء أن الحجاب والمنع من أسباب ازدياد الرغبة وقوة الداعية الى التطلع والرؤية. وأن فى الاختلاط أنسا ينتهى بالملل والزهادة، كما هو المطرد فى العادة، لاسيما بالنسبة الى الأقربين.

ورأيت من المسلمين من يستدل على صحة هذا القول بكون النفوس الى النساء المسلمات المتحجبات أميل منها إلى النساء الأوربيات، وأكثر تشوفا، وأشد تطلعا، مع أن الأوربيات فى الجملة أجمل، وزينتهن أكمل، وما ذلك إلا لأنهن معروضات على الأنظار، مألوفات للأبصار، وكل معروض مهان، والمألوف لا يعظم به الافتتان.

أحب شيء الى الانسان ما منعا ‌ ‌ ‌ منعت شيئا فأكثرت الولوع به

ولنلو عنان النظر عن هذا وذاك وننظر الى تلك الواقعة من غير ملاحظة أن من مقتضى الطباع السليمة ومن شأن النفوس الكبيرة (التى لا ينكر مناظرنا المسيحى الفاضل أن نفس محمد صلى الله عليه وسلم منها و إن أنكر نبوته) أن يقع منها الشذوذ بشدة العشق للقريب المألوف بحيث ينتهى إلى أن صاحب النفس الكبيرة المتصدى لتأسيس

دين وشريعة يزاحم عبداً من عبيده على امرأة زوجه هو بها، لعشقه لها بعد زهده فيها، وأن يدخل ذلك فى الشريعة التى يؤسسها، ثم يظهر للملأ أن الله تعالى أنبه على ذلك بمثل قوله (وتخشى الناس والله أحق أن تخشاه) ولو كانت الواقعة كما يتوهم القوم وكان محمد هو واضع القرآن ومؤلفه لما جعل نفسه ملوما، وأظهر أنه إنما أبطل التبنى فى دينه لحظ نفسه؛ وإرضاء شهوته، وجعل هذه الفضيحة مسجلة عليه فى الكتاب الذى أمر بكتابته دون سائر كلامه، وبشر بأنه ينتشر فى مشارق الأرض ومغاربها، وأنه يبقى مقروءا متبعاً مادام الناس فى هذا العالم.

قال مناظرنا: إن الاستاذ الامام كتب للمسلمين وكلامه مبنى على التسليم بنبوة محمد، وهو لا ينهض حجة على النصارى الذين ينظرون فى المسألة نظراً تاريخيا. وقد ألمعنا الى هذا من قبل، ولذلك بنينا الكلام على أن محمداً رجل مصلح باسم النبوة تنزلا جدليا، وإن كان الذين يعتقد فيهم صاحبنا وقومه النبوة ليس لهم من الأثر الاصلاحى الدينى عشر معشاره، وأما كونه مصلحا فلا ينكره منهم عاقل، وقد قال لى الدكتور فانديك الشهير: إن مبدأ الاصلاح الذى وضعه محمد هو أعظم المبادىء وأقواها وهو الوحدة فى الاعتقاد والاجتماع. ورأيت بعض من كتب فى تاريخ العرب من الافرنج جعل تاريخهم قسمين: قسما سماه (ماقبل الاصلاح المحمدى) وقسما

سماه (مابعد الاصلاح المحمدى) وكل هذا من البديهيات ، فلنرجع
إلى أصل المسألة

المخالف موافق لنا فى شىء واحدوهو أن الآيات الوادرة فى
المسألة متضمنة لإبطال التبنى الذى كانت العرب تدين به ، ولكنه
يدعى أن إبطال هذه البدعة لم يكن مقصودا أولا وبالذات ، و إنما
كان حيلة للتوسل به إلى تزوج محمد بزينب بعد أن تزوجها عتيقه
ومتبناه زيد بن حارثة ، ورآها عنده قد زادت حسنا عما كان يعهد
ولو كان الغرض إبطال التبنى ومايترتب عليه من الأحكام الجائرة
والمفاسد الضائرة ، لعهد بتنفيذ ذلك إلى غيره من أتباعه
ونجيب عن هذا من وجوه تضمنها كلام الاستاذ الإمام أو استلزمها

(الوجه الأول) من المشهود المعهود فى البشر أن العادات
والتقاليد متى صارت عامة يصعب على النفوس أن تتركها لمجرد أمر
مصلح ، ولا سيما فى أول زمن الدعوة الى الإصلاح ولا يقدم على
الابتداء بخرق العادة وتمزيق حجب التقاليد إلا أصحاب العزائم
الكبيرة ، وهم المصلحون الذين يستهدفون لسهام الانتقاد العام .
ويتحملون فى سبيل الاصلاح كل إهانة وسخرية من الدهماء وجماهير
الناس ، ليكونوا قدوة لغيرهم فى ذلك ، وقد اتفق علماء التربية على
أن يكون ملاكها وقوامها الاقتداء والتأسى ، لا القول والارشاد اللفظى

وكذلك كان شأن النبى صلى الله عليه وسلم فى كل ما أبطله من اعتقاداتهم وتقاليدهم وعاداتهم يبدأ بنفسه ثم بأقرب الناس اليه . وقد مثلنا للأول فى هامش مقالة الأستاذ الامام بمسألة الحلق فى الحديبية وكيف خالف النبى جميع الصحابة حتى حلق بالفعل فاقتدوا به ومثل له الأستاذ بإبطال الربا.

وليفرض المخالف أنه دخل فى دين جديد مقتنعا به ومعتقدا صحته ، وأن القائم بالدعوة الى هذا الدين أمره بأن يتزوج بأخته لأن دينه يحكم بذلك ، أليس يصعب عليه الامتثال أشد الصعوبة بحيث يرجح مخالفته ؟ هذا و إننا نرى أهل كل دين قد خالفوا بعض أحكام دينهم اتباعا للعادة التى صارت عامة و يصعب عليهم الرجوع إلى الأصل . و إذا كان الأمر بهذه الدرجة من الصعوبة فالعاقل لا يقدم على تكليف الناس إياه بمجرد القول خوفا من اضطرارهم الى مخالفته التى تفسد العمل وتؤدى الى خلاف المقصود

(الوجه الثاني) لو أنه صلى الله عليه وسلم عمد الى تنفيذ هذا الحكم بغيره لاحتاج إلى الأمر بعدة أمور ، بعضها أشد من بعض . ومنها ماهو خلاف تعاليمه الدينية :

(أحدها) أن يأمر بعض من تبنى بأن يتزوج ، وربما كان يقل فى المسلمين عدد الأدعياء الذين عندهم الاستطاعة الشرعية للتزوج ، مع أن الذين تبنوهم مسلمون ، وفى سن قابل للزواج وربما يقع

الأمر لغير المستطيع من حيث لا يعلم الآخر لأنه لم يكن عارفا بجميع شئون الناس الخصوصية والمنزلية . على أن من شأن من يجب أن يطاع فى كل أمر أن لا يتعرض للأمور الخصوصية المباحة إلا بالنسبة لأقرب الناس إليه بل هذا شأن جميع العقلاء وهذا الوجه أهون مما بعده .

(ثانيها) أن يأمره بعد الزواج بالطلاق والأمر بالطلاق منكر وإنما أباحه الشرع للضرورة ولذلك قال ﷺ فى التنفير منه « أبغض الحلال إلى الله الطلاق » رواه أبو داود من حديث ابن عمر رضى الله عنهما ؛ ثم ان هذا المتزوج لا يبعد أن يحصل بينه و بين من يتزوج بها من الألفة والمحبة ما يصعب معه الفراق ؛ و يتعاصى به الخضوع لأمر الطلاق .

(ثالثها) أن يأمر من كان تبنى هذا المطلق بأن يتزوج بالمطلقة ويتوقع فى هذا الأمر أمور : منها أن هذا المتبنى قد تنفر نفسه منها لذاتها بأن يستبشع صورتها ، أو يكون عارفا من طباعها ما لا يمكنه معه معاشرتها ، وقد يكون متزوجا بغيرها ولا يستطيع الجمع بين امرأتين ، ثم إن هنا ملاحظة أهم من كل ما ذكر وهو أن

تعدد الزوجات مشروط فى القرآن بعدم الخوف من ترك العدل بين الزوجات ولا شك أن الذى يريد التزوج بامرأة متبناه لمجرد الامتثال لأمر النبى صلى الله عليه وسلم يخاف من عدم العدل بين الزوجة الجديدة التى يأخذها كارها و بين الأولى التى كان آلفاً لها ومستأنساً بمعاشرتها وعند ذلك يحرم عليه النكاح

(رابعاً) انه قد يرضى هو ولا ترضى هى لأنها فتية وهو شيخ مثلا ولا يخفى شيء من هذه الأمور على ذلك الرجل العظيم الذى جاء بتعاليم وأعمال قلبت هيئة الأرض وغيرت نظام الأمم سواء كان نبيا (كما هو الواقع) أو لم يكن كما هو رأى المخالف

(الوجه الثالث) إن هذا المصلح الحكيم اختار صورة لإبطال تلك العادة الدينية الجاهلية خالية من كل المحظورات المشروحة فى الوجه الثانى وذلك بأن يزوج متبناه بامرأة يقضى العقل بأن يختار هو و إياها الفراق عن تراض لعدم الكفاءة ثم يتزوجها هو ولا شك انها ترضاه لما هو معلوم من القرابة والجمال والكمال وكذلك كان

(الوجه الرابع) إن الذى يدل مع ماتقدم على أن الأمر مقصود للنبي صلى الله عليه وسلم منذ خطب زينب لزيد (رضى الله عنهما) إلحاحه فيه وعنايته الكبرى به ، وقد خطب هو نساء ولم يتزوج بهن وتزوج

بعدة نساء ولم يذكر فى القرآن شيء من ذلك لأن القرآن كما قلنا لم يذكر فيه إلا أهم المهمات فى الدين حتى انه لم يذكر فيه هيئة الصلاة ولا عدد ركعاتها ولا تحديد أوقاتها ، فعدم مبالاته بإبائها وتمنعها وإباء أخيها لايمكن أن يكون لمصلحتها ولا لمصلحة زيد ، لأن العقل قاض بأنه لاينعم له معها بال مع هذا النفور والاباء ، وهو معلوم من أنفة أشراف العرب كبنى هاشم وبنى المطلب وهى من صميمهم ، وكانت لاترى لها كفؤا إلا النبي صلى الله عليه وسلم . فلم يبق لهذا الالحاح والتحتيم عليها بالرضى به إلا قصد إبطال تلك البدعة الذميمة بأقرب الوجوه وأبعدها عن الضرر والضرار

(الوجه الخامس) ان السورة التى ذكرت فيها القصة جاء فى فاتحتها (وما جعل أدعياءكم أبناءكم ذلكم قولكم بأفواهكم والله يقول الحق وهو يهدى السبيل * أدعوهم لآبائهم هو أقسط عند الله فان لم تعلموا آباءهم فاخوانكم فى الدين ومواليكم) الآية ، وجاء فيها بعد هذا وقبل ذكر القصة (لقد كان لكم فى رسول الله أسوة حسنة) فقد أبطل التبنى بالقول ، ولم يعمل بمقتضاه أحد قبله صلى الله عليه وسلم ، فهذا التمهيد مع ذلك التشديد ، برهان كاف على ذلك القصد الحميد ومناف لزعم الزاعمين أن قصد النبي صلى الله عليه وسلم إلى التزوج بزينب كان بعد مارآها فى بيت زيد رضى الله عنه ، وفى هذا كفاية لغير المعاند والله أعلم .

نشرنا هذه المقالة فى مجلد «المنار» الرابع بعد مناظرة فى مقالات الأستاذ الامام بيني وبين أحد فضلاء المسيحيين كما علم من صدر المقالة ، وكان يمكنني أن أزيد فى المناظرة كذب الرواية فى عشق النبي ﷺ لزينب عقب تزويجها من جهة فن الرواية ولكن هذا لا يفهمه مناظرى أو لا يصدقه وهو الحق .

الأثارة الخامسة

محاضرة أو درس عام فى العلم الاسلامى والتعليم

ألقاه الأستاذ الإمام فى تونس على ملأ عظيم من العلماء والفضلاء بطلبهم ولخصته جريدة الحاضرة التونسية الغراء ونحن ننقل عنها كما نقل المؤيد والثمرات مع شىء من التصحيح بإذن الإمام . قال بعد البسملة الخ :

ان بعض اخواننا الذين عرفناهم فى تونس قد طلبوا من الفقير مسامرة ، أو محاورة وربما كان ذلك اصطلاحا عندهم ثم قالوا درساً فسألنى بعضهم عن ذلك فقلت نعم هو درس ولكن لا تظنوا انه درس فى تحقيق مسألة علمية فان عندكم من جلة العلماء من نعترف بفضلهم فمن أراد تحقيق مسألة علمية فليراجعهم . أما هذا الفقير فرجل سائح قصدت هذه الديار للتعرف ببعض المسلمين والنظر فى أحوالهم وأمور دينهم من حيث العلم والتعليم ولذلك لما

أجبت طلبهم فى إقراء الدرس ما قصدت إقراء درس حقيقى ، ولكن التكلم فيما يختلج بفكرى من أمر التعليم والعلم والاعراب عما فى ضميرى مما أتمناه لإخواننا المسلمين من التقدم فى العلم وقد رأيت فى بلاد الإسلام التى سحت فيها عدة أناس يشتغلون بالعلم ولكنى وجدت عند الاغلب اشتباها فى ما هو العلم الذى ينفق الوقت فى تحصيله ، هذا فيما يخص الأمر المهم الذى كررته لكم ولا زلت أكرره من أهمية التعليم حتى ينتج ذلك التكرار ما نتمناه من التقدم مادام الناس فى حاجة إلى التكرار

ثم ان هناك مسألة مشتركة بيننا و بينكم عامة فى سائر بلاد الإسلام وهى مسألة الرضا بالموجود ولها تعلق أيضاً بالتعليم ، فإذا ذكرت نقصاً أو عيباً فى طريقة أو فى حالة من الأحوال قيل لك : ماذا نصنع ونحن ناس متوكلون على الله وهذا مراد الله من عباده ؟ ، وهو غذر المقصر عند تقصيره فى بلاد الاسلام ،وعون على ما نراه من النقص فى طرق تحصيل العلم . ولذلك أردت ضمه إلى مبحث التعليم

معنى العلم

أما الكلام فى معنى العلم فليس الغرض منه الخوض فيما اصطلح عليه علماء السلف الصالح أو غيرهم من المتكلمين أو

الفلاسفة أو غيرهم حتى من الزنادقة ، لأن هذه ألفاظ اصطلاحية طالما شغلت أهل العلم بتغيرها والأخذ والرد فى معانيها ، مع أن واضعيها انما حددوا بها المعانى حتى تنضبط و يسهل تناولها والوصول إليها ، ولكن يصح أن يقال فينا وفيهم انهم أرادوا خيرا فاستعملنا شرا ، ولذلك أترك الألفاظ الاصطلاحية وأتكلم فى معنى العلم من حيث هو معروف فى الكتاب والسنة وسيرة السلف الصالح ، وعلى لسان العامة والخاصة .

العلم جاء ذكره فى قوله تعالى (هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون ؟) الآية ـ وهو استفهام انكارى معناه أنه لا يستوى عالم وجاهل ،وقال تعالى(هل تستوى الظلمات والنور؟) أى إن الظلمة لا تساوى النور ، فبين لنا تعالى أن الظلمة مثال لحال من لا يعلم ، وأن النور مثال لحال من يعلم ، فتبين من ذلك أن عدم العلم يشبه الظلام ، ونحن نعلم ما يكون من الانسان إذا اشتد به الظلام وهو سائر فى الطريق يقصد غاية معلومة ، فان الظلام يعمى عليه الطريق وربما سلك طريقا يبعده عن مقصده وقد يصادف مهواة فيسقط فيها فتدركه هلكته قبل الوصول إلى غايته .

وهذه حال الجاهل بوسائل أى غاية من الغايات التى يعرض للانسان قصدها فى حياته ، فكل من طلب غاية فى

حياته بدون علم لا يصل إليهـا . فيؤخذ حينئذ من هذه الآية الـكريمة أن الله تعالى بين لنا أن العلم للانسان كالنور لا بمعنى أن العلم سراج أو مصباح وانما ذلك مثل الحال من يعلم الطريق الموصلة له إلى مطلبه والوسائل المؤدية إليه . فان حاله يشبه حال من يمشى و بين يديه نور يبين له السبيل و يكشف له مافيها من الموانع فيتجنبها أو يذللها حتى ينتهى إلى غايته ، ظافرا بعافيته وسلامته . لأن الآيات والاعلام المنصوبة لا يراها المغمور بالظلام و إنما يراها المبصر بالضياء والنور :

ولما كان العلم ضوءاً يهدى إلى الخير فى الاعتقاد والعمل كان أول ما نزل على النبى الأمى الذى لا يقرأ ولا يكتب قوله تعالى (اقرأ باسم ربك الذى خلق * خلق الإنسـان من علق) الآيات فافتتح الله الوحى بتعليم القراءة : والقراءة تعلم : وجاء فى الحديث الشريف أنه قال فى أول مرة « ما أنا بقارىء » وما زال الملك به حتى قرأ الآيات :

ثم بعد أن أمر تعالى بالقراءة من لا يقرأ عادة و بين له أن الذى يأمره بالقراءة هو الذى خلق الخلق كله وهو قادر على أن يقرئه بعد أن لم يكن قارئا ، وأنه الذى خلق الإنسان الحى الناطق الفصيح عما فى نفسه من علق أى دم جامد لا عقل فيه ولا نطق ، فهو قادر على أن ينشىء فيه القراءة والعلم وان لم يسبق له تعلم —

بعد أن ذكر هذا قال (اقرأ وربك الأكرم الذى علم بالقلم * علم الانسان مالم يعلم) فخص من العلم العلم بالقلم والكتابة تنويها بشأن التحرير والبيان ، وتنبيها على عظم فائدته، وهو انما يكون بعلم اللسان والبراعة فيه .

لا نريد من العلم تصور القواعد ، وانما نريد منه ملكة الافصاح والبيان وكون المراد منه هذا أمر بديهى ، إذ لولا الكتابة لما وصلنا إلى درجة من الدرجات التى نراها ، فافتتاح الله تعالى الوحى بطلب العلم والثناء عليه سبحانه بأنه هو الذى علمه ووهبه الانسان ارشاد إلى فضل العلم وحث على تحصيله خصوصاً العلم بالقلم .

فالعلم ما يبصر الإنسان فى الغاية التى يطلبها ويهديه إلى الحق الذى هو معقد النجاة قال تعالى (ومن آياته خلق السموات والأرض واختلاف ألسنتكم وألوانكم إن فى ذلك لآيات للعالمين) ولم يقل للجاهلين أو الغافلين ، فاذا كان للعلم هذه المزية فلا يصح أن يكون العلم الممثل له بالنور إلا علم إرشاد وتبيين : ثم جاء فى الأحاديث والأدعية المأثورة قوله ﷺ « اللهم انفعنى بما علمتنى ، وعلمنى ما ينفعنى وزدنى علما »[1] كأنه يقول اللهم اجعل علمى علما صحيحا ينطبق على مابينته فى كتابك ، ويروى

(١) المنار : رواه الترمذى وابن ماجه عن أبى هريرة

أنه قال « إذا أتى على يوم لا أزداد فيه علما فلا بورك لى فى طلوع شمس ذلك اليوم »[1] ثم إننا نجد فى الآثار وأقوال العلماء غير ذلك مما يطول ذكره كما تجدون فيما يدور على ألسنة الناس عند ذكر العلم ما يرشد إلى أنهم لا يفهمون من العلم إلا معنى التبصر فى أى أمر من الأمور والإتيان به على الوجه الأكمل بقدر الاستطاعة

فتبين من ذلك إذاً أن معنى العلم الحقيقى الذى أثنى الله عليه وميز به المهتدين من الضالين هو الكشف عن الأمر الحقيقى بحيث إذا أراد أن يميلك عنه مميل لا يقدر على ذلك كمن عرف طريقا موصلة إلى غاية فلا يعدل عنها مهما حاول مضله ، فلا يكون العلم حقيقيا ولا تنبعث النفس إلى تحصيله إلا إذا كان كذلك بالنسبة إلى الغاية المطلوبة منه . فاذا وجدنا من العلم ما يوصلنا إلى البصيرة بما نقصد من الغاية فى مدة قصيرة كيومين مثلا ورأينا ما سمى علما ولكنه انما يوصلنا فى مدة أطول كاربعة أيام مثلا كان لنا أن نعد الأول علما حقيقيا لأنه أرشدنا إلى أقرب طريق مؤدية إلى الغاية ، وان نعد الثانى غير علم لأنه عاقنا عنها ، وأوجد لنا العثار فيها ، فالعدول إليه

---

(١) رواه الطبرانى فى الاوسط وأبو نعيم فى الحلية وابن عبد البر فى العلم من حديث الزهرى عن سعيد ابن المسيب عن عائشة وقد طعنوا فى سنده ولذلك قال الاستاذ « ويروى »

سقوط فى الضلة ، وأولى بأن يسمى ضلة علم يقصد بتحصيله غاية ثم هو لا يؤدى إلى تلك الغاية بالمرة بعد انفاق الزمن الطويل فى تحصيله ، فتسميته علما من الخطأ الذى لا يتفق مع ما جاء فى الآيات الكريمة ، والأحاديث الشريفة ، واستعمال الخاصة والعامة .

ولكن من الناس من يقول لك العلم يطلق باطلاقات ثلاثة : الادراك والقواعد والملكة فتحصيل القواعد وإن لم تحصل الملكة يسمى علماً على الحقيقة فاشتغالنا بتحصيله اشتغال بتحصيل العلم . غير ان هذا القائل لم يراع ماذا قصد المسمى للقواعد علماً ، فانه لم يضع لها هذا الاسم إلا لانها توصل إلى الغاية فى رأيه ، فإذا استعملت لغير الغاية فقدت معناها وعدت من الشواغل عن العلم المطلوب . فان شاء سمى هذه الشواغل جهلا لانها أضلته عن العلم ، وإن شاء فليسمها علما كما يهوى لا كما يعرف الناس .

العلوم الاسلامية

من هنا يمكنني أن أتخلص إلى الكلام على حالتنا في تحصيل العلم في جميع بلاد الإسلام ، وهو موضوعنا فنقول :

عندنا علوم شتى نشتغل بتحصيلها ونسميها العلوم الإسلامية وإنما سميت بهذا الاسم لان موضوعاتها لها علاقة بدين الإسلام كالفقه وأصوله وهو علم يبحث فيه عن طرق استنباط الأحكام من أدلتها ، وكعلم التوحيد وهو علم إسلامي يبحث فيه عن وجوده تعالى وصفاته الكمالية ، ثم العلوم النقلية كالتفسير والحديث واللغة والنحو والمعاني والبيان والبديع وما سمي علم الوضع .

ومن هذه العلوم وسائل ومقاصد نحن مشتغلون بجميعها وسائل ومقاصد . ولا حاجة إلى الكلام في تبيين طرق الاشتغال بها عندنا وعندكم : إنما الكلام في أمر عام معروف عند الجميع وهو طرق تحصيل هذه العلوم .

علم النحو وتدريسه

فالنحو مثلا يدرس بتونس بكتبه التي تقرأ بمصر كالقطر

والاشموني والصبان ، وله غايتان . الأولى التمكن من فهم كتاب الله وكلام نبيه عليه الصلاة والسلام وكلام سلف الأمة ، والثانية اصلاح اللسان من الخطأ . نشتغل بعلم هذه القواعد فى هذه الكتب ثم نشغل أنفسنا بالبحث فى عبارة المؤلف هل تدل على ماقصده ؟ فقائل يقول نعم ، ويأتى قائل آخر يقول لا ، وقائل ثالث يرجح قول نعم ، ورابع يرجح قول لا ، ونحو هذا مما ترونه فى التقارير المكتوبة على الحواشى ، ويطول بذلك الزمان وتضيع الفائدة ، وينصرف الذهن عن القاعدة ، ثم بعد الفراغ من العلم لا يجد الطالب تقويماً فى لسانه ولا صحة فى تحريره ، ولا قدرة على فهم ما جاء فى كلام العرب أو فى كتاب الله وكلام نبيه صلى الله عليه وسلم .

ويزيد الأمر صعوبة طريقة الابتداء التى اختاروها فى تدريس النحو فان الأستاذ يبادىء الطالب وهو لا يعلم شيئا من اصطلاحات العلم بتحقيق المسائل وتفتيتها كما يقولون كأنه عريق فى العلم ، ولا يراعى مقدار استعداده للفهم . وقد وقع لى أنى مكثت سنة ونصف سنة لا أفهم شيئا من شرح الكفراوى على الاجرومية فحملني عدم الفهم على الهرب من طلب العلم لتمكن اليأس من نفسى ، ولكن لأمر أراده الله قهرنى والدى

على الرجوع إلى الطلب فهر بت فى الطريق ولكنى صادفت فى مهربى من علمنى كيف أطلب العلم من أقرب وجوهه فذقت لذته واستمررت فى طلبه ، فعلى الأستاذ أن يكون بيده ميزان يزن به ذهن الطالب ودرجة استعداده لقبول ما يقول ، فيجب على المدرس أن يتنازل مع المبتدىء إلى درجته ثم يرتقى به شيئا فشيئا حتى يصل إلى الدرجة التى يتمكن فيها من ادراك دقيق المعانى ، وهذا الفن — فن معرفة درجات الاذهان وكيفية الاستفادة — فن مخصوص تستلزم قراءته ست عشرة سنة إذا كان شرح المطول يحتاج فى قراءته إلى ثمان سنين ، ومن أنفق أوقاته فى هذا الفن الذى ألفت فيه الكتب و بسطت فيه فانى أضمن له ثوابه عند الله تعالى أضعاف أضعاف ثواب من يختم اقراء المطول ، لما أنه يرشدنا إلى الغاية التى طالبنا الله بها .

علم المعانى والبيان

(والغاية منه)

علم المعانى والبيان علمان يبحث فيهما عن البلاغة وهى مطابقة الكلام لمقتضى الحال ، فما هو ذلك المقتضى ؟ نجد الناظر فى هذا الفن أو المعلم له يقول : هل تتحقق البلاغة بمطابقة الكلام لمقتضى الحال فى الجملة أم لا بد من مراعاة جميع مقتضيات الأحوال ؟ فان كان الأول فكيف يعد بليغا من لم يراع الحال كما ينبغى وهو يعلم أنه غير مراع له ، وإن كان الثانى فلا تختلف طبقات البلاغة ولا يكون لها أعلى وأسفل . ويطول البحث ويكثر الجدال فى ذلك وينصرف الذهن عن البلاغة نفسها ولا يجد الباحث مايرده اليها ، وهكذا نجد البحث يطول فى الغالب إلى حد يشغل الذهن عن الغرض المقصود مع أنه لو قال الاستاذ : البلاغة صفة فى الكلام تبلغ المتكلم مراده من نفس السامع على قدر طاقته ، ثم إنها تكون بمراعاة حال المخاطب وذلك ينقسم إلى قسمين : مايتعلق بفهم الكلام ، وما يتعلق بالمعنى الذى سبق له الكلام فما يتعلق بنظم الكلام هو موضوع علم المعانى ، ثم ينطلق فى بيان ذلك وتقرير المعانى التى سماها الامام عبد القاهر الجرجانى واضع هذا الفن معانى النحو .

وأما القسم الثانى وهو حال المخاطب بالنسبة إلى المعنى الذى سبق له الكلام ، فتتوقف معرفته على أمور كثيرة ومعارف جمة يتوصل بها إلى معرفة طبائع الأشخاص ومداخل المعاني إلى قلوبهم فمن أراد أن يقنع مخاطبه بعقيدة مثلا فعليه أن ينظر ، فان كان المخاطب ممن لايقنع إلا البرهان فعليه أن يقيمه له ، و إن كان ممن لايدرك البرهان ولكنه يقنع بالمسلمات مثلا سلك معه له تلك السبيل ولا يكون بليغا إلا إذا لاحظ ذلك مع مايتعلق بالنظم : لوسلك الاستاذهذا المسلك لجمع المعانى الكثيرة إلى دهن الطالب ووجه نفسه إلى الغاية المطلوبة منها

ثم إنه بعد ذلك كله لايعد معلما للبلاغة إلا إذا وجه فكر الطالب إلى ممارسة كلام العرب ، ونسج فى التحرير والتعبير على مانسجوا عليه ، حتى تحصل ملكة البلاغة ويصل إلى الغاية من علمه ، فان غاية هذا العلم تشمل كلا أمرين : الأول أن يكون الطالب فصيحا بليغا فيما يكتب أو يخطب ، والثانى أن يقيس بلاغة البلغاء ببلاغة القرآن فيدرك حقيقة الإعجاز وهذا الأمر الثانى هو فى الحقيقة ثمرة الأمر الأول ، فان من لم يكن بليغا بالملكة والعمل لايمكنه أن يميز بين طبقات البلاغة

أسهل طرق تعليمه

سئل الأصمعى أى الرجلين أشعر ؟ أمسلم بن الوليد أم أبو نواس ؟ فحكم لأبى نواس ، فقيل له إن أخاك أبا عبيد يحكم لمسلم بأنه أشعر فقال : إن أبا عبيد يروى الشعر ولكنه لم يكابد مشقة العمل فى صناعته فليس أهلا للحكم . وهذا قول حق فان من لم يذق لم يعرف

وأما مايظن من أنه يتيسر للطالب بعد معرفته اصطلاحات علم المعانى أن ينظر فى كتب التفسير كالكشاف مثلا ، و يعرف مايقول الكشاف فى وجوه بلاغة الآية ، و بذلك يكون ممن عرف بلاغة القرآن و إعجازه ، - فليس من كلام المحصلين ، لأنه لو كفى ذلك لما كانت حاجة إلى صرف الزمان الطويل فى تحصيل علم المعانى ، بل كان لنا أن نقول : ان القرآن معجزة لأن صاحب الكشاف قال إنه معجز ، وننتفع بزماننا فى تحصيل ماهو أنفع وذلك مما لا يعقل

ورب قائل : إن المتكلم اليوم يقول ذلك من قبيل من يأمر غيره بالبر ولا يأتمر به ، فقد عرض بنفسه جزافا بالقاء خطبة على أناس لا يدرى أخلاقهم ، ولا يدرى مايقولون بعده ، ولا يعرف مواضع الخطاب من أنفسهم ؟

فالجواب : نعم لم أقف على هذه الامور تفصيلا ولكن مدة إقامتي بهذه الحاضرة كانت مدة اجتماع بأفاضلها وعلمائها ، و بذلك حصلت لى خبرة إجمالية فخطر ببالى أن ألقى جملة فيما يطابق مقتضى الحال ، وفى ظنى أن ما أقوله إن لم يقع موقعا حسنا من نفوس جميع السامعين فلا أقل من أن يستحسنه بعضهم وذلك يكفينى فى مطابقته لمقتضى الحال .

اختلط علينا الأمر بالنظر فى المعانى الاصطلاحية وكثرة البحث فيها ، وانقلب الغرض منها إلى مصاب نزل بنافى علومنا وعقولنا ، فانصرفنا بها عما طلب منها ، ولهذا يلزمنا أن نأخذ مأخذاً فى العلوم يسهل تحصيلها و ييسرها على الطالب ، وفى ظنى أنه إذا هذبت طرق التعلم لطالب علم البلاغة مثلا أمكنه أن يبلغ الغاية منه فى ثلاث سنين وكذلك من أراد بلوغ الغاية من النحو لايحتاج إلى أكثر من ذلك بحيث يصدر الطالب بعدهذا فصيحا بليغاً مميزاً بين طبقات البلاغة شاعراً بمعنى إعجاز القرآن قادراً على فهم ماجاء فى كلام السلف والانتفاع به فيما يصلح معاشه ومعاده

وجملة القول إن الغاية من هذه العلوم العربية هى أن يبلغ المرء بالتعلم مبلغا كان عليه العربى بالسليقة وهذايحصل بما قدمناه

ومما يلزم التنبه إليه فى التعليم أنه من حق الأستاذ أن يفتح للطالب باب النظر بنفسه فى العلوم ، فيبين له القاعدة مثلا ثم يطالبه بما يراه فى انطباقها على جزئياتها فى العمل ، فانه إذا عوده على أن يقول له كل شىء . وأن يقوده فى كل أمر ، وقف ذهنه عند حد الاتباع ، وصعب عليه أن يحقق أمراً بنفسه ، فعليه أن يطالبه بالعمل دائما و يعلمه طريقة معرفة الخطأ والرجوع إلى الصواب . وهذا هو ما يطلب من الدرس بين يدى الأستاذ حتى تحصل ملكة التمييز .

وأما الوصول إلى غاية الكمال فى العلم بقدر الامكان فأمره موكول لاجتهاد الطالب بعد مفارقة الدرس . ووقوف ذهن هذا المنقاد فى كل شأن عن معرفة الأمور بنفسه من الأمور المحسوسة .

فمن ذلك انى لما جئت هذا البلد كنت أمر من طريق قصيرة من محطة سكة الحديد إلى البيت ذهابا و إيابا ولكن مصحوبا بالسيد خليل أبو حاجب ، وقد رأيت أمس اليوم أن أذهب إلى المحطة راجلا ، فبعد أن مضيت فى طريقى خطوات قيل لى : ان هذا ليس هو الطريق إلى المحطة : فرجعت إلى طريق آخر وطال على السير حتى صعب على الرجوع إلى المنزل لتشعب الطريق على ، واضطررت إلى سؤال بعض المارة عن عن المحطة فدلنى عليها فاذا بينى و بينها أطول مما بينى و بين

البيت الذى خرجت منه . ثم بعد عودى إلى البيت خرجت ماشيا مرة أخرى بعد نحو ساعة فاهتديت إلى طريق المحطة ، ولكن وقع لى اشتباه على مقربة منها : ولم تزل الشبهة إلا بسؤال مار ، وأما بعد ذلك فانى لا أضل فى هذه الطريق أبداً ، فالعصمة من الضلال إنما تأتى فى الحقيقة من عمل العقل وحده مع الاستعانة بما أرشد إليه المرشدون الراشدون

الغاية من علم التوحيد

ومن العلم ما يكون العلم والعمل به واحداً كعلم الكلام ، فان المقصد منه إنما هو تحصيل اليقين بمسائله كثبوت الوجود لله تعالى وصفاته الكمالية التى ورد النص باثباتها له ، ودفع شبه الملحدين الذين ينكرون ثبوت شىء منها ، وثبوت بعثة الرسل صلوات الله عليهم أجمعين .

فهذا العلم إن جرينا فى تعلمه على التقليد فى الدليل كالتقليد فى النتيجة ، واكتفينا بفهم ما جاء من الأدلة على ألسنة من كتبوا فيها ، أعرضنا عن الغاية من وضعه ، لأن اليقين لا يحصل بقراءة الادلة وخزنها فى الاذهان ، وإنما يحصل بالاستدلال الصحيح وإدراك العقل وجه الدلالة من نفسه بدون تقليد ، وإنما يعد النظر فى دليل المستدل السابق معيناً ومهيئاً للعقل إلى

تصحيح النظر ، فالطريقة التى يجرى عليها أغلب المعلمين ليست من غرض علم الكلام فى شىء

ومن الناس من إذا سألته فى أمر يتعلق بعقيدة من العقائد فاجأك بقوله : لا تقل ذلك فتكفر أو تعتزل أو ما أشبه ذلك ، وهو سلاح يتخذه المرتابون فى عقائدهم ترسا يدفعون به ما يخشون من الشبه التى تزلزل عقائدهم ؛ ولكن هذا الدفاع يدل على ارتياب صاحبه فى عقيدته قبل الدفاع ، فان صاحب اليقين يرتاح إلى كل ما يسمع ، فان وجد عند مخاطبه شبهة أمكنه أن يزيلها من نفسه ، وتلك الطريقة من طرق الدفاع عن العقائد هى التى أغلقت دون المسلمين أبواب العلم ، فانه كلما لاح نور إلهى فى يقين الطالب يهديه إلى طلب الحق وجد من هذه الكلمات كالاعتزال والفلسفة ما يخمد ذلك النور فيه ، ومن سوء الاستعمال فى تعليم هذا العلم أن يعلم الطالب متن السنوسية مثلا وهو لم يحصل شيئا من مبادىء العلوم : فيقال : ان الحكم العقلى ينقسم إلى ثلاثة أقسام ، الواجب ، والمستحيل والجائز ، ثم تقرأ له هذه الأقسام بالتعاريف الاصطلاحية وهو على جهل تام بما يعده لفهم معنى الحكم فضلا عن أقسامه ، فيضطر الطالب إلى حفظ هذه الألفاظ بدون أن يحصل من معناها إلا على أخيلة لا تنطبق على حقيقة

وقد قال المتقدمون انه لا ينبغي أن ينظر فى علوم الـكلام إلا بعد تحصيل مقدماتها والاستعداد لفهم طرق الاستدلال حتى لا يضل الطالب بالنظر فيها وهو على جهل من وسائل فهمها ، فاللازم الأخذ بأحد أمرين إما أن يستدل الناس بالأكوان على مكونها ، وبالآثار على المؤثر فيها لينالوا بذلك اليقين فيما يعتقدون كل على حسب استعداده — فالعامى مثلا يستدل بما بين يديه من نبات وحيوان على حسب ما يظهر له فى نظامها ، والسيد على الرضا يكتب كتابا فى التشريح يقول فى آخره انه عرف بذلك وجود الله وأنه المنفرد بالتصرف فى هذا الـكون . وإما ان يعلم علم الـكلام على طريقة تـكفل الانتفاع به فى الوصول إلى اليقين الذى لا يقبل التزلزل ، والايمان الذى يملأ القلب خشية من الله ورجاء به وخضوعا له

وأما طلب هذا العلم بمجرد قراءة كتبه ومعرفة مادلت عليه عبارتها فقط فهو فى الحقيقة مما يصد عن اليقين ويبعد عنه، خصوصاً إذا خاف الناظر من أن يقال إنه فيلسوف أو معتزلى أو ما أشبه ذلك، فانه لا يقين مع التحرج من النظر ، وانما يكون اليقين باطلاق النظر فى الأكوان طولها وعرضها حتى يصل إلى الغاية التى يطلبها بدون تقييد كما هدانا الله إلى ذلك فى كتابه فإنه يخاطب الفكر والعقل والعلم بدون قيد ولا حد ، ووقوفنا عند حد فهم العبارة

مضر بنا فى العلم ومناف لما كتبه أسلافنا وما تركوه لنا من جواهر المعقولات فى الكتب النفيسة المستودعة بخزائننا التى أصبحت اليوم أكلة للسوس وفراشا للاتربة ، لا نمد أيدينا لنستلبه منها أو لنزعج السوس عن أكلها واتلافها . أنفس مافيها فر من بين بين أيدينا ورصعت به خزائن أمم أخرى أصبحت الآن تنعت بأمم النور ، ولو طلبناها لم نجدها .

وربما اعتذر الطالب عن قبول النصيحة بأنه لامناص له عن صرف الزمان فى قراءة المطول ونحوه مثلا لأن غيره (ككتاب الصناعتين) ليس مما قرره القانون ، أو لأن الأستاذ لايريده ولأنه يبغى أن يكون عالماً مشهورا ، وان يكون كذلك فى نظر العامة إلا إذا قرأ المطول بحواشيه فى المدة المعلومة أو فى أطول منها ولكن هذا لايصح عذراً ، ولست أريد بنفى العذر أن أحمل الطالب على عصيان أستاذه أو حرمانه مما يطلب من الشهرة بين قومه ، بل أريد أن أنبه إلى سلوك طريق وسط ، وهو أن يجمع بين الحضور فى درس الاستاذ وتحصيل حقيقة العلم فيطالع درس الاستاذ ويضم إلى ذلك مطالعة شىء من الكلام البليغ وتحرير ماينسج على منواله فى تحصيل الملكة المطلوبة .

ولقد عرض لى مايعرض للطلبة اليوم ، وكنت أتمنى أن أبلغ من الشهرة مابلغه غيرى ، فحضرت درس تلك الكتب من

اشتغالى باستكمال ما أردت من العلم — على أن طلب الشهرة فى العلم إنما هو عند شعور النفس بشىء من الغرور، فاذا أدركت حقيقة العلم نسيت شهوة الشهرة، وأدركت أنها بمنزلة من الجهل تقضى عليها بتحصيل العلم للعلم والعمل به فى سائر الأوقات، وعلى أى الحالات.

للطالب أو الأستاذ أن يستعيذ من هذه البدع التى يراها جديدة ويقول إنها بدع مخالفة لسنة السلف الصالح التى لا نريد أن نغيرها لأنها لو لم تكن مفيدة لما سنها أسلافنا فما لنا إلا اتباعها، وعليه يكون مثلى كمثل ذلك المغنى على مسمع جماعة من الأعاجم بكلام مجنون ليلى إلى طلوع الفجر فقيل له: بالله عليك غن لنا عن ليلى ومجنون! فقال: إن الغناء كان فى ذلك، قالوا ولماذا لم تعلمنا من قبل حتى نفرح؟

ذلك أن الطريقة التى نشير بها هى طريقة أسلافنا الأقدمين، فالعود اليها إحياء لسنتهم، وعمل بآثارهم، فلما كان أسلافنا جارين فى تعليمهم على تلك الطريقة القويمة كان نور العلم يضىء لهم سبلهم إلى سعادتهم فى معاشهم ومعادهم، وكانت الأمم التى تعد نفسها اليوم حاملة مصابيح العلم تستضىء بنورهم.

يقول القائلون: إن طلب تغيير الطرق اعتناء بالجديد، وولوع

بالبدع أو نزوع لها — وليس الامر كذلك فان الجديد والبدعة هو مانراهم عليه وقد ظهر أثره، وعم ضرره، فالقديم الحقيقى هو ماندعو اليه، ولا نجاح لنا إلا بالتعويل عليه.

التوكل

بقيت مسألة نبهنا عليها فى أول الأمر وهى أن الواحد منا إذا لاح فى ذهنه نور إلهى يرشده إلى طريق العلم يأتيه معارض يقول له إن الحالة الحاضرة هى ماقدر الله لاحيلة لنا فيها، فالمرء متوكل على الله مسير بحسب القدرة، فعلينا بتسليم أمورنا اليه تعالى والتوكل عليه، و بذلك ينطفىء النور الذى لاح بذهنه، و بعد أن كان خطر بباله داعى العمل، ينزع للبطالة والكسل والعجب أنهم يظنون هذه الوساوس من العقائد الدينية، ولكن الدين يتبرأ منها، وما للدين عدو أضر من أمثال هذه الاعتقادات.

نرى النبي صلى الله عليه وسلم وهو إمامنا وقدوتنا لما بعث فى دياجير الجهل، وتحكم سلطان الشرور، وقبائح العادات فى الأمم التى أرسل اليها لم يقل إن ذلك ما أراده الله، ولم يسلم أمره للقدر بترك العمل، وكذلك الصحابة رضى الله عنهم أصابهم من الآلام فى السعى ما أصابهم، مع أنهم أشد الناس توكلا على الله، وأكملهم تمسكا بالقدر فى طريق الحق، فاذا كانوا قدوتنا كما هو الحق فلماذا

لانقتدى بسيرتهم وننبذ وساوس المبطلين ، وهذيان العمى والمغفلين ؟ والله قد دعانا إلى طريق الحق، والتواصى بالحق و بالصبر وحملنا على ذلك (إن الانسان لفى خسر إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر) فالذين فقدوا التواصى بالحق والصبر هم بلا شك خاسرون .

الاحتجاج على ترك العمل بالقدر من عقائد الملحدين ، وقد جاء الكتاب الكريم بتشنيع اعتقادهم والنعى عليهم فيه . وقد حكى لنا ماكانوا يقولون من نحو «لو شاء الله ما أشركنا ولا آباؤنا ولا حرمنا من شىء » فلا يسوغ لأحدنا وهو يدعى أنه مؤمن بالقرآن أن يحتج بما كان يحتج به المشركون من يزعم أنه متوكل من المتظاهرين بالصلاح فهو كاذب زنديق لأنه إنما يدعى التوكل إذا طولب بأمر فيه مشقة عليه ، أو يجد فى نفسه عجزاً عنه لاسيما إذا كان فى مصلحة عامة فهو يرضى بما يجد فاذا رجع أولئك المتبتلون إلى منافعهم الخاصة لم تجد للتوكل فى نفوسهم أثراً فهم يغشون وَيخادعون و يحتالون لتحصيل ما به يعيشون ، أو ما به على الناس يظهرون وحينئذ لا يرجعون إلى التوكل ، فهم كذبة لا يصح الاقتداء بهم . وكفانا قدوة وخير أسوة سيد المتوكلين صلى الله عليه وسلم فانه كان على شدة توكله واعتصامه بالاستعانة بالله جل شأنه لا يفتر عن العمل فى الدعوة إلى الحق وحمل الناس عليه

يحتج بعض الناس على كسلهم بقوله ﷺ « لو أنكم تتوكلون على الله حق توكله لرزقكم كما يرزق الطير تغدو خماصاً وتروح بطانا [١] » ويفسرون ذلك بأننا لو ألقينا أثقالنا على الله وتركنا أسباب عيشنا فى كسبنا ومأكلنا ومطبخنا ومرقدنا لرزقنا كما يرزق الطير ، ولكن هذا الفهم خطأ بعيد عن المعنى المراد ولولا ذلك لقال ﷺ لرزقتم كما ترزق الطير تلبث فى أعشاشها وتفتح أفواهها فتصبح خماصا وتمسى بطانا . يظنون أن هذا الحديث حث على البطالة وترك العمل مع أنه جاء للحث على العمل

والكلام فى معنى حق التوكل ظنة ترك السعى بالمرة وهو خطأ محض ، فالمراد من حق التوكل أن يعتمد الانسان على الله سبحانه وتعالى مع اتباع سننه التى سنها فى الطلب فيحصل الصالح من أسباب مطلوبه ماجعله الله سببا ، ويدقق النظر فى ذلك ماشاء حسبما طالبه الله تعالى به .

ثم بعد أن يستعمل الأسباب يناجى ربه بسره : أن قد أتيت بما فى استطاعتى على مقدار ماوهبتنى ، وما بقى مما لا أعلم ولا أملك فهو فى يدك ، فأعنى بقدرتك ولا تحرمنى معونتك :

(١) رواه أحمد والنسائى والترمذى وصححه وغيرهم

ثم يمضى فى عمله ، هذا هو حق التوكل . وقد أشار إليه ﷺ فى قوله : « تغدو خماصا وتروح بطانا » فانه أراد بذلك أن الطير إنما تسير فى تحصيل معاشها على الالهام الذى أودعه الله فيها . ألهمها معرفة الأماكن التى فيها أقواتها كما ألهمها الغدو إلى تلك الأماكن لتصيب أقواتها منها فهى تعمل بارادتها على ذلك الشعور الذى منحه الله إياها ، فحق التوكل لا يتم لنا إلا بأن نجرى فى أعمالنا على مايقوم عندنا مقام الإلهام عند الطير ، والذى يقوم عندنا مقام الالهام هو العقل . فلا نكون متوكلين حق التوكل حتى نستعمل نفوسنا فى الوسائل التى توصلنا إلى بلوغ الغاية من أعمالنا ، وأن نجيد الاستعمال حتى لا يقع لنا ضلال فى طرق الوصول إلى المقصود . فالاعتماد على الله بهذه الطريقة كافل نجاح الأعمال .

الخاتمة

بهذه الوسائل يسهل علينا التوفيق بين السعى والتوكل ، ولا سيما فى تحصيل العلوم وهى كثيرة ، وأولاها بالتقدم فيما اعتقد علوم لساننا العربى فان إصلاح لساننا هو الوسيلة المفردة لإصلاح عقائدنا ، وجهل المسلمين بلسانهم هو الذى صدهم عن فهم ماجاء فى كتب دينهم وأقوال أسلافهم ففى اللغة العربية الفصحى من ذخائر العلم وكنوز الأدب مالا يمكن الوصول إليه إلا بتحصيل ملكة اللسان ، ولا تحصل هذه الملكة إلا بالعناية بتحصيل علومه على الوجه الذى سبق بيانه من الجمع بين معرفة القواعد من أسهل طرقها بدون التفات إلى عبارات المعبرين ، وبين العمل بالقول والقلم حتى يملك الطالب من اللسان ما كان يملكه العربى بسليقته ، وبدون ذلك لا نصل إلى فهم أسرار شريعتنا بل تسد فى وجوهنا طرق الوصول إلى الحقيقة منها

فعلى كل من له غيرة على ملته أن يبذل مافى وسعه لتسهيل طرق تعليم اللغة وتحصيل الملكة فيها قولا وكتابة حتى يتكلم بهاغالب أهلها ويكتبوا بها بالطريقة الصحيحة ، لأن فى انحطاط

لغتنا انحطاطا لنا ولدينا وعقائدنا وأخلاقنا ، وانحطاط ذلك مفسد لجميع أمورنا

أقول قولى هذا ولا أريد به إلزام سامعه بقبوله و إلا خالفت ماأدعو إليه من استقلال الفكر وحرية الرأى ، على أنى لا أظن أن فى السامعين من يلتزم به لو طلبت إلزامه ، ولكنه رأى أعرضه على مسامعهم فان وجده السامع صوابا أخذ به و إلا فانه لم يخش شيئا سوى احتماله مشقة الحر فى هذا المجلس ، وهو قدر مشترك بينى و بينه ،

والله يوفقنا إلى إصلاح أحوالنا فى معاشنا ومعادنا

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم

والحمد لله رب العالمين

تم الكتاب

الفهرس

صفحة

٢ التعريف بهذا الكتاب

١٥ ﴿ سورة الفاتحة ﴾

١٥ مقدمة فى الكلام على السورة فى جملتها

١٦ الكليات الخمس لهداية القرآن فى الفاتحة

١٧ أصل توحيد الله تعالى فى الفاتحة

١٨ أصل الوعد والوعيد فى الفاتحة

١٩ روح العبادات ومخها فى الفاتحة

٢١ الكلام على البسملة وكونها آية من الفاتحة

٢٦ معنى الرحمة وصيغتى الرحمن الرحيم

٢٧ رأى الاستاذ الامام فى معنى الصيغتين

٢٨ رأى ابن القيم والتحقيق لنا فيهما

٢٩ معنى الحمد فى اللغة وفى السورة

٣٠ تفسير كلمة رب العالمين

٣٢ نكتة إعادة الرحمن الرحيم فى الفاتحة

٣٤ حظ العبد من وصف الله بالربوبية

٣٥ حظ العبد من وصف ربه بالرحمة

٣٦ إسم الرحمن خاص بالله تعالى ولفظ الرب معرفا ومضافا الى عام

٣٧ تفسير مالك يوم الدين، وملك يوم الدين

٣٩ الجزاء فى الدنيا يطرد فى الأمم دون الأفراد

٤٠ تفسير إياك نعبد، وحقيقة العبادة

صفحة

٤٢ حد العبادة الذى لم يسبق الأستاذ الى مثله أحد
٤٣ روح العبادة الباطنة وصورها الظاهرة
٤٥ الاستعانة العادية بين الناس ، والاستعانة العبادية الخاصة بالله
٤٨ الموحد يستعين الله فى الأسباب وغيرها
٤٩ نكت البلاغة فى إياك نعبد وإياك نستعين
٥٠ أفضل الاستعانة ما كان على الخير والبر
٥١ الهدايات الأربع الممنوحة للانسان
٥٣ هداية الدين لحياة الانسان الاجتماعية والأخروية
٥٤ هداية الصراط المستقيم هى العناية والتوفيق
٥٦ تأول عالم أزهرى لسرقة الكتب الموقوفة
٥٨ صراط المنعم عليهم ، ومن هم ؟
٦٠ دين الله واحد فى أصوله ومقاصده .
٦١ أصول الأديان الالهية وامتياز الاسلام
٦٢ الضالون أقسام : أولها من لم تبلغهم دعوة الرسالة
٦٣ القسم الثانى : من بلغته الدعوة ولم يظهر له الحق
٦٤ القسم الثالث : المبتدعون فى الدين
٦٥ القرآن هو الميزان لمعرفة الهدى من الضلال
٦٦ القسم الرابع الضلال فى الأعمال
٦٧ عقاب الأمم فى الدنيا
٦٨ استدراك على تفسير المغضوب عليهم والضالين
٧٠ التأمين بعد الفاتحة فى الصلاة

صفحة

٧٤ ماينبغى تدبره واستحضاره من معانى الفاتحة وغيرها فى الصلاة
٧٦ حكمة الجهر بالصلاة ودرجته والاسرار فى السرية
٧٧ معارضة نصرانية سخيفة ، للفاتحة الشريفه
٧٩ فضائح جهل النصرانى مختصر الفاتحة
٨٣ الصلاة الربانية للنصارى
٨٤ تشبيه النصارى مغفرة الله بمغفرتهم للمسيئين إليهم
٨٥ نصارى الافرنج أحقد الأمم وأشدهم بغيا وانتقاما

﴿ تفسير سورة العصر ﴾

٨٧ حكمة الاقسام بالعصر ومعناه
٨٨ خطأ الناس فى ذم الزمان والعصر
٩٠ تفسير الخسر والايمان
٩١ الايمان النافع بأعم معانيه فى جميع الأمم والأزمنة
٩٢ الايمان الحقيقى الصادق والتقليدى الصورى
٩٣ الأعمال الصالحات بأعم معانيها
٩٤ معنى الحق والتواصى به
٩٥ الموصى بالحق يجب أن يكون عليه
٩٦ حقيقة خلق الصبر ومكانته من سائرها
٩٧ ضعف الصبر سبب لضعف العلم والعمل
٩٨ فوائد اجتماع الحق مع الصبر الايجابية والسلبية
٩٩ طور الايمان الأعلى للانفس البشرية وآثاره
١٠٠ ضروب شقاء فاقد الايمان الصحيح

صفحة

١٠٢ شرح سوء حال فاقدى الايمان الصحيح
١٠٣ جامعة الايمان والدين الجنسية
١٠٤ التواصى بالحق وبالصبر تعاون مشترك مصلح للأمة
١٠٦ لاعذر لأحد فى ترك الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر
١٠٨ العلوم التى تؤهل لارشاد الأمة ونصحها
١٠٩ مسألة الاختيار والجبر والكسب
١١١ سؤال مشكل وجوابه
١١٢ توهم الجاهلين أن الشعوب القوية سعيدة بغير دين
١١٣ سعادة المؤمنين بالعمل لابالالقاب الموروثة
١١٤ رجوع المسلمين إلى دينهم بالوصايا الأربع يملكهم الأرض
١١٥ مختصر معنى سورة والعصر الذى يستحضره المصلى
١١٦ ﴿ تفسير سورة الكوثر ﴾
١١٨ كون سورة الكوثر معجزة على قصرها
١١٩ ﴿ تفسير سورة الكافرون ﴾
١٢٢ ﴿ تفسير سورة الاخلاص ﴾
١٢٥ استحالة كونه تعالى والداً أو مولودا
﴿ تفسير المعوذتين ﴾
١٢٨ تحقيق معنى الخير والشر
١٢٩ أسباب ترجيح الشر على الخير وعلاجه هداية الدين
١٣٢ الغاسق إذا وقب . والنفاثات فى العقد
١٣٤ شر الحسد على صاحبه وعلى محسوده
١٣٥ حديث سحر اليهود النبي صلى الله عليه وسلم

صفحة

١٣٨ معارضة حديث السحر للقطعى من القرآن والعقل والعلم
١٤٠ حديث السحر خاص بالمباشرة الزوجية.
١٤١ رواية نزول المعوذتين فى مسألة السحر باطلة
١٤٢ ﴿ تفسير سورة الناس ﴾
١٤٣ بلاغة تكرار كلمة الناس فى السورة والقاعدة فيه
١٤٥ معنى الوسواس الخناس
١٤٧ شياطين الانس والجن ووسواسهم المفسد
١٤٩ نصيحة لكل مؤمن فى الوقاية من الشيطان

القسم الثانى من الكتاب

أثارات للأستاذ الامام

١٥٠ (الأولى) فى التوسل والتوحيد
١٥١ استفتاء فى التوسل
١٥٢ جواب المفتى فى التوسل
١٥٤ اعتقاد الجاه العرفى للأنبياء والأولياء شرك بالله تعالى
١٥٥ حديث الأعمى لايدل على صحة التوسل المعروف
١٥٨ (الاثارة الثانية) فى أفعال العباد ونسبتها تارة اليهم وتارة الى الله تعالى .
١٥٩ معنى كون النعم والنقم من الله
١٦٠ كون الحسنة من الله والسيئة من العبد
١٦٥ (الاثارة الثالثة) مسألة الغرانيق ، وتفسير الآيات التى فسرت بها خطأ

١٧٠ كيف اختلفت رواية الغرانيق
١٧٣ طعن المحدثين فى حديث الغرانيق
١٧٦ دلالة القرآن على بطلان القصة
١٧٧ نقض قول ابن حجر فى الاحتجاج بالمراسيل فى القصة
١٧٩ تفسير الآيات فى تمنى الرسل والأنبياء
١٨٣ التوافق بين آيات سورتى الحج وآل عمران
١٨٤ أمنية كل نبى ورسول فى قومه
١٨٧ تأويل ثالث لقصة الغرانيق من الابريز
١٨٨ لوازم قصة الغرانيق الباطلة قطعاً
١٨٩ دلالة معانى الغرانيق فى العربية على وضع الأعاجم
١٩٠ (الاثارة الرابعة) مسألة زيد وزينب
١٩٣ زهد عشراء الأقرباء بعضهم فى جمال بعض
١٩٤ تحريم الاسلام عادة عرب الجاهلية فى التبنى
١٩٥ عسر ترك العادات الراسخة بالوراثة
١٩٦ كان صلى الله عليه وسلم أول من ينفذ التكاليف بنفسه والاقربين
١٩٧ حكمة تزويج زيد بزينب والشقاق بينهما
١٩٨ سبب طلاق زيد لها بدلالة النص
١٩٩ تفنيد رواية حبه صلى الله عليه وسلم لزينب إذ رآها
﴿ مقالة للمنار فى هذه المسألة ﴾
٢٠٣ اعتراض مسيحى على كلام الأستاذ الامام وردنا عليه
٢٠٥ الدليل العقلى على افتراء قصة زينب
٢٠٨ تعذر إبطال التبنى الفعلى بغيره صلى الله عليه وسلم
٢١٢ (الاثارة الخامسة) محاضرة أو درس عام فى العلم الاسلامى والتعليم

٢١٣ معنى العلم فى لغتنا و ديننا و عرف سلفنا
٢١٧ العلم الحقيقى و الجهل الذى يظن أنه علم
٢١٩ العلوم الاسلامية : النحو و تدريسه
٢٢١ فن معرفة درجات الأذهان و استفادة العلم
٢٢٣ علم المعانى و البيان و الغاية منه
٢٢٤ أسهل طرق تعليمه
٢٢٧ الغاية من علم التوحيد
٢٢٩ الوصول إلى اليقين رهين بحرية الاستدلال
٢٣٠ اعتماد الطالب على بحثه مع حضور درس شيخه
٢٣٢ دعوى التوكل ممن لا يعرفه جهلا و غرورا
٢٣٦ الخاتمة فى توقف كل علم على إتقان اللغة

صدرت حديثاً الطبعات الجديدة من

السنة والشيعة

خلاصة السيرة المحمدية

الوحي المحمدي

نداء للجنس اللطيف

تأليف

السيد محمد رشيد رضا

صدرت حديثاً الطبعات الجديدة من

الأجزاء الأول والثالث والرابع والخامس والسادس والتاسع

من

تفسير المنار

هذا هو التفسير الوحيد الذى فسر به القرآن من حيث هو هداية عامة للبشر ورحمة للعالمين وجامع لأصول العمران وسنن الاجتماع وموافق لمصلحة الناس فى كل زمان ومكان بانطباق عقائده على العقل وآدابه على الفطرة وأحكامه على درء المفاسد وحفظ المصالح . وهذه هى الطريقة التى جرى عليها فى دروسه فى الأزهر حكيم الاسلام ، وعلم الأعلام الشيخ محمد عبده

بقلم

السيد الامام محمد رشيد رضا

GENERAL BOOKBINDING CO.
423WB
72 N 103 6169
QUALITY CONTROL MARK

BP
128.16
.M831
APR 7 1977
NOV 8 1972

COLUMBIA LIBRARIES OFFSITE
CU55316360
BP128.16 .M831 Tafsir al-Fatihah wa